ذكريات الزمن الجميل

حكايات من أشيقر

(المجموعة الثانية)

إسماعيل بن إبراهيم السماعيل

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

ذكريات الزمن الجميل

حكايات من أشيقر

(المجموعة الثانية)

إسماعيل بن إبراهيم السماعيل

1442هـ/ 2021م

ح إسماعيل إبراهيم السماعيل ، 1442هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السماعيل، إسماعيل إبراهيم حمد

حكايات من أشيقر (المجموعة الثانية)./ إسماعيل إبراهيم حمد السماعيل

الرياض ، 1442هـ

356 ص ؛ 14 × 21 سم

ردمك: 978-603-03-7003-0

1- القصص الشعبية السعودية أ. العنوان

ديوي: 813.0395531 1442/5786

رقم الإيداع: 1442/5786

ردمك: 978-603-03-7003-0

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

1442هـ/ 2021م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لماذا هذه الحكايات؟

هذه القصص لماذا كتبتها الآن؟

أعرف أن ذلك سؤال يجول في أذهان كثير من الناس كجواد المضمار. سألت نفسي هذا السؤال، ولكن بطريقة مختلفة؛ لماذا لا أكتب هذه الحكايات؟

هناك أسئلة نلقيها ولا ننتظر جوابًا؛ أما هذا السؤال له لون آخر، ومذاق آخر، يلح عليَّ أن أجيب.

إن التحول الذي يعيشه هذا المجتمع على المستوى الاجتماعي فرض على كل مثقف مسؤولية المحافظة على المنابع الأولى للحياة الاجتماعية، فهي الخيط الرفيع الذي لم ينقطع بعد، الذي يشدنا إلى ماضٍ كان الأجداد أبطاله.

تغير في هذا الزمان كل شيء، لهجتنا، ومأكلنا، وملبسنا، وأسلوب تعاملنا، والمسكن، ونوع الأثاث.

كل شيء لدينا أصبح ملونًا بألوان خارجة عن البيئة التي كانت تتحدث بلسان عربي مبين.

خادمة سريلانكية، سائق بنغلاديشي، برامج أطفال تخاطب عقلًا غيرنا، أثاث أمريكي، أجبان فرنسية، ... وهكذا.

لم يبق لدينا شيء له رائحة لم يتغير حتى العود الهندي! .

منذ أكثر من عشرين عامًا، ونحن لا نصنع أحداث المجتمع ولا حكاياته، يصنعها سوانا، قد نكون جزءًا من تلك الأحداث، ولكننا لسنا كما كنا في الماضي، حينما كنا البداية والعقدة والأبطال والنهاية أيًا كانت مأساة أو ملهاة.

لذا وقع انفصال رهيب بين شباب هذا الجيل، وكفاح الأجداد الذي خطوه على الطرقات، والجدران، والأبواب الخشبية، وعسبان النخيل، وأشعة القمر، ومياه الآبار، والغدران، وأعشاب الصحراء.

وسوف تزداد غربة أطفال اليوم حينما يصبحون شبابًا؛ لأن المسافة طالت وبعُدت، ووقعت القطيعة.

فيما مضى كنا نرى ذاكرة القرية نابضة بالحياة، تنتقل فيها الأحداث التي نسجها الصبر والصراع مع ظروف الحياة من الجد إلى الأب إلى الابن كإناء الماء، ليستمر التأثر والتأثير، كخيط أحلام وأمان لا تنتهي؛ لأن كلًّا منا يريد أن يكون كمن سبقه.

كانت حلقات الحديث التي تنعقد طوال اليوم في مجلس القرية كتابًا مفتوحًا يقرؤه كل من يريد.

الآن أغلق الكتاب، وتبخرت الكلمات، وفقدت الحروف بريقها، وهدأ ضجيج الحياة.

يمضي الشاب جزءًا من عمره لا يتحدث مع من يفوقه سنًا وتجربة عن تلك التجارب التي كانت ماضيًا لا يجد أنس الذكرى به إلا من عاشه.

أما هذا الزمن، فله ثياب أخرى.

رجل التجارب في منزله وحيدًا، والشاب في الشارع يقتات الفراغ، أو يتحدث مع وافد بِلُغة تعمَّد كسر عظامها.

في المنزل قديمًا، وفي ليالي الصيف التي قد تهب فيها النسائم التي تحمل في أجنحتها رائحة التمر، وفي ليالي الشتاء الباردة التي كانت توثق التكاتف الاجتماعي، كانت ذاكرة القرية ما تزال تدور، ونبع التجارب ما يزال يتدفق من حديث الجدَّات، تروي ظمأ الشوق إلى ماضٍ لم يعشه السامعون.

لذا كان لا بد من الكتابة، وتسجيل هذه الحكايات التي لم أكن بطلها، وليس لي فيها إلا تسويد الصفحات.

أما الكاتب الحقيقي فهو الذي عاشها بصدق من دون أن يدري أنه سيأتي كاتب يومًا ليعيد صهرها على الورق.

ازدحمت الذاكرة بمئات القصص والحكايات، فكان طريق الانتقاء صعبًا، كيف أختار من بين هذه التوائم المتشابهة؟

حاولت أن تكون تلك الحكايات كسلّة زهور، ألوان متعددة، وروائح مختلفة، كطبق من الفاكهة المتنوعة، له أكثر من طعم.

وكان لا بد من الكتابة؛ لكي يصبح هذا الخيط الرفيع

الذي ما زال يشد بعضنا للماضي كشعرة معاوية يد إنقاذ تمتد إليها تجارب الماضي لنبني مجد الحاضر بسواعدنا، لا بسواعد الآخرين.

وقد كتبت جزءًا من هذه الحكايات منذ خمسة عشر عامًا، وعرضتها على بعض الزملاء لمعرفة رأيهم حولها؛ حيث جاءتني آراء مختلفة من شخص لآخر.

فأحدهم أشاد بها وأوصى بطباعتها، وآخر اقترح تحويلها إلى حلقات تليفزيونية على غرار (طاش ما طاش)، وثالث أبدى إعجابه بالأسلوب الساخر في بعض الحكايات، ورابع لم تعجبه هذه الحكايات، وقال إنه ينتظر كتابة رواية تتحدث عن (....) وذكر أنماطًا من المشاكل التي يجب أن تتضمنها الرواية باعتبار أنني مررت بها، ولقد تعجبت من هذا الرأي الشاذ؛ لأن قائله يعرف أنني في حياتي لم أمر والحمد لله بأية مواقف معقدة، أو صعبة، وأن أيامي كانت تتميز بالوضوح الذي يجعلني بعيدًا عما ينظره، ومما زاد في عجبي هو تناقض هذا الصاحب بين ما يقوله، وبين ما يعمله؛ مما جعلني لا أعطي

رأيه أي اهتمام.

بسبب ضغط العمل اليومي صباحًا ومساءً، أجلت التفكير في موضوع طباعة هذه الحكايات خاصة وأنني أرى ضرورة زيادتها، ودعمها بحكايات أخرى حتى أُحلت على التقاعد؛ فوجدت فرصة لإعادة النظر فيها، وكتابة حكايات أخرى، وهو ما حدث، إلا أن الملاحظ أنني في المرحلة الثانية للكتابة اهتممت بنوع من الحكاية كان غائبًا عن الحكايات الأولى، هذا النوع يعتمد على النفس الأسطوري، أو شبه الأسطوري في الحكاية، وقمت بكتابة هذه الحكايات انطلاقًا من مبدأ رواية الواقع كما هو، وكيف يحكي دون الدخول في مسألة صدقه أو كذبه أو كونه واقعًا صحيحًا أو خياليًا.

ولعل السبب الأساسي الداعي لكتابة هذه الحكايات أو بالأصح لتسجيلها باعتبارها واقعًا استمعت إليه من ألسنة المتحدثين به هو الاحتجاج على السلبية المطلقة، والكسل العميق الذي يعيشه المجتمع القروي في أشيقر وفي غيرها من القرى؛ حيث سمح هذا الكسل باندثار ذاكرة القرية الشفوية

الشعبية، التي تختزنها أذهان كبار السن في المجال الاجتماعي والتاريخي والسياسي وغيرها، وسمحنا لها بأن تذوب وتذهب إلى غير رجعة، من دون أن نكلف أنفسنا تسجيلها ممن عايشوها أو حفظوها، عدا ما يخص الأوقاف لأنها مكتوبة بأقلام العلماء ورجال الدين.

للأسف الشديد أمضيت أعوامًا تصل إلى عشرين عامًا، وأنا أتصل وأتحدث مع أشخاص يتمتع آباؤهم بذاكرة قوية تختزن آلاف الحكايات التي تصور الحياة الواقعية لهم ولمن عاش قبلهم بصدق، وأطلب من هؤلاء الأشخاص تدوين ما لدى آبائهم من حكايات وقصص وحوادث وأشعار، ولكن للأسف لم يستمع إلى كلامي أحد من أولئك حتى انطمرت «ذاكرتنا الشعبية» لوفاة أولئك العظماء.

واتضح لي أن هذا الخطأ الكبير ارتكبه المجتمع بجميع طبقاته لا فرق بين خريج الجامعة أو من لا يحمل سوى الشهادة الابتدائية، كما اتضح لي أن أولئك الأشخاص بلغ بهم الكسل والتراخي حدًا يجعلهم لا يمدون أيديهم لأقلامهم إلا

لتوقيع الحضور أو الانصراف من دوامهم اليومي إلا قلة منهم تحتم طبيعة عملهم أن يقدموا شيئًا ولو ضئيلًا.

وهكذا أصبحنا في هذا العصر في مرحلة اللاتوازن ومجتمعًا بلا ذاكرة لأننا لم نسجل ذاكرة الماضي، ولا نصنع الحاضر الذي سلمنا أمره للعمالة الأجنبية، وأصبحت مهمتنا اليومية هي إضاعة الوقت في لعب الورق، أو مشاهدة مباريات القدم، أو متابعة المحطات التلفزيونية، أو اللعب بجهاز الجوال، والنوم في وقت متأخر، والصحو في وقت متأخر أيضًا.

لكن مما يخفف عني وطأة الإحساس بالذنب أنني لم أكن من هؤلاء، حيث قمت من جانبي بتسجيل جزء بسيط من هذه الذاكرة الشعبية، وجعلته بين الناس معلومًا ومذكورًا؛ لأنني لا أرضى لنفسي أن أكون ممن ينطبق عليه قول الشاعر: «لا تنه عن خلق وتأتي مثله»، وأقنعت والدي - رحمه الله - أن يكتب ذكرياته عن التعليم أيام الكتاتيب وما بعدها، وحينما كنت أعمل مقررًا عامًا للجنة العليا لموسوعة تاريخ التعليم

أعددت خطابًا شخصيًا بتوقيع الوزير الدكتور محمد الأحمد الرشيد – رحمه الله –، موجهًا إلى والدي وسواه من رجال التعليم المخضرمين، والذين شهدوا بداية التعليم النظامي، ثم تابعت الموضوع مع الوالد، حيث قام بكتابة مذكرة تتكون من (250) صفحة، جاءت كشكولًا يضم وقائع تربوية واجتماعية وتاريخية ودينية، كما قمت بإعداد مذكرة عن أمثال أشيقر الشعبية، أفكر حاليًا في مسألة إصدارها في كتاب، وقمت أيضًا بكتابة عدة مذكرات عن واقع أشيقر القديمة، وجمع عشرات الأبيات من الشعر الشعبي الأشيقري، التي تصور الحياة في زمن مضى وسمحنا له بالزوال، ولعل خاتمة ما كتبته في هذا المجال هذه الحكايات التي آمل أن أتبعها بحكايات أخرى.

أود الإشارة إلى أن هذه الحكايات كانت حكايات اجتماعية واقعية، حدثت على ثرى أشيقر، وأوردتها كما حدثت، سوى إخفاء معالم أبطالها الذين استعملت الكنى بدلًا من أسمائهم لاعتبارات اجتماعية، غير متدخل في حوادث الحكاية، وليس لي فيها سوى كتابتها بنص أدبي فصيح بعيدًا

عن العامي، ولم أصدر أحكامًا بصدقها أو عدمه؛ لأنني كاتب ولست قاضيًا، على أن ذلك يخص القصص الواقعية، أما القصص ذات الحدث الأسطوري فأوردتها كما هي تقريبًا بشخوصها، عدا حكاية واحدة؛ لأن ظروف الكتابة عنها تتطلب ذلك[1].

كما أود أن أشير إلى أن حكايات هذا الكتاب (المجموعة الثانية) تختلف نوعًا ما عن حكايات المجموعة الأولى(أوردتُها في كتاب سابق) من ناحية وتتفق معها من ناحية ثانية.

فحكايات المجموعة الأولى واقعية أو أسطورية دارت أحداثها تقريبًا في أرض الجزيرة العربية خاصة في أشيقر أو الجبيل أو القصب، وقليل جدًا ما تخرج الحكايات عن الجزيرة إلا نادرًا جدًا كما في حكاية «فرعون أشيقري أم قصبي؟!»

---

(1) إلى هنا مقدمة (المجموعة الأولى من كتاب: حكايات من أشيقر). ولأن مضمون هذه الحكايات متشابه مع المجموعة الأولى في واقعيته أو أسطوريته رأيت من المهم إعادة نشرها مرة أخرى بتصرف بسيط لأنها تنبض بنفس الواقعية والصدق في التناول.

حيث تجاوزت الحكاية حدود الجزيرة إلى مصر.

أما في هذا الجزء (المجموعة الثانية) فإن ما لا يقل عن 70٪ من الحكايات جرت أحداثها خارج حدود الجزيرة في الجزائر والمغرب وتونس وإيطاليا واليونان وسوريا والأردن ولكنها اتفقت جميعها في أن البطل الذي تدور حوله الحكايات أيًا كان نوعها هو الكاتب نفسه، فهي أقرب ما تكون للسيرة الذاتية.

هل وفقت؟ لعل وعسى، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي، والحمد لله رب العالمين.

إسماعيل بن إبراهيم السماعيل
0505227082
الوشم/ أشيقر

* * *

رزقك في بغداد[1]

أدت أم عليان صلاة الفجر في سطح منزلها الطيني المتواضع الذي يقع شرقي القرية وتحيط به النخيل إحاطة السوار بالمعصم، وأعطت نفسها فرصة لإمتاع نظرها بمنظر غابات النخيل الممتدة على مساحة البصر، وانتظار بزوغ القرص الذهبي للشمس حيث يمتزج اخضرار النخيل بالخيوط الذهبية في لوحة فنية رائعة الجمال والإبداع، كما كان لسمعها فرصة الاستمتاع بالأنغام الموسيقية الجميلة التي تصدر عن اليمامات التي تتمايل على عسبان النخيل التي ترقص كلما هب عليها النسيم العليل المتفاعل مع الندى الذي يتصاعد من البساتين وكأنها وهي ترسل ألحانها الشجية العذبة ترحب بالشمس لحظة ولادتها.

لم يكن هناك شيء يشغل بال أم عليان عن إضاعة فرصة كهذه، فزوجها لم يكن يملك نخيلاً ولا أرضًا زراعية لكي تجد

(1) أسماء الشخصيات في هذه الحكاية مستعارة، وليست أسماء حقيقية.

نفسها ملزمة بمساعدته في الاعتناء بها، بل إن البيت شبه خال لا يوجد به مؤنة الإفطار أو الغداء التي قد تحتاج إلى إعداد مسبق، كل ما يوجد في هذا المنزل الضيق حفنة من التمر التي تجود بها أيدي المحسنين، وقربة ماء معلقة.

لقد أصبحت السياحة في سطح المنزل عادة لأم عليان طيلة فترة الصيف خاصة وأن الفترة الحالمة التي تمتد من صلاة الفجر حتى الإشراق لا يضيعها في ذلك الزمان إلا جاهل حتى ولو لم يكن لديه عمل يقوم به.

كم كانت هذه السياحة في هذه الساعات الرائعة فرصة ثمينة للهروب من إزعاج الحمار المقيد في مدخل المنزل صوتًا وحركة ورائحة، حتى يأتي أبو عليان للعمل عليه إن وجد عملًا وما أقله. كما أن هذه السياحة تعالج إحباطًا نفسيًا يسيطر على أم عليان لأنها لا تملك من هذه البساتين سوى النظر إليها فقط، ولا يخفف من هذا الإحباط إلا أيدي المحسنين التي تمتد إلى فقراء القرية بما يقيم أودهم.

هكذا كانت أم عليان تقضي هذا الوقت الجميل، أما أبو

عليان فكان يخرج من المسجد مؤديًا صلاة الفجر، ويبقى في مجلس القرية مع أمثاله من الفقراء بانتظار أن يأتي إليهم أحد كبار المزارعين للعمل لديه بالجازة (العمل مقابل الأكل فقط) دون مقابل مادي، فهذه الفترة وقت نضوج تمر النخيل وما يتطلبه من أعمال شاقة قد لا يستطيع الفلاح وأولاده القيام بها لوحدهم، لكن كثرة العاطلين عن العمل تجعل فرصة الحصول عليه تتضاءل إلى حد بعيد، لهذا كان أبو عليان يشترط على من يطلبه للعمل اصطحاب حماره للعمل عليه، على الأقل لكي يخفف عن نفسه مسؤولية إطعام الحمار ولو لمرة واحدة فقط.

ذات يوم -وكان يوم جمعة- حدث ما أزعج أم عليان وكدر عليها فرصة السياحة الصباحية، لقد علا نهيق الحمار الذي كانت تهرب منه حتى غطى على هديل اليمام الذي يطرب أذنيها. تُرى هل جاء لص ليسرق الحمار الذي يمثل لتلك العائلة ثروة كبيرة؟ من أين يأتي اللص والقرية لا تعرف شيئًا عن هذه الجريمة حتى أن الأبواب لم تكن تقفل ليلًا؟ ثم ماذا سيفعل اللص بهذا الحمار الهزيل الذي سوف يكلفه أكثر

من قيمته؟ هكذا تساءلت أم عليان ثم قررت أن تكتشف الحقيقة بنفسها فنزلت إلى أسفل المنزل لتجد أبا عليان قد عاد هذه المرة إلى المنزل بعد صلاة الفجر دون المكوث في مجلس القرية انتظارًا لعمل قد يأتي وقد لا يأتي.

رأت أم عليان زوجها وهو يحل قيد الحمار. قالت: إلى أين ستذهب به؟ قال لها: لأبيعه هذا اليوم. قالت: وكيف نبيعه وهو ثروتنا التي نعتمد عليها بعد الله رغم هزاله؟ فقال لها: لا بد من بيعه ولا بد من استغلال فرصة هذا اليوم الجمعة حيث يتوافد البدو لصلاة الجمعة، وممارسة البيع والشراء فقد نبيع الحمار بثمن جيد.

حاولت أم عليان أن تعرف السبب الداعي لهذا التصرف المفاجئ، ولكن أبا عليان لم يقل لها شيئًا سوى أنها سوف تعرف ذلك في الأيام المقبلة.

خرج أبو عليان بالحمار وربطه في مجلس القرية ريثما يؤدي صلاة الجمعة، وتمكن بعد الصلاة من بيع الحمار بمبلغ (10) عشرة دراهم، وهو مبلغ يعتبر جيدًا بالنسبة لحالة الحمار الذي

اشتراه أحد البدو رغم هزاله أصلًا لأن ربيع الأرض سيحسن حالته الصحية وسوف يملك بسبب ذلك حمارًا رائعًا.

عاد أبو عليان إلى منزله يحمل نقوده في يده وحين جلس في فناء المنزل جلست أم عليان بقربه وسألته: هل بعت الحمار؟ فأجاب: نعم، فقالت: ما ضرك لو أنك اشتريت بالثمن شاة حلوبًا تغنينا عن النظر إلى ما يتصدق به الغير علينا، فقال أبو عليان لها: ليس هذا موعد ما تقولين فأنا الآن أستعد للسفر إلى إحدى البلدان المجاورة للبحث عن عمل؛ من أجل ذا بعت الحمار لأستعين بجزء من ثمنه في تدبير أموري أثناء سفري.

لم يوضح لها أبو عليان إلى أين سيسافر بالتحديد، وقام أبو عليان باقتسام المبلغ نصفين حيث أعطاها خمسة دراهم لتصرفها على ما تحتاجه مدة غيابه التي قد تطول وقد تقصر، وطلب أبو عليان من زوجه أن تجهز أدوات سفره الذي سيكون فجر الغد، ولم تنفع محاولاتها في ثنيه عن هذه الرحلة المفاجئة وكأن المشهد يعيد حكاية الشاعر البغدادي ابن زريق حينما خاطب زوجته قائلًا:

وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى ... وأدمعـــي مستهلات وأدمعه
ودعتـــه ويودي لـــو يودعنـــي ... صفو الحياة وأني لا أودعـــه

في فجر اليوم التالي حمل أبـو عليـان متاعـه القليـل والبسيط وهو عبارة عن قُفَّة (وعاء من خوص) بها بعـض قرصـان الـبر المدهون بالسَّمن البلدي، وحفنة من التمـر القليـل، وقربـة مـاء صغيرة بحجم الكف ليسـهل حملهـا عـلى الكتـف، واتجه شـمال القرية حيث يوجد خارجًا عن سورها وقريبًا منه بئر مـاء ينـزل عندها أصـحاب القوافـل المتجهـة للشـمال أو الجنـوب وحينـما وصل البئر وجد لحسن حظه قافلة على وشـك الرحيـل متجهـة شمالًا وهو ما يريده سـأل عـن قائـد القافلـة وحينما قابلـه أبلغـه برغبتـه في مرافقـة القافلـة، ولكنـه أبلـغ القائـد أن أجرتـه التـي سيدفعها هي خدمات يقوم بها لخدمـة القافلـة وأفرادهـا؛ نظـرًا لأن ما معه من مال قليل لا يساعده على الدفع النقدي.

كان قائد القافلة رجلًا طيبًـا فوافـق عـلى مـا قالـه أبـو عليـان وسارت القافلة وأبو عليان يسير أمامهـا ممسـكًا بخطـام إحـدى

الرواحل لتستريح القافلة بعد مسيرة نهار بكامله عند إحدى الآبار ويبدأ أبو عليان في إناخة القافلة وإنزال حمولتها للتخفيف عنها وإطلاقها للرعي ولشرب الماء وقام بتعبئة القرب التي نفد ما فيها، وطبخ الطعام لأفراد القافلة، ومع بشائر الفجر التالي استأنفت القافلة مسيرتها بعد أن قام أبو عليان بالتعاون مع أصحابها بتحميل البضائع والقِرَب مرة أخرى.

قبل مغرب ذلك اليوم وصلت القافلة إلى محطتها النهائية كما أبلغ قائد القافلة أبو عليان بذلك، لكن أبا عليان أخبر القائد بأن هذه ليست محطته الأخيرة ولكنه في الحقيقة ينوي مواصلة السفر إلى بغداد.

أبلغه قائد القافلة أن عليه أن يبحث عن قافلة أخرى متجهة إلى المكان الذي يقصده، وطلب من أبي عليان أن يكون ضيفه هذه الليلة، وفي الصباح يبحث وإياه عن قافلة متجهة إلى بغداد، فوافق أبو عليان على ذلك.

في الصباح خرج أبو عليان وقائد القافلة بحثًا عن قافلة

مسافرة حيث عرفا أن هناك قافلة موجودة عند إحدى الآبار القريبة تستعد للسفر، فذهبا إليها وسألا عن القائد، وحينما وجداه تحدث معه أبو عليان عن رغبته في السفر مع القافلة وفق شروطه مع قائد القافلة الأولى، وكان حظ أبي عليان مزهرًا حيث وافق قائد القافلة رغم أن مسافة الرحلة أطول ومصاريفها أكثر، وهكذا تحول أبو عليان من مسافر إلى خادم يقوم بتأدية كل الأعمال التي يطلبها منه راكبو الإبل عند نزولهم عندما تغرب الشمس عند إحدى الآبار أو القرى، وعند رحيلهم فجر اليوم التالي.

استغرقت الرحلة إلى بغداد مدة عشرين يومًا، كان أبو عليان فيها نعم الخادم المطيع الذي لا يعرف كلمة (لا)، حينما وصلت القافلة إلى الساحة الرئيسة التي تنزل فيها القوافل خاصة القادمة من الجنوب، أبلغ قائد القافلة أبا عليان أنه والأشخاص الذين قدموا معه سيقيمون في أحد الخانات المطلة على الساحة، وهو خان بسيط في مظهره وأثاثه ويقدم خدمات الأكل البسيط لنزلائه، واقترح على أبي عليان النزول معهم، إلا

أنه اعتذر لضيق اليد وعدم قدرته على دفع الإيجار وأنه يفضل أن يقيم في أحد المساجد لأنه بيت الله الذي لا يكلفه أي مبلغ مادي، مدخرًا دراهمه الخمسة للصرف منها على حاجاته الضرورية.

قصد أبو عليان مسجدًا قريبًا يطل على الساحة أرشده إليه قائد القافلة، كان مسجدًا صغيرًا ولكنه نظيف، ولعل أجمل ما في هذا المسجد وجود دورات مياه للوضوء، وهو ما لم يكن ليصدقه أبو عليان لأن عينيه اعتادتا على ما يشاهده في قريته البسيطة فقط.

حينما أراد دخول المسجد أوقفه حارس المسجد ليسأله من يكون ومن أين أتى وإلى أين سيذهب؟ فأخبره أبو عليان بكل شيء وأوضح له خاصة حالة الفقر التي أجبرته على أن يتخذ المسجد مكانًا لنزوله.

رأف الحارس ودخل معه المسجد وحدد له مكانًا في مؤخرة المسجد للمبيت فيه بل وساعده بإحضاره فراشًا وغطاءً بسيطين له.

علق أبو عليان قُفَّته وقِرْبَته اللَّتين لم يأخذ منهما شيئًا طوال رحلته لأن أصحاب القافلة قد تكفلوا بكافة نفقاته مقابل الخدمات التي يؤديها لهم.

لم يغادر أبو عليان المسجد بقية يومه من أجل الراحة من عناء السفر، كما أنه أمّن أكله وشربه من قرصان البر التي صنعتها له زوجته منذ أكثر من عشرين يومًا، ومن قربة الماء الصغيرة التي أحضرها.

لاحظ أبو عليان بعد انصراف المصلين من صلاة العشاء وجود رجل كبير السن يؤدي مزيدًا من النوافل ثم يتوسد ذراعه وينام في روضة المسجد ولم يحاول أن يتدخل في شؤونه باعتباره غريبًا ويجب أن يكون أديبًا.

في الصباح الباكر خرج أبو عليان إلى ساحة القوافل، وأخذ ينظر يمينًا وشمالًا، لقد أثارت بغداد دهشته واستغرابه فلم يكن يتجاوز ظنه بها سوى أنها قرية شبيهة بقريته يتواجد على أرضها بعض أشجار النخيل وآبار الماء القديمة، لكنه وجد حديقة يسكنها آلاف البشر، وترقص في سمائها مئات الآلاف

من النخيل، ويجري في قلبها نهر يسمى دجلة، وتضم بين جناحيها عشرات المساجد الكبيرة في مساحتها والجميلة في عمارتها، إلا أن أكثر ما أثار دهشته وجود بعض المحلات التي تبيع على المارة وجبات الأكل غداء وعشاء، فهذا ما لم يكن يخطر له على بال.

أخذ أبو عليان يخرج كل يوم من المسجد ويدور في أنحاء بغداد على غير هدى؛ بحثًا عن رزقه الذي جاء من أجله، عرض نفسه على مجموعة من البنائين فاعتذروا، على أصحاب بساتين النخيل، على قاطعي الأخشاب، على محلات البيع والشراء، بل على أصحاب الجعفريات[1] على شاطئ دجلة، ولكنهم جميعًا اعتذروا عن تأمين فرصة عمل له ليرجع إلى مكان إقامته خائفًا ويكرر المحاولة في اليوم التالي ليحصل على نفس الإجابة.

استنتج أبو عليان من الرجل الكبير الذي ينام في المسجد

---

(1) الجعفريات: مصطلح عراقي، يقصد به: المراكب التي تحمل الناس على النَّهر.

بأنه زاهد في الدنيا ومنقطع للعبادة ولا يكاد يغادر مسجده إلا للذهاب للوضوء، كما أنه لاحظ أن هناك شخصًا يأتي إلى هذا الرجل مرتين ظهرًا ومساءً وهو يحمل صحفة فيها قليل من الأكل لا يكاد يشبع عصفورًا.

رأى أبو عليان أن من الحكمة أن يذهب إليه ويقاسمه بعض قرصان البر التي ما زالت معه لكي يحصل على الأجر من الله تعالى، وفعلًا أخذ بعضًا منها وذهب إلى الرجل في مصلاه ودعاه لمشاركته الأكل.

لم يمانع ذلك الرجل ليس رغبة في الأكل، ولكن من باب مؤانسة هذا الرجل الغريب الذي يشاركه الإقامة في المسجد، استمر أبو عليان وهذا الرجل الزاهد ثلاثة أيام يتشاركان الأكل ولا يسأل أحدهما الآخر عما أتى به إلى هذا المكان، وعن اسمه، كما هي عادة العرب عن عدم سؤال الضيف إلا بعد ثلاثة أيام.

بعد اليوم الثالث سأل الرجل الزاهد أبا عليان من أين جاء؟ ولماذا قصد بغداد بالذات؟. هنا أخبره أبو عليان بالسر

الذي أخفاه عن زوجته وهو: أن رائيًا زاره في المنام ثلاثة أيام متتالية وكان يقول له في كل ليلة اذهب إلى بغداد فإن رزقك فيها، ولهذا جاء وها هو يخرج كل يوم يبحث عن هذا الرزق فلم يجده، ويخشى أن تمضي الأيام سراعًا به وحلمه يتضاءل.

هنا ضحك الرجل الزاهد ضحكة عريضة حينما أخبره أبو عليان عن رائي المنام، ثم قال موجهًا كلامه لأبي عليان: وهل تصدق كل ما تراه في المنام؟! إنه قد يكون أضغاث أحلام قد لا تصدق، ثم تابع الرجل الزاهد: كن مثلي في عدم الاندفاع والتصديق بما تراه في منامك، فأنا مثلًا زارني في فترات سابقة رائي وأبلغني أن رزقي تحت مربط حمار رجل يسمى: (أبو عليان) في قرية نجدية اسمها: (أشيقر) ولكنني لم آخذ قوله على محمل الجد باعتباره أضغاث أحلام، ولكوني زاهدًا منقطعًا لعبادة ربي.

طبعًا لم يكن الزاهد يعلم أن صاحب الحمار المسمى بأبي عليان هو جليسه لأنه لم يسأله عن اسمه، وأبو عليان لم يقل له؛ لأنه لا يريد أن يعرف الناس كل شيء، بل يريد أن يبقى شيئًا

غامضًا في عيون وعقول الناس.

حينما وضع أبو عليان رأسه على وسادته لينام، لم يجد النوم إلى جفنيه طريقًا بل انشغل عقله بالتفكير في حلم الرجل الزاهد، وقد أفضى به ذلك إلى صدق ما رآه من الرائي في أشيقر بأن رزقه في بغداد، وأن ذلك لا يعني أنه يجد في بغداد رزقًا من ذهب وفضة، ولكن أن يجد في بغداد من يدله على رزق مدفون في تراب منزله يطأه كل يوم صباحًا ومساءً دون أن يدري، هنا أدرك معنى أن رزقه في بغداد.

قرر أبو عليان بناء على ما سمعه من الرجل الزاهد أن يعود إلى قريته ويحفر أرض منزله وحسب النتيجة التي يصل إليه يكون الحلم صادقًا أو أضغاثًا.

لكنه رأى ولأسباب عدة أن يؤجل العودة لمدة ثلاثة أشهر منها لكي لا يشك الرجل الزاهد في سر عودته المفاجئة رغم أنه لا يستطيع أن يعمل شيئًا، وكذلك خوفًا من تساؤل قريته عن سر عودته، وأن من يسافر من أجل البحث عن الرزق لا يعود بهذه السرعة مما يؤكد أن هناك سرًا في ذهابه وإيابه.

ومنها أنه استطاع أن يجد له عملًا كجداف على ظهر إحدى الجعفريات التي تمخر عباب نهر دجلة من الضفة إلى الأخرى لنقل الركاب بأجرة لا بأس بها بمقاييس ذلك الزمان.

كان يخرج كل صباح بعد أن يودع جاره في المسجد (الرجل الزاهد) ويذهب إلى عمله ولا يعود منه إلى عند غروب الشمس، وهكذا استمر طيلة ثلاثة أشهر متواصلة حتى إذا اقتنع من حوله وأهل قريته أن ذهابه لبغداد كان من أجل البحث عن عمل، عندها قرر العودة لكي يبحث عن رزقه في أشيقر بعد أن وجد من يدله عليه في بغداد.

خرج أبو عليان صباحًا إلى محطة القوافل وكان سعيد الحظ أن وجد قافلة تستعد للإنطلاق فجر اليوم التالي، حيث اتفق مع قائدها على أن يكون من ضمن ركاب القافلة، ولكنه هذه المرة يذهب راكبًا يدفع أجرته، لا خادمًا يجهده كما كان في المرات السابقة.

في صباح اليوم التالي ودع صديقه الزاهد وحارس المسجد وانطلق حاملًا قفته وقربته وانضم إلى القافلة التي بدأت

مسيرتها على بركة الله.

استمرت القافلة مواصلة رحلتها طيلة عشرين يومًا تسير طوال النهار ولا تتوقف إلا عند غروب الشمس على أحد موارد المياه حيث يقوم أفراد القافلة بملء القرب الفارغة وإنزال الأحمال تخفيفًا عن الإبل، وطبخ طعام العشاء، ثم الخلود إلى النوم لمواصلة الرحلة جنوبًا صباح اليوم التالي.

بعد عشرين يومًا وصلت القافلة محطتها الأخيرة في منطقة القصيم، حيث حمل أبو عليان قفته وقربته وانطلق إلى مركز تجمع بعض القوافل التي تتجه جنوبًا لمعرفته المسبقة بمكانها، وضرب الحظ الزاهي للمرة الثانية ضربته حيث وجد قافلة ستذهب غدًا متجهة جنوبًا مرورًا بقريته، هنا قرر أبو عليان أن ينام جوار القافلة لأنه لا مكان له يأوي إليه، وفي الصباح انطلق مع القافلة كراكب وليس كخادم لقدرته على الدفع.

بعد يومين تقريبًا وقرب غياب قرص الشمس كانت القافلة تحط رحالها جوار البئر التي تقع شمال قرية أبي عليان، وقد قرر أبو عليان الانتظار وعدم دخول القرية حتى ينتصف

الليل لإخفاء أمره عن أهل القرية الذين يكونون قد أووا إلى مضاجعهم.

دخل أبو عليان إلى القرية وذهب إلى منزله وطرق الباب لكي تسمعه زوجه التي قالت: اللهم لا طارق يطرق إلا بخير، واتجهت إلى الباب تسير على أطراف أصابعها لتنظر من الطارق وحينما قالت: من؟ أجابها قائلًا: أنا أبو عليان يا زوجي الحبيبة. لم تسعها الفرحة التي غمرتها وفتحت الباب على عجل حيث عانقت ذلك الغائب قرابة خمسة شهور.

كان أبو عليان مرهقًا من الرحلة لذا رأى أن ينام مؤجلًا أي حديث مع زوجته إلى صباح اليوم التالي.

بعد أن أدى صلاة الفجر في بيته لأنه كان متعبًا من السفر جلس جوار النافذة التي تطل على بساتين النخيل منتظرًا في شوق ضوء الصباح لكي يمتع نظره بمنظر الخضرة وسمعه بهديل اليمام.

أسفر الصبح لذي عينين، وهنا جاءت أم عليان تحمل في يديها إناء به قليل من التمر ووعاء به قليل من حليب الشاة.

وهنا سأل أبو عليان زوجه: من أين أتيت بهذا الحليب؟ ولكنه قبل أن يكمل سؤاله سمع ثغاء الشاة، فعرف أن زوجه قد اشترتها بجزء من المبلغ المالي الذي تركه لها، وما أن انتهى من سؤاله حتى بادرته أم عليان بالسؤال عن رحلته والقرية التي ذهب إليها وعمل بها.

أجابها أبو عليان أنه لم يذهب إلى أي قرية قريبة ولكنه ذهب بعيدًا إلى مكان يقال له بغداد، على مسافة اثنين وعشرين يومًا للقافلة، فقالت أم عليان: وما هي هذه «البغداد»؟ فأجابها أبو عليان: أنها بلدة كبيرة فيها آلاف البشر وآلاف القوافل وآلاف النخيل ونهر يشقها نصفين. قالت: ولكنك لم تقل إنك ذاهب إلى هذا المكان؟ فأجابها: أنه اضطر لإخفاء الأمر خشية أن يتهم من قبلك أو أهل القرية بالجنون، ومحافظة على السِّر الذي دعاه للسفر إلى بغداد. قالت أم عليان: وما هو هذا السر؟ فقال لها: إنه البحث عن الرزق في بغداد بناءً على رؤيا رأيتها في المنام. فقالت أم عليان: ولكنك لم تأت بشيء سوى القفة والقربة اللتين ذهبت بها عند سفرك. فأجابها أبو عليان: الليلة

ستعرفين كل شيء، ولكن لا بد من أمرين عليك إدراكهما جيدًا، الأول: أن هذا سر بيني وبينك فقط، وعليك أن تقسمي بالله لا تحدثي به أي شخص مهما كان ثقة لديك. الثاني: أن تدركي أنك طالق طلاقًا بائنًا إذا أذعت هذا السِّر، هزت أم عليان رأسها بالموافقة وأقسمت أمامه على كتمان السر.

أنهت أم عليان الحوار وذهبت لترتيب شؤون بيتها انتظارًا للمساء، أما أبو عليان فخرج إلى مجلس القرية للقاء أحبابه الذين اشتاق إليهم بعد طول غياب في الليل، وبعد عودته انتظر قرابة الساعة حتى هدأت القرية بانصراف الناس إلى منازلهم ولم يعد يسمع أي خطوات للمارة في الطريق. هنا طلب أبو عليان من زوجه أن تأتي بالسِّراج (أبو دَنَّان) إلى مربط الحمار وتشعل النار فيه، أما هو فأحضر مسحاة كانت خير صاحب له حين يذهب أجيرًا عند مزارعي القرية، وكان يعلقها في أحد الجدران، أحضرت أم عليان السراج وجلست بقرب مربط الحمار، أما أبو عليان فذكر اسم الله وقرأ آية الكرسي والمعوذات وبدأ الحفر. هناك سألته أم عليان: ماذا

تعمل؟ أجابها: قليلًا وستعرفين، واستمر في حفر المربط، وكانت الأرض متوسطة فليست قاسية وليست سهلة تمامًا، ولكن بين بين، وكان يبعد التراب من الحفرة مختلطًا بالحجارة وأم عليان ترقبه وكأن على رأسها الطير.

بعد نصف ساعة وبعد أن حفر قرابة نصف المتر عثر أبو عليان على رماد فاستبشر خيرًا؛ لأن العامة تعتقد أن وجود الرماد دليل على وجود كنز، وأن من يدفن الكنز كان يحيطه بالرماد خوفًا من تحلل الوعاء.

وبعد قليل أحس أبو عليان أن المسحاة تصطدم بجسم معدني، فترك المسحاة وأخذ يحفر الرماد بيديه، وكم كانت فرحته عظيمة حيث عثر على وعاء مغطى فاستخرجه وقام بكشفه ليجد ما بداخله عبارة عن قطع معدنية لم يتبين كنهها لضعف ضوء السراج.

هنا قال أبو عليان لزوجه: لنخلد إلى النوم وفي الصباح ننظر ماذا جاد به الله علينا.

أسفر الصباح لذي عينين وأحضر أبو عليان الوعاء

وكشف عنه غطائه وأم عليان بقربه، ووجهه يتهلل فرحًا حيث وجد في الوعاء قطع معدنية تصل إلى مائتي قطعة مسكوكة من الفضة، وقد نقشت على الوجهين نقوش تؤكد أنها عملة معدنية تستعمل للبيع والشراء، ولكنه لا يستطيع أن يعرف اسمها ولا في أي عصر تم سكها.

تحسنت الحالة المادية والمعيشية لأبي عليان وأخذ يصرف مما أفاء الله به عليه ولكن بحذر شديد خشية أن يعرف الناس السر وراء هذا الثراء المفاجيء، كي يبقيهم على اعتقادهم بأن ما طرأ على حياته إنما هو بسبب ما حصل عليه من مال قليل أثناء رحلته.

كان هناك أمران يشغلان بال أبي عليان بعد رحيل شبح الفقر بعيدًا عنه.

الأول: رغبته في عودة حماره إلى مربطه من جديد لذا أخذ بعد كل صلاة جمعة يتصفح وجوه الغرباء لعله يعثر على من اشترى الحمار ولم يلبث حتى عثر عليه ليسأله عن الحمار، حيث قال له البدوي: إنه بخير وقد ذهب عنه الهزال بسبب المراعي

الجيدة وأنه الآن في الصحراء يخدم راعي الأغنام، فعرض عليه أبو عليان شراء الحمار فرفض البدوي، ولكن أبا عليان ضاعف له ثمن الشراء قياسًا على ما دفعه حينما اشترى الحمار، وافق البدوي فأعطاه أبو عليان الثمن، ووعده البدوي بإحضار الحمار وهو ما تم في الجمعة التالية حيث اصطحب أبو عليان الحمار إلى مربطه مرة أخرى متعهدًا بتحسين حال الحمار في أكله وشربه وعمله.

أما الأمر الثاني: فهو فضل الزاهد على أبي عليان؛ لأنه هو من دله على أن الكنز تحت مربط حماره، لذا رأى أنه لا بد أن يكون شريكًا له في ما عثر عليه من كنز ورغم قناعة أبي عليان بزهد هذا الرجل إلا أنه حسم أمره بإيصال جزء من الكنز إليه لينفقه كيف شاء.

لذا أبلغ أبو عليان زوجه عن اضطراره للسفر قريبًا لمدة أسبوع لاقتناء بعض ما هو بحاجة إليه مما لا يتوفر في القرية، لم تمانع أم عليان ولم تلح في الأسئلة بخصوص سفره الجديد لكونه قد حدد مهلة السفر بأسبوع.

في الصباح الباكر خرج أبو عليان إلى بئر الماء الواقعة شمال القرية والتي يقيم عندها أصحاب القوافل في ذهابهم شمالًا أو جنوبًا ومن حسن حظه أنه وجد قافلة متجهة شمالًا على وشك الرحيل حيث اتفق مع قائد القافلة ليكون رفيق السفر.

بعد مغرب اليوم الثاني وصلت القافلة إلى محطتها النهائية حيث غادرها أبو عليان إلى المكان الذي تتواجد فيه القوافل المتجهة شمالًا إلى بغداد، وكم كان محظوظًا حينما تقابل مع قائد القافلة التي صحبها منذ ستة شهور تقريبًا، أبدى أبو عليان لقائد القافلة رغبته في إيصال مبلغ مالي إلى الزاهد، وحدد له المسجد الذي يقيم فيه، حيث التزم وتعهد القائد بإيصال الأمانة إلى صاحبها، وفي حال رفض الزاهد قبولها فليوزعها على فقراء المسجد.

عاد أبو عليان إلى الساحة التي جاء منها للبحث عن قافلة جديدة تتجه جنوبًا إلى قريته وكان الفرح يغمره أنه استطاع أن يمنح هذا الرجل الزاهد جزءًا من حسن جميله لكونه المسبب في طرد شبح الفقر عنه.

وهكذا عاش أبو عليان ما بقي له من حياة في رغد من العيش وأجمل حياة مؤمنًا إيمانًا لا يزعزعه شك على صدق الرؤيا التي قد يراها النائم أثناء نومه[1].

❋ ❋ ❋

(1) يلاحظ أن كثيرا من القرى النجدية تدَّعِي حدوث هذه الحكاية على أرضها وأصبحت جزءا من ثقافتها الشعبية.

عق الخولية[1]

كانت ليلة خريفية بامتياز، فاليوم كان بداية فصل الخريف حيث يعتدل المناخ، وكانت ليلة منتصف الشهر حيث كان القمر في مرحلة اكتماله، والجو منعش ليلًا وإلى البرودة المقبولة أقرب.

خرج أبو عثمان من المسجد مؤديًا صلاة العشاء إلى مجلس القرية حيث أنه قرر في هذه الليلة السمر لعدة ساعات مع أهالي القرية المتواجدين في المجلس القروي.

كانت هناك بعض الحوانيت (الدَّكَاكِين) التي تبيع كل ما تحتاجه القرية في الحياة اليومية، وكان السِّراج (أبو دنَّان) هو وسيلة الإضاءة الوحيدة داخل تلك الحوانيت، أما بقية المجلس فكانت ليلة قمرية ساحرة بامتياز، ولم يكن المتسامرون بحاجة إلى إنارة.

كان المتواجدون في مجلس القرية يجلسون على هيئة حلقات،

(1) أسماء الشخصيات في هذه الحكاية مستعارة، وليست أسماء حقيقية.

كل حلقة تضم من سبعة إلى ثمانية أفراد، يجمع بين أفرادها العمل الواحد والرؤية الواحدة.

كانت هناك حلقة للفلاحين وأخرى لأصحاب القوافل وثالثة لذوي مهنة الاحتطاب، ورابعة للتجار وخامسة للشعراء والقصاص. كما كانت هناك حلقة شبابية تجمع بعضًا من شباب القرية، وحلقة لبعض الفقراء الباحثين عن عمل.

اتجه أبو عثمان فور خروجه من المسجد إلى حلقة الفلاحين حيث كان المجتمعون يتبادلون أطراف الحديث فيما يخص شؤون الفلاحة خاصة قضية «جذاذ» التمر بعد انتهاء مرحلة الرطب، وقف أبو عثمان في البداية على طرف الحلقة ولم ينضم إليهم جالسًا وأخذ يستمع إلى ما يدور بينهم من أحاديث، وكانت العادة القروية ألا يبدأ الواقف بالسلام أو الكلام حتى لو وقف لساعات حتى ينضم إليهم جالسًا حيث يلقون عليه السلام وكلمات الترحيب وكأنه قادم إليهم للتو.

جلس أبو عثمان إلى الحلقة ورد السلام والتحية بمثلها وانخرط في مشاركة المجتمعين الحديث عن شجون الفلاحة

اليومية حيث سأله أحد الفلاحين قائلًا: متى يا أبا عثمان ستبدأ في مرحلة الجذاذ (الصرام)؟ فمرحلة الرطب انتهت وما يوجد حاليًا في رقاب النخيل لا يصلح رطبًا للأكل اليومي ولكنه يحتاج إلى تخزينه لمقابلة فصل الشتاء وأيامه الباردة.

وأردف ذلك الفلاح قائلًا: إن جميع هؤلاء الفلاحين الموجودين في الحلقة قد بدؤوا في جذاذ نخيلهم منذ أيام وهم على وشك الانتهاء.

رد أبو عثمان قائلًا: إنكم تعرفون أنني لم أرث مهنة الفلاحة من أبي أو جدي فنحن في الأصل عائلة تُجَّار لا فلاحين ولا نفهم في أمور الفلاحة شروى نقير[1]، وكل ما أملكه من نخيل لم يكن غرس يدي وإنما ورثته عائلتنا وفاء لديونها على بعض الفلاحين ممن عجزوا عن سداد ما بذمتهم، لذا لا تسألوني عن حال ما لدي من نخيل فأنا لا أعرف شيئًا في مهنة الفلاحة والنخيل وبالكاد أفرق بين التمرة الصفراء والحمراء أو أعرف

---

(1) كلمة تُقال للدلالة على العَدَم، جاء في المعجم الوسيط: «هو لايملك شَرْوَى نقيرٍ، أي: مُعْدِم».

بعضًا من أنواع النخيل.

ثم أردف موجهًا كلامه إلى سائله -وكان اسمه: (أبو عمر)-: غدًا عصرًا إن كنت قد فرغت من جذاذ نخيلك سترافقني إلى بستاني الكبير لمعرفة ما إذا كانت نخيله قد وصلت إلى مرحلة الجذاذ، لأنك أنت من سيقوم بهذا العمل نظير ما تطلبه من أجر.

أجاب أبو عمر قائلًا: إنه انتهى من جذاذ ما يملكه من نخيل، وغدًا سأكون رفيقًا لك في تفقد نخيلك.

هنا نهض أبو عثمان للذهاب إلى بيته للنوم لأنه حسب إحساسه وخبرته قد مضى من الليل ثلثه، ولم يكن ذلك عن الاطلاع على الساعة لأنه في عصر لم يكن للساعة وجود.

جاء عصر الغد ووقف أبو عثمان في مجلس القرية منتظرًا أبا عمر الذي لم يتأخر في الحضور، وبدأ الاثنان مسيرهما متجهين إلى بستان أبي عثمان الكبير الذي يحتوي على مئات النخيل وبئر للسقي، وحظائر للسائمة.

بعد مسيرة خمس عشرة دقيقة وصل الرجلان إلى باب بستان أو واحة النخيل الشرقي، وعندما دخلا قال أبو عثمان: يجب أن نفترق فأنت تسير يا أبا عمر يسارًا وأنا أتجه يمينًا، وكل يتفقد ما يمر به من نخيل وموعدنا للقاء عند الباب الغربي للبستان وهكذا كان، اتجه كل واحد إلى طريقه متفقدًا ما يمر به من نخيل لينظر مدى دخولها مرحلة الجذاذ.

اتجه أبو عثمان يمينًا متفقدًا الجزء الخاص به حيث أنه قدَّرَ أن جميع ما مر به من نخيل قد دخل مرحلة الجذاذ واستمر في رحلته الاستطلاعية حتى وصل البوابة الغربية قبل أبي عمر الذي لم يصل بعد.

كانت على مقربة من البوابة نخلة تشمخ بكبرياء في سماء البستان وكان ثمرها يطوق عنقها تطويق سوار الذهب بمعصم فتاة حسناء أعجبه منظر هذه النخلة الشامخة فأخذ يدور حولها رافعًا رأسه إلى أعذاقها، ونفسه تكاد تضيء وتشبع سعادة بما تحمل من خير وفير.

إلا أن هذه السعادة لم تلبث أن رحلت عن قسمات وجهه

كسحابة صيفية عصفت بها الرياح وحلت في قسمات وجهه خطوط الكآبة والحزن، وكان سبب هذا التغير والانتقال من السعادة إلى الحزن ومن السرور إلى الكآبة هو أنه لاحظ أن أحد أقناء هذه النخلة كان منكسرًا.

حنى أبو عثمان رأسه إلى الأرض حيث لاحظ وجود صخرة كبيرة بالقرب منه فاتجه إليها وجلس عليها حانيًا وخافضًا رأسه إلى الأرض ووضع يديه على صدغيه.

في هذه الأثناء وصل أبو عمر إلى البوابة منهيًا جولته ليفاجأ بأن أبا عثمان حانيًا رأسه ومستغرقًا في شرود لذا لم ينتبه إلى وصوله.

سَلَّم أبو عمر على أبي عثمان وسأله عن نتائج جولته في الجزء المخصص له ولكن أبا عثمان لم ينتبه إلى سؤاله لأنه كان مستغرقًا في أحزانه.

لم يفق أبو عثمان إلى الواقع الذي يعيشه إلا حين وكز أبو عمر رأسه حيث رفعه ليجد أبا عمر أمامه ليسأله ماذا دهاه وأين هي الابتسامة التي كانت تعلو قسمات وجهه؟ ولماذا يرى

أن الحزن والقلق قد طردا تلك الابتسامة إلى غير رجعة؟

تردد أبو عثمان في الإجابة، ولكن إصرار أبي عمر على معرفة السّر جعلت أبا عثمان يشرح السبب الذي كان يود إخفاءه. قال: إن حزني كان بسبب ملاحظتي في جولتي أن (عذقًا) من عذوق الخولية قد انكسر وأصبح تمره حشفًا لا يمكن أن يأكله الإنسان.

هنا جلجلت ضحكة أبي عمر وأردف قائلًا: وهل هذا القنو المنكسر يستحق هذا الحزن والكآبة؟ ألم تقنع وتشكر الله أن جميع نخيل البستان قد أعطى ثمرة ممتازة سالمة من الأعطاب؟ كيف تحزن على قليل القليل ولا تشكر صلاح الكثير.

ثم ألا تعلم يا أبا عثمان أن في عرف الفلاحين جميعًا أن نخلة «الخولية» لا يأكلها إلا الحمار حتى لو كانت سليمة وفي صفاء الذهب؛ لبشاعة لونها وصعوبة بلعها، ثم كيف بالله تحسد الحمار هذا الحيوان الطيب الذي يصبر على الكد والمشقة من رزق ساقه الله إليه، وتنكر جميله الذي يسديه إليك حتى ولو

كان حمارًا لماذا تحسده؟ ألست تعلم أن نبينا محمد ﷺ قد قال: «**في كل ذي كبد رطبة أجر**» فهل كبد الحمار رطبة أو يابسة؟

عد يا أبا عثمان إلى ابتسامتك واحمد الله الذي أعطاك الكثير، ولا تلحق نفسك حزنًا ويأسًا على ما لا يستحق ويصمك عند الآخرين بالشح والبخل الذي يجعلك حزينًا على قنوٍ انكسر.

أطرق أبو عثمان مفكرًا فيما قاله أبو عمر وأدرك أنه كان قولًا وتعليلًا مقنعًا، ولكن ماذا يعمل مع طبعه المتأصل فيه شحًا وبخلًا إن نفسه لا تطاوعه على قبول النصيحة من أبي عمر إلا على مضض.

نهض أبو عثمان من فوق الصخرة وأبدى موافقة تشوبها المرارة.

هنا قال أبو عمر: أن جميع النخيل التي مر بها قد طاب ثمرها ودخلت في مرحلة الجذاذ، ولا بد أن يكون الجزء الذي قمت بتفقده كذلك؛ لأن جميع هذا النخل ينمو في أرض واحدة، ويسقى من بئر واحدة، وتطلع عليه شمس واحدة،

ويطرزه ليلًا قمر واحد، وتلعب بعسبانه موجات هواء باردة.

وأردف قائلًا بأنه سيبدأ بعد غد في جذاذ النخل وسوف يستعين معه بستة عمال ولكن قبل ذلك لا بد من الاتفاق على الأتعاب.

قال أبو عثمان: سأعطيك على عرف البلد وهو 15٪ شريطة أن تتولى جميع مراحل العملية من الجذاذ حتى التخزين مع تنظيف الموقع وجذ العسب اليابسة. قال أبو عمر: اتفقنا ولو أن النسبة قليلة إرضاء لك يا أبا عثمان.

وبعد يومين بدأ أبو عمر عمله مستعينًا بستة عمال حيث قسم العمل إلى مجموعتين كل مجموعة من (3) أشخاص اثنان لصعود النخل وجذ الأقناء واثنان لتلقي الأقناء قبل ارتطامها بالأرض واثنان لفرط التمر من الأقناء، وعند الانتهاء من مرحلة الجذاذ يلتقي جميع العاملين على التعاون على إنجاز بقية المراحل من فرد الصحيح من السقيم والتقميع وغسل التمر ووضعه في زنابيل وإيصاله إلى الجصاص بعد استبعاد 15٪ نصيب أبي عمر وعماله.

وخلال عشرة أيام فقط أنهى أبو عمر عمله في الجذاذ وأوصل التمر مغسولًا نقيًا إلى الجصاص الموجودة في بيت أبي عثمان وفي البستان.

بعد انتهاء مرحلة الجذاذ تدنى مستوى العمل الذي يتابعه أبو عثمان يوميًا حيث تم تنظيف الموقع من مخلفات الجذاذ وتسميد النخيل بمخلفات الدواب، والمباعدة في فقرات السقي بدلًا من السقي اليومي لاعتدال الجو وميله إلى انخفاض الحرارة ظهرًا وارتفاع البرودة ليلًا، لذا وجد أبو عثمان أن وقت الفراغ لديه أكبر بكثير من وقت العمل، وأن أفضل حل لتزجية (تمرير) الوقت هو قضاؤه مع الأصدقاء في مجلس القرية، أو القيام بجولة بين بساتين القرية التي تضج بالاخضرار والإنتاج.

اقترب فصل الشتاء شيئًا فشيئًا وبدأت نسائمه تداعب أطياف سكان القرية، وكانت إرهاصات هذا الفصل من قصر ساعات النهار وبرودة الهواء تسبق دخوله بشهر أو أكثر وما زال الفصل خريفًا.

ذات يوم والجو يميل للبرودة نهارًا وتشتد ليلًا قرر أبو عثمان القيام بجولة على قدميه خارج سور القرية، فاتجه في البداية جنوبًا حتى إذا خرج من البوابة انعطف يمينًا محاذيًا للسور الخارجي للقرية، رافعًا أحيانًا رأسه ليمتع عينيه بمنظر النخيل وقد بدأت عسبانها تكتسي باللون الذهبي نتيجة لإشراق شمس الأصيل عليها، وأحيانًا يحني رأسه وينظر في الأرض وهو يسير ويحدث نفسه وقد غلب عليه يأسه القديم حينما عثر على عذق الخولية منكسرًا فعلت قسمات وجهه خطوط اليأس والقنوط، ورحلت الابتسامة إلى غير رجعة، واستمر في طريقه متجهًا شمالًا واستمر في هواجسه التي أصبحت تكبر وتكبر مثل كرة الثلج ثم انعطف في سيره جنوبًا مرة أخرى حيث وجد نفسه داخلًا مع البوابة الشمالية، وبعد الدخول سار قليلًا ليجد نفسه أمام باب حجرة طينية يسكنها شقيقان (مقطوعي صيحة) كما يقول المثل، فلا أم ولا أب ولا زوجة ولا أولاد، يمضيان نهار أيامهما في الاحتطاب، وليلهما في عشهما الطيني.

حين وصل أبو عثمان قريبًا من باب الحجرة ترامى إلى أذنيه حديث قد مدت حباله بين الأخوين مما جعل أبا عثمان يفيق من ذهوله وهواجسه ويستمع إلى ما يقوله الشقيقان، كان أحد الشقيقين -وهو الأكبر- يقول لأخيه الأصغر: غدًا سيذبح الجزارون «كوما»[1] ليقول الأصغر: وماذا يهمنا منها؟ قال الأكبر: نريد أن نشتري قليلًا من اللحم. فقال الأصغر: ومن أين نأتي بقيمة اللحم؟ أنت تعرف (البير وغطاه). فقال الأكبر: أعرف، ولكننا سنقوم برهن الحبل والفأس اللذين نستعملها في الاحتطاب حتى تتوفر لدينا النقود لفك الرهن، قال الأصغر: وكيف نذهب للاحتطاب؟ فقال الأكبر: يكفينا الحبل والفأس الآخرين فهما قادران على تلبية حاجاتنا عند الاحتطاب. فقال الأصغر: إنني غير موافق على ما تقول بل نبقي حبلنا وفأسنا بأيدينا ونذهب للاحتطاب ومتى ما توفرت النقود اشترينا ما نريد من اللحم.

---

(1) أي: ناقة سمينة.

قال الأكبر: لا فقد «اِسْتَحَمَّتْنِي حِمَة القَرَم إلى اللَّحَم»[1]، ولا يمكن تأجيل عمل اليوم إلى الغد، أم تريد أن نكون مثل أبي عثمان الذي يملك من المال ما يحجب قرص الشمس ومع ذلك فإن أبناءه لا يشمون رائحة اللحم إلا في عيد الأضحى؟!

هنا قال الأصغر: أمرك مطاع فأنت الأكبر، فافعل ما تريد.

تناهت هذه المحاورة الاجتماعية بين الشقيقين فآلمه ما سمعه منهما حين ضربا به المثل في الشح وحرمان نفسه وأولاده من الملذة الحلال، وهكذا أضاف أبو عثمان صفحة أخرى إلى صفحات الكآبة واليأس التي تعصف بنفسه منذ انكسار «عذق الخولية».

واصل أبو عثمان طريقه إلى مجلس القرية والهموم تعصف به كريشة في مهب الريح، وحينما وطأت قدماه مجلس القرية سمعت أذناه المؤذن يؤذن لصلاة المغرب، حيث اتجه مباشرة

(1) يُقصد بالعبارة: شدة الشهوة لأكل اللحم، جاء في لسان العرب: «القَرَمُ: شِدَّة شَهْوَةِ اللَّحْم».

إلى المسجد لتأدية الصلاة مع الجماعة.

خرج أبو عثمان من المسجد وكان يرغب في الانضمام إلى إحدى الحلقات المتكورة في أرضية مجلس القرية حتى يؤدي صلاة العشاء إلا أن برودة الطقس -وإن لم تكن مؤذية- جعلته يصرف النظر عن ذلك ويتجه إلى متجر أحد أصدقائه، وصل أبو عثمان إلى المتجر حيث كان صديقه موجودًا ومشغولًا بإرهاف السمع إلى صديق آخر كان يسرد عليه قصصًا اجتماعية، وعندما وصل أبو عثمان إلى باب المتجر سمع صديق صاحب المتجر وهو يردد اسم (قضعان) انتبه صاحب المتجر إلى أبي عثمان فقطع الإصغاء واتجه إليه مرحبًا، به رد أبو عثمان التحية بمثلها وأخذ مكانه جالسًا على أحد أكياس القمح، وانخرط هو الآخر في الاستماع إلى الحكواتي وهو يقص حكاية (قضعان). هنا وجه أبو عثمان للحكواتي سؤالًا من هو (قضعان)؟ فأنا أعرف أن سكان القرية جميعًا ليس فيهم من يحمل هذا الاسم. فرد الحكواتي: نعم إن (قضعان) ليس من قريتنا ولكنه من منطقتنا، واشتهر اسمه بين الناس لأنه كان

مشهورًا بالذكاء والحيلة والطمع أيضًا. فقال أبو عثمان: وكيف يكون ذلك؟ وما هي حكاية قضعان التي سببت له الشهرة خارج قريته؟. فقال الحكواتي: إن قضعان كان رجلًا مزواجًا مطلاقًا يتزوج كثيرًا ويطلق كثيرًا، وكان لا يتزوج إلا مطلقات أو أرامل، وكان يشترط على من يتزوجها أن يقيم عندها بعد أن يتأكد أنها تنام على ثروة مالية هائلة خلفها لها زوجها الأول عند وفاته أو عند طلاقه، ثم بعد أن يستنفد ثروتها وينفقها على نفسه يطلقها ليبحث عن أخرى وفيه يقول الشاعر الشعبي:

نبي نبيد المال قبل يبيدنا قبل يجي للمال قضعان ياكله

وهكذا. هنا أطرق أبو عثمان مفكرًا في أسلوب قضعان المصلحي، وعاد للحوار مع نفسه ويتساءل: ترى هل يمكن أن يخلفني قضعان على امرأتي في حالة وفاتي أو طلاقي منها؟! وهل سيستمتع بالثروة الهائلة التي جمعتها وحرمتها على نفسي وعلى أولادي؟! واستمر في توجيه الأسئلة والبحث عن جواب، ولم يقطع تفكيره إلا صوت المؤذن لصلاة العشاء حيث نهض متجهًا إلى المسجد لينوي صلاة العشاء مع الجماعة.

خرج أبو عثمان من المسجد بعد أداء الصلاة، وقرر الاتجاه إلى منزله للراحة بعد أن قضى سحابة يومه في التجوال ومحادثة الأصدقاء في مجلس القرية، كما أن ازدياد برودة الجو ساعد على اتخاذ أبي عثمان قرار الذهاب إلى المنزل.

طرق أبو عثمان باب البيت حيث فتحت له امرأته، وسألته: لماذا عاد مبكرًا؟ فأجابها: لأنه بحاجة إلى الراحة بعد أن تجول كثيرًا، وسأل عن الأولاد، فقالت امرأته: أنهم قد خلدوا إلى النوم، وسألته: هل تريد العشاء؟ -لم يكن عشاء حقيقيًا وإنما شبه عشاء، حبات قمح مطبوخة دون أية إضافة من خضار أو لحوم لأن الشح يمنع ذلك- لكن أبا عثمان أجابها: أنه يرغب أن ينام خفيفًا.

ذهب أبو عثمان إلى فراشه وعادت إليه الأسئلة تلح عليه هذه المرة عن عذق الخولية وحديث الشقيقين ولكن أكثر ما آلمه وزاد جراحه هو قصة قضعان.

تساءل: لماذا هو هكذا يجمع المال ولا ينفق ويحرم أولاده من الحد الأدنى من السعادة؟ وأين سيكون مصير هذا المال

بعد رحيله عن الدنيا؟ ولم يصل إلى جواب رغم أنه يعرف ضمنًا الإجابة؛ لأن نفسه البخيلة الشحيحة حالت بينه وبين أن يصل إلى نتيجة إيجابية.

هنا وضع أبو عثمان رأسه متجهًا بوجهه للقبلة واتجه إلى الله لينقذه من هذا المأزق الذي سمم حياته خاصة حكاية قضعان، قائلًا: «رب اجعل لي فرجًا من كل ضيق، رب هون المال والدنيا في عيني ونفسي، رب افتح لي باب جود لا يغلق، وطريق كرم لا ينقطع»، ثم أسلم رأسه للوسادة ونام.

استيقظ أبو عثمان فجرًا وأدى الصلاة في المسجد وعاد إلى بيته، والغريب أنه لاحظ اختفاء الأسئلة التي كانت تحدث بها نفسه، ووجد في نفسه نشاطًا وراحة بال لم تكن تصاحبه سابقًا منذ أن انكسر عذق الخولية.

خطر في باله أن الله -سبحانه وتعالى- قد استجاب لدعائه ليلة البارحة لتذهب نفسه من النقيض إلى النقيض. استند أبو عثمان جوار شرفة في منزله تطل على بساتين القرية منتظرًا بزوغ الشمس حتى عندما دخل شعاعها وألقى خيوطه الذهبية على

وجهه اتجه إلى الباب خارجًا، فقالت له زوجه: إلى أين؟ فقال: سيأتي الخبر بعد حين، وبدأ في ترديد بيت شعر شعبي كان يسمعه من الحكواتي:

نبي نبيد المال قبل يبيدنا   قبل يجي للمال قضعان ياكله.

اتجه أبو عثمان فورًا إلى الجزارين في مكانهم البعيد عن مجلس القرية وأسعده أنه لم يجد عندهم أحدًا لأن القرية لم تصح بعد، ووجد أن الجزارين قد علقوا «الكوما» التي تحدث عنها الشقيقان بعد أن قطعوها إلى عدة قطع، هنا طلب أبو عثمان من أحد الجزارين أن يقطع له ما يزن (4) وزنات بمقاييس الوزن في ذلك الزمان، ولكن الجزار لم يلق له بالًا ليعيد أبو عثمان طلبه مرة أخرى ويقول للجزار: ألا تسمعني؟! حيث قال الجزار: بلى، فقال أبو عثمان: إذًا لماذا لم تنفذ طلبي؟ فقال الجزار: لأنني شككت في أن ما تقول صحيحًا، لأنني أعرفك رجلًا شحيحًا. ليرد عليه أبو عثمان قائلًا: منذ إشراقة شمس هذا الصباح أصبحت رجلًا آخر.

هنا وزن الجزار ما طلبه أبو عثمان من اللحم، وكالعادة عند

الجزارين قام بنظم قطع اللحم في حبل من خوص النخيل وأعطاه أبا عثمان، إلا أن أبا عثمان قال له: إنك من ستوصل هذا اللحم إلى البيت، هنا قام الجزار بتعليق اللحم في يده التي أدخلها تحت ثوبه (المرودن) وعلق اللحم بين ثوبه وجلده واتجه سائرًا إلى منزل أبي عثمان.

سار أبو عثمان خلف الجزار غير بعيد ولم يسر بجانبه؛ خشية أن يعرف الناس أنه صاحب اللحم فتصيبه العين في مجتمع فقير لا يكاد يذوق طعم اللحم إلا في عيد الأضحى، أما الجزار فلم يكترث لعيون الناس وفضولهم لأنه يعرف أنهم يدركون أنه يحمل اللحم ولن يأكله.

وصل الجزار إلى بيت أبي عثمان وأخذ يطرق الباب، أما أبو عثمان فوقف على بعد أمتار قليلة، جاءت زوج أبي عثمان وقالت: مَنْ؟ فقال الجزار: افتحي. فلما فتحت الباب، قالت له: ماذا تريد؟ فقال: لأعطيك هذا اللحم. فقالت: ومن طلب منك إيصاله إلى منزلنا؟ فقال الجزار: زوجك. فقالت: من المؤكد أنك مخطئ وأن اللحم يخص جارنا أو الذي يليه، ولكن

الجزار أصر على أن اللحم لأبي عثمان، ومع ذلك رفضت المرأة بإصرار التصديق لأن ما حدث يفوق احتمالها.

هنا تقدم أبو عثمان وقال مخاطبًا أم أولاده: بل اللحم لكم وأنا الذي اشتريته وأرسلته مع الجزار، هنا لم يسع الزوجة إلا أن تمد يدها وتأخذ اللحم، أما أبو عثمان فدخل المنزل وأخذ من النقود ما يواري قيمة اللحم وسلمه للجزار الذي كان منتظرًا.

بعد أن انصرف الجزار وأغلق أبو عثمان بابه سألته زوجه عن هذا التغير الذي طرأ عليه لينفق إنفاق من لا يخاف الفقر فأجابها أبو عثمان: لقد فتح الله علي فتحًا واستجاب الله دعائي ليخرجني مما أنا فيه من شح وبخل، لذا فإن الذي أمامك الآن هو أبو عثمان الكريم أما أبو عثمان الشحيح فذلك زمن وانقضى إلى غير رجعة، ثم أخذ أبو عثمان يقص على زوجه صراعه النفسي الذي مر به منذ انكسار عذق الخولية إلى ما سمعه من الشقيقين إلى حكاية (قضعان) التي أثرت فيه تأثيرًا عميقًا جعلته يسأل الله أن ينير له الطريق، وقال أبو عثمان

لزوجه: لا جوع بعد اليوم وكل أيام السنة ستصبح عيد أضحى لك ولأولادك، وهكذا تبدلت الحال وانتقل أبو عثمان من منطق الشح والتقتير إلى منطق الجود والكرم، ولم يتوقف الأمر على عائلته فقط بل إنه مد مساحة كرمه وإيثاره إلى الفقراء وكبار السن من لا عائل لهم من رجال ونساء عملًا بقول النبي الأكرم ﷺ: «**الغادي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله**».

ولم يتوقف جود أبي عثمان على أفراد أسرته ومجتمعه بل تطورت فكرة الكرم لديه لإنفاق المال في منفعة المجتمع ككل دون اعتبار لغناه وفقره، لذا قرر في صفاء نفس وهدوء بال تنفيذ مشاريع وقفية ينفع الله بخيرها جميع أهالي قريته.

لذا قرر أبو عثمان القيام بحفر بئر للماء النقي جوار المسجد ليشرب منها الأهالي وينقلوا ماءها إلى منازلهم ولاستعمال ماءها في الوضوء للصلاة، ولم يتوقف الأمر عند ذلك فقط بل قام بتخصيص قطعة أرض وحوّلها إلى بستان نخيل جلب فسائله من بستانه الكبير وجعله مع البئر وقفًا على المسجد

وأهالي القرية.

وهكذا قضى أبو عثمان بقية عمره وهو ينتقل من جود إلى جود ومن إيثار إلى إيثار حتى استرد الله وديعته.

لكن المؤكد أن الرواة توقفوا عند هذه النقطة ولم يحدثونا هل علم (قضعان) بوفاة أبي عثمان وخلفه في زوجه وماله إن كان بقي منه شيء خاصة بعد أن تبدلت جهة الريح عنده.

❋ ❋ ❋

جن السلَيُم

لا تكاد توجد في أي مجتمع عالمي -خاصة إذا كان هذا المجتمع ينتمي إلى ثقافة اجتماعية تقليدية- ثقافة خالية من حكايات الجن والعفاريت والسحرة وسواها من الحكايات التي ترتبط بالخيال أكثر من الحقيقة إلا أن هذه الحكايات قد تقل وتضعف أو تسيطر على غالبية عقول المجتمع، بسبب قرب هذه العقول من الدين أو ابتعادها عنه.

أشيقر مثل غيرها تعيش هذه الظاهرة في الجزء الخاص بالجن، حيث كنا نسمع ذلك من حكايات الأجداد عندما كنا صغارًا، بل وصل الأمر إلى استعمال خرافة الجن جزءًا من التربية المنزلية حيث يتم تخويف الطفل الذي يرفض النوم بـ«مسدد عيونه بالخِرَق»، وتخويفه عند الاقتراب من البئر بـ«خروف السَّلَّة».

لكن المشكلة الكبرى حينما نرى رجالًا كاملي العقل والنضج يُصِرُّون على وجود الجن في حكاياتهم اليومية

وثقافتهم الشعبية. لا أحد يستطيع إنكار الجن كمخلوق من مخلوقات الله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾. -سورة الذاريات، آية:56-

ولكن المشكلة تكمن في إدخال الجن في كل شيء، وهذا بالطبع أقرب للخرافة منه إلى الحقيقة.

في أشيقر منطقة تقع شمال القرية على بعد (3 كم) شمالًا حينما تسمع الحكايات عن جنها تكاد تظن أن الجن يحكمونها ولا يسمحون لأحد بدخولها خاصة في الليل.

حدثني أحدهم بأنه كان مزارعًا في السليم وقد لاحظ أنه بعد غروب الشمس وحلول الظلام أن الجن يصعدون وينزلون من «عميِّد السُّلَيم»[1] يحملون الفوانيس بأيديهم، ولكنه لا يرى أجسامهم لأنهم روح بلا جسد، ويستمرون في حركة الطلوع والنزول حتى طلوع الفجر، كما أن هذا الاعتقاد

(1) جبل منفرد بذاته، تدور حوله حكايات الجن، ويشتهر بأن صخوره مثل السبورة، حفر كثير من زُوّاره أسماءهم عليها، انظر صورته: ملحق رقم 1 .

انتقل من الأب إلى الابن الأكبر الذي حكى لي أيضًا عن رؤيته لهم يحملون فوانيسهم.

دخلت إلى منطقة السليم بعد المغرب وعند منتصف الليل وفي الهزيع الأخير من الليل صيفًا وشتاءً وربيعًا وخريفًا ولم أر شيئًا مما يؤكد خرافة ذلك لأنني لا أحمل تصورًا مسبقًا ويقينيًا بوجود هذه الأشباح التي لا توجد إلا في عقل من يتخيلها، لكن الأعظم مما حكاه لي المزارع ما حكاه عليّ أحد الرعاة عن قصته مع الجن، والغريب هذه المرة أنها حدثت نهارًا لا ليلًا.

كان هذا الراعي وحيد أبويه من الذكور إلى جانب أخت له، وكان والده مولع بالأسفار البعيدة في أنحاء الجزيرة وخارجها، وحينما شَبَّ هذا الولد عن الطوق رأى أنه لا بد من البحث عن عمل يستطيع عن طريقه تأمين معيشة أمه وأخته اليومية.

كان عمره وقتها أقل من العشرين بقليل، ولم يكن بنيانه الجسمي يساعده على القيام بأعمال ذات مجهود كبير، مثل: الفلاحة أو البناء، لذا اختار مهنة الرعي لأنها لا تكلفه سوى

السير خلف الأغنام ومتابعتها في حالة الرعي، وهو يستريح تحت ظل شجرة حتى يعود بها مساءً إلى القرية.

كان يأخذ ريالًا على الطرف الواحد من الغنم كأجرة شهرية، وفي نهاية الشهر يقوم بحجز الأغنام في أحد الأحواش خارج سور القرية ليأتي الأهالي إليه لاستلام أغنامهم بعد دفعهم رسوم الرعي.

وربما كان يفعل أيضًا كما يفعل الرعاة الآخرون حيث يشترط أن يقوم أهل القرية بتأمين وجبة العشاء اليومية حيث يقوم كل واحد من الأهالي بتأمينها وتقديمها إلى الراعي داخل منزله بالتناوب.

اشترى حمارًا من أجل هذه المهنة، وأمَّن له جميع متطلباته من بردعة ومحامل وشكيمة، وعلق في رقبته جرسًا ينبّه الناس بقدومه عندما يصل القرية، ذلك أن الجرس يصدر صوتًا رنانًا وهو يسير متجهًا للقرية في مقدمة الأغنام.

قرر ذلك الراعي في أحد الأيام اختيار منطقة السليم لتكون منطقة الرعي؛ لأنها قريبة، بدلًا من الذهاب إلى مناطق أبعد في

الشمال الغربي.

ما دفعه إلى هذا الاختيار أن تلك السنة كانت سنة خير وبركة، حيث كثرة نزول الأمطار وجريان الأودية وتشكل الغدران في وقت مبكر من موسم (الوسم) لذا ضجت الأرض بنباتها وأزهارها وتحولت السهول إلى بساط أخضر ينبت جميع أنواع الأعشاب والزهور التي تحتاجها الأغنام في غدائها اليومي.

ولأن مستوى الربيع كان جيدًا في الأرض القريبة والبعيدة لم يجد داعيًا للذهاب بعيدًا.

وصل الراعي إلى السليم بعد سيره ساعة، حيث وصلها مع ارتفاع الشمس قيد رمح، وأمام الوادي أطلق العنان للأغنام للرعي بكل حرية وهو مدرك أنها لن تذهب بعيدًا لأن النبات يغطي كل مكان.

قام الراعي بتقييد الحمار قرب شجرة (سَلَمْ) حتى لا يذهب عنه بعيدًا، واستند هو إلى جذع الشجرة ليغط في نوم عميق لمدة ساعة تقريبًا.

استيقظ من النوم ورأى أنه بحاجة إلى شرب فنجان من الشاي والقهوة العربية، لذا نزل إلى بطن الوادي النظيف تمامًا بسبب تعاقب السيول عليه وأحضر القُفَّة التي تحتوي على جميع حاجياته، واستخرج الإبريق الأسود والدلة السوداء، وقام بتعبأتهما من القربة المعلقة على أحد جانبي الحمار، ثم قام بتجميع بعض أعواد السلم الجافة وكسر بعض الأعواد الغليظة وأشعل ناره ووضع الإبريق والدلة الأسودين جوار النار لكي يغلي الماء، وانتظر وعيناه تتجولان في المحيط حوله لمراقبة الغنم خشية أن يبعد بعض منها أو تدخل في مجاهل الجبال المحيطة، وأحيانًا تصيبه حالة من السرحان والغفلة عما حوله ويمضي الوقت في محادثة نفسه، وعيناه ترقبان الإبريق والدلة.

بعد حوالي ربع ساعة رأى الراعي أن غطاء الإبريق يرتفع ويهبط بسبب البخار فعرف أن الماء قد وصل درجة الغليان، هنا انشغل بوضع الشاي في الإبريق ومسحوق القهوة في الدلة، وانتظر قليلًا حتى يتخمر الشاي ويحمر الماء، وأن تغلي

القهوة على وجه الماء حتى يطفو حبابها، ثم أخذ بوضع السكر في الشاي ويحركه لكي يذوب، أما القهوة فقد انتهى إعدادها عند هذا الحد إذ لا يوجد معه «حب الهال» لكي يضيفه لها.

بينما هو مشغول بترتيب قهوته صارفًا ذهنه عما حوله سمع صوتًا من خلفه يلقي عليه السلام فرد الراعي عليه السلام دون أن يلتفت إليه، ودعاه إلى مشاركته في شرب القهوة والشاي، وافق الرجل وجلس حوالي النار مقابلًا الراعي الذي ما زال مشغولًا بعمله صارفًا النظر عنه.

بعد أن انتهى الراعي من الإعداد انصرف إلى القُفَّة واستخرج منها وعاء تمر وفنجانين وكمية من قرصان البر المدهون بالسمن البقري، ووضع كل ذلك أمام الرجل.

وعندما رفع الراعي رأسه منصرفًا للرجل لمبادلته الحديث فوجيء بأن هذا الرجل من هيئته الجسدية لا ينتمي إلى الإنس من بني آدم ولكن ينتمي إلى فصيلة أخرى!.

كانت عينا صاحب الجمل كما يقول الراعي بالطول تبدأ العين من منتصف الجبهة إلى منتصف الخد، كما اكتشف الراعي

أن قدمي صاحب الجمل لا تشبهان أرجلي الأنسيّ حيث أنهما تنتهيان بحافري حمار، هنا أدرك أن هذا الجالس أمامه من جنس آخر، ولهذا دب الرعب في قلبه وجف حلقه وعجم على لسانه فلم يعد ينطق حرفًا، وصاحب الجمل ينظر إليه دون كلام.

التفت صاحب الجمل إلى الفتاة التي ترافقه وتستند إلى جنب الجمل وكانت كاشفة الوجه. فقال لها: «تغطي يا حرمة»، ففعلت ونشرت حجابها على كامل وجهها وبقيت في مكانها، يقول الراعي: وحينما طلب صاحب الجمل من الفتاة أن تتحجب اطمأنت نفسي وعاد الهدوء إليّ، وكف قلبي عن الرجفان، وانطلقت عقدة لساني؛ لأني أدركت أن صاحب الجمل والفتاة التي معه مسلمان وإلا لما طلب منها التحجب، وأدرك أنهما لن يضراه بشيء في جسمه وغنمه.

بدأ الراعي كما يقول بصب الشاي ثم القهوة وأدنى ما معه من أكل حتى أصبح في متناول صاحب الجمل الذي أخذ بدوره يمد إلى الفتاة فناجين القهوة والشاي لأنها بقيت خلفهما

مستندة إلى ظهر الجمل.

لكن لغة الكلام تعطلت بين الراعي وصاحب الجمل على رأي أحمد شوقي وبقي الكلام لا يتجاوز أن ينظر كل منهما في وجه الآخر ليقرأ تعابير وجهه استنطاقًا من الخطوط التي ترسم عليها وتبادل الابتسامات الخفيفة.

انتهى وقت تناول القهوة، عندها استأذن صاحب الجمل من الراعي للانصراف، وأركب الفتاة ثم ركب أمامها واستثار الجمل واستأنف رحلته، ولم يطل به الطريق أمتارًا إلا وقد اختفى هو وجمله عن أعين الراعي. كيف حدث هذا؟! لا يعلم الراعي كيف حدث هذا، لكنه اقتنع أن ذلك من خصوصيات الجن خاصة، وأنه في منطقة مشهورة لدى العامة بكثرة جنها.

لكون ذلك اليوم هو آخر أيام الشهر وسيقوم بعد عصر اليوم بحجز الأغنام في حوشٍ خارج سور القرية، قرر الراعي العودة مبكرًا إلى القرية لحجز الأغنام، وربما كان السبب الذي عجل بعودته هذا الموقف الدرامي الذي حدث له مع الجني صاحب الجمل.

فجمع الراعي أغراضه من إبريق ودلة وتمر وغيرها ووضعها في القفة وعلقها مع القربة على جانبي الحمار، وقام بتجميع الأغنام التي لم تذهب بعيدًا، واستأنف رحلة العودة إلى القرية التي لا تبعد عنه سوى (3 كم) تقريبًا.

بعد العصر كان قد أدخل الأغنام إلى حوش الاحتجاز، وبدأ الأهالي يتوافدون لاستلام أغنامهم ودفع أجرة الرعي، والراعي واقف على الباب يأخذ أجرته، ولم تغرب الشمس إلا وقد انتهى من ذلك، ولم يبق في الحوش غنمة واحدة حيث عاد الراعي إلى منزله ليمضي ليلته مع أمه وينام مبكرًا بعد تناول عشاءه معها نظرًا لشعوره بتعب جسدي ونفسي طوال هذا اليوم.

لأن يوم غد يوم جمعة ومشيًا مع التقاليد الشعبية والموروث القروي فإنه يوم راحة للرعاة لا يخرجون بأغنام أهل القرية إلى البرية.

أدى الراعي صلاة الجمعة، وانضم إلى حلقة تجمع بين عدد من شباب القرية تحت سقف مظلل، وأخد كل فرد يحكي عما

مر به خلال هذا الأسبوع من أحداث، حيث أخذ الراعي زمام الحديث، وأخذ يتحدث بإسهاب عن قصة لقائه بالجني وتناول القهوة والشاي معًا وهو يقسم خلال حديثه بين آونة وأخرى على صدق كلامه، والمجتمعون ينصتون في ذهول لهذه الحكاية لأنها المرة الأولى التي يستمعون فيها أن إنسيًا تقابل مع جني في وضح النهار، إذ أن أغلب الحكايات التي يستمعون إليها كما يدعي هؤلاء أو من خلال حكايات الجدات كانت تحدث مع الجن ليلًا فقط باعتبار أن النهار حق للإنس والليل حق للجن، وقد تكون قاصرة على الرؤية فقط من بعيد.

أخذ المجتمعون يصغون السمع للراعي في حديثه وهم بين مصدق ومكذب حتى انتهى، وتفرق المجتمعون واعتقد بعضهم أن ما يحكيه الراعي صحيحًا، واعتقد الآخرين أن ما يحكيه الراعي ما هو إلا خيال مبعثه الخوف والاضطراب بسبب حكاياتهم مع البشر حتى وصل الراعي إلى الاعتقاد بأن ما يدور في خياله ما هو إلا حقيقة واقعة، زادت من رصيد الاعتقاد بحياة الجن في الصحراء وأضافت هذه الحكاية بعدًا

عميقًا للموروث الشعبي الذي ما زال يـردده سـكان القريـة إلى الآن.

* * *

البدويتان[1]

أنهى أبو ناصر صلاة العشاء وخرج من المسجد وجلس على مقعد صخري مقابل للمسجد منتظرًا أخاه أبا سعد والذي يؤدي نافلة ما بعد الصلاة.

حينما خرج أبو سعد من المسجد ورأى أخاه اتجه إليه وجلس بجانبه يجاذبه الحديث في جو رائع وجميل حيث ينشر البدر خيوطه الفضية على جدران وساحات القرية.

سأل أبو ناصر أخاه أبا سعد ماذا سيعمل غدًا؟ حيث أجابه أنْ ليس لديه عمل كثير، سيؤدي صلاة الفجر وينتظر في مجلس القرية كالعادة، وحينما تبدأ الشمس نشر خيوطها الذهبية سيذهب إلى بساتين النخيل لينظر هل دخلت الثمار مرحلة الصرام أم لا، خاصة وأنه قد مضى على دخول نجم سهيل ما لا يقل عن (20) يومًا، بعدها يعود إلى المنزل ليأكل ما تيسر أمامه من نعم الله، ثم يخرج إلى مجلس القرية ليمضي وقتًا في

(1) أسماء الشخصيات في هذه الحكاية مستعارة، وليست أسماء حقيقية.

مجالسة أصدقائه الذين شغلتهم أمور الحياة اليومية من سقي وزراعة وقطف ثمر النخيل عن مجالستهم مدة تقترب من ثلاثة أشهر، ثم يعود ظهرًا إلى منزله، ويكرر الخروج ومجالسة الأصدقاء في مجلس القرية عصرًا وحتى موعد صلاة العشاء لكي ينام بعد أن يؤديها في وقتها.

قال أبو ناصر لأخيه: أن عمله غدًا يمكن تأجيله يومًا أو يومين لأنه ليس عملًا ملحًا وإنما هو نظرة استطلاعية لن تقدم ولن تؤخر شيئًا.

قال أبو سعد لأخيه: ولماذا أؤخر عمل الغد إلى بعد غد؟
قال أبو ناصر: لأنني أرغب أن تكون غدًا رفيقي في رحلتي البرية القريبة الأسبوعية لقطع أشجار السَّلَمْ التي نستعين بها في إشعال نار الشتاء.

قال أبو سعد: ولكنك تعلم أن قطع الأشجار البرية ليست مهنتي وإنما هي الاهتمام بنخيل العائلة فقط.

قال أبو ناصر: أعرف هذا ولن أطلب منك قطع غصن واحد، ولكن ما يدفعني للاستعانة بك هو أن لدي مجموعة من

الأشجار قمت بقطعها في رحلتين سابقتين وتركتها للشمس حتى تجف لأعود وأزيل أشواكها ثم أنقلها للقرية، والكمية كثيرة أريد منك مساعدتي في تنظيفها من الأشواك ونقلها إلى البلدة لأنني سأكون مشغولًا بقطع أشجار جديدة لأننا الآن في فصل الخريف ولم يبق على فصل الشتاء والحاجة إلى الحطب سوى زمن قليل.

أصاغ أبو سعد السمع لما يقوله أخوه أبو ناصر، وعند الانتهاء من كلامه أومأ أبو سعد برأسه علامة الموافقة على رأي أخيه الأكبر الذي لا يسعه إلا الموافقة عليه، عندما هم أبو سعد بالذهاب إلى بيته، قال له أبو ناصر: لا تنام إلا وقد جهزت كل شيء مما تحتاج إليه من ماء وتمر وخبز شعبي وأوانٍ للطبخ، واهتم خاصة بقربة الماء فقد تجد في الطريق من هو بحاجة ماسة إليه، وسأقوم من جهتي بتجهيز ما نحتاج إليه أيضًا سواء بسواء.

وافترق الأخوان بعد الإتفاق على اللقاء بعد صلاة الفجر للرحيل إلى البرية.

بعد صلاة الفجر امتطى الأخوان أبو ناصر وأبو سعد حماريهما متجهين إلى المكان الذي يقصدانه ولا يبعد سوى (3 كم) عن القرية شمالًا، بعد ساعة تقريبًا وصلا إلى المكان المراد حيث قاما بربط الحمارين متجاورين بإحدى الأشجار من أجل أن يؤنس أحدهما الآخر، وعلقا قربتي الماء على أحد الأغصان، ووضعت القفتان اللتان تحويان ما يحتاجان إليه تحت جذع أحد الأشجار.

أخذ أبو ناصر فأسًا استعدادًا لبدء مرحلة قطع الأشجار وأعطى أخيه عصا غليظة ليقوم بجلد الأشجار التي سبق قطعها في الأسبوعين الماضيين لإسقاط أشواكها، وفأسًا ليقطع أغصان الأشجار قطعًا متساوية تمهيدًا لربطها من أجل تسهيل مهمة حملها على الحمارين، وبدأ كل من الرجلين عملهما.

أمضى أبو ناصر قرابة الساعة وهو يعمل بكل ما أوتي من قوة لقطع جذوع الأشجار الصلبة حتى إذا أحس أنه بحاجة إلى الراحة قليلًا استند بظهره إلى أحد جذوع الأشجار ميممًا وجهه إلى جهة السفح القريب من تواجد الأشجار، ولعل ما

لفت نظر أبي ناصر هو أن سفح الجبل كان خاليًا من أخبية بعض البدو الذين قطنوا في ذلك المكان طيلة أشهر الصيف نظرًا لوجود بئر ماء قريبة المنزع (أي: قريبة الماء) أخذوا يستقون منها لأنفسهم وإبلهم وأغنامهم بدون مضايقة من أعراب آخرين.

أيقن أبو ناصر أن البدو قد وصلوا لقرب دخول فصل الخريف وانخفاض درجة الحرارة وقلة الحاجة إلى الماء، فيمم البدو وجهتهم إلى المكان الذي قدموا منه، لكن ما لفت نظر أبي ناصر هو وجود كتلتين سوداوين في مكان الخيام. ترى ما هاتان الكتلتان! إن بعدهما النسبي عنه يجعل مهمة معرفة حقيقتهما أمرًا عسيرًا.

خُيِّلَ إلى أبي ناصر أنَّ هاتين الكتلتين تتحركان ببطء فثار استغرابه، واتهم قطرات العرق التي تساقطت على عينيه بأنها تسببت في عدم وضوح الرؤية، فقام بمسح قطرات العرق ولكن المشهد المتحرك لم يتغير. هنا دعا أبو ناصر أخاه أبا سعد الذي قدم إليه على عجل ليعرف ماذا يريد أخوه أبو ناصر،

عندما وصل أبو سعد بادره أخوه مشيرًا إلى مكان أخبية البدو قائلًا: ماذا ترى هناك؟ قال أبو سعد: لا شيء ذي بال (أي: مهم) يُلفِت نظري، فقال أبو ناصر: وما هاتان الكتلتان اللتان تسكنان سواد عيوننا؟ فقال أبو سعد: إن الأمر لا يتعدى أن تكونا شجرتي حرمل أو جذعي شجرة مقطوعة، قال أبو ناصر: لا لا، فأنا أعرف المكان جيدًا، لا يوجد فيه شيء مما تقوله.

ثم واصل حديثه الموجه إلى أخيه قائلًا: انظر، إن هاتين الكتلتين تتحركان ببطء قال أبو سعد: أبدًا لم ألحظ شيئًا من ذلك وربما يكون العرق المتساقط على عينيك دور في عدم وضوح الرؤية، أو أن هناك قلقًا نفسيًا يسيطر على قلبك إن ما تتخيله أشباح جن؛ لأن هذا المكان حسب المعتقدات الشعبية مكان مفضل لتواجد الجن خاصة في الليل بحيث يرون البشر ولا يرونهم وأحيانًا يتمثلون لهم على هيئة حيوان أو طائر أو إنسان.

رفض أبو ناصر تفسير أخيه لما يراه وأصر على أن ما يراه

من قرب حقيقة لا خيال، وحينها احتدم النقاش بين الشقيقين هذا يؤكد وهذا يرفض قال أبو ناصر: لأكن مثل «جهينة تأتي بالخبر اليقين»، ورمى الفأس من يديه واتجه إلى موضع الأخبية ليتأكد مما رآه. فماذا رأى؟ لقد وجد عجوزين تعدى عمر كل منهما السبعين عامًا وقد ألقى على كل واحدة منهما قطعة عباءة، وتركهما البدو في مكانهما ليواجها قدرهما ورحلوا عنهما هربًا من القيام برعايتهما والقيام على شؤونهما.

كما لاحظ أبو ناصر أنهما في حالة إعياء شديد بسبب الجوع والعطش حيث أن لسان كل منهما يكاد أن يلامس صدرها، وأثر الجوع واضح على قسمات الوجه.

إذًا صدَق ظنه بوجود شيء يتحرك، ولم يكن ما رآه خيالًا بسبب العرق المتساقط أو الخوف من الجن.

هنا أومأ أبو ناصر بيده إلى أخيه أبي سعد وأتبع الإيماءة بالنداء لكي يحضر إليه قليلًا من الماء وحفنة كافية من التمر، وصل أبو سعد إلى مكان تواجد أخيه ليكتشف أن ما رآه كان حقًا ولم يكن بسبب تساقط حبات العرق على عينيه أو

لاضطرابه النفسي من الوجود الوهمي للجن في تلك المنطقة، وأخذ الأخوان يتساعدان في إغاثة هاتين العجوزين فأبو ناصر تولى أمر سقايتهما الماء وصار ينقل الماء من شفة إلى أخرى، وأبو سعد يقوم بشق حبات التمر واستخراج النوى ورميه حتى لا تأكله العجوزان فيتلف ما بقي من أسنانهما.

استمرت عملية الإنقاذ ما يقرب من ساعة كاملة حتى إذا أحس الأخوان أن الحالة الصحية للعجوزين قد تحسنت قليلاً برجوع اللسان الممتد خارج الفم إلى مكانه، واختفاء مظهر الجوع الذي يرتسم في عيني العجوزين. هنا قرر الأخوان نقلهما من مكانهما الذي يتعرضان فيه لحرارة الشمس إلى ظل إحدى أشجار السلم الكبيرة وجلس الأخوان بقربهما يراقبانهما مخافة أن يحدث لهما مكروه بسبب ما مرا به خلال الأيام الماضية، إلا أن الله سلم ومرت الأمور على خير، ولاحظ الأخوان أن العجوزين أخذتا بتبادل الحديث بينهما وإن لم تكن إحداهما تسمع الأخرى إلا أن حركة الشفاة تدل على ذلك.

حمد الأخوان الله الذي هيأ لهما إنقاذ نفسين كانتا على حافة

الموت بسبب الجفاء وغلظة الطباع ممن تركوهما ليواجها قدرهما المحتوم، وهنا طلب أبو ناصر من أخيه أبي سعد إحضار الحمارين بعد أن يحمل عليهما ما أحضراه من أمتعة وماء، وحين سأل لماذا؟ فقال أبو ناصر: ستعرف حينما تحضر الحمارين، ولم يتأخر أبو سعد في إحضارهما، وهنا طلب منه أبو ناصر إركاب كل من العجوزين على حمار خاص بها وتوثيقهما بالحبال خشية سقوطهما لأنهما غير قادرتين على مساعدة نفسيهما، وقال أبو ناصر: ستتجه بهما إلى القرية لتكونا بقربنا أما ما حضرنا من أجله بخصوص قطع الأشجار فيمكن تأجيله يومًا أو يومين أو أيامًا فما أمامنا الآن أهم لأنه يتعلق بإنقاذ روحين كريمتين من براثن الموت.

تعاون الأخوان في إركاب كل عجوز على حمار وتوثيقهما. وهنا قال أبو ناصر: لنتجه على بركة الله إلى القرية، فقال أبو سعد: ولكن أين نضع العجوزين فمنازلنا تكاد تضيق بمن فيها من نساء وأولاد وحيوانات وأعشاب، فقال أبو ناصر: من هنا حتى نصل إلى القرية سيفتح الله لنا باب فرج قريب، قال

أبـو سـعد: إذًا لنـذهـب بهـما إلى إحـدى دور الغربـاء الموجـود في مساجد القريـة، إلا أن أبـا نـاصر استنكر هـذا الاقـتراح وقـال: وكيـف ننـزل نسـاء في مسـجد تكونـان فيـه عرضـة للاحتكـاك بالرجال؟ هذا لا يجوز.

ساد صمت على الأخوين حتى شارفا على الوصول للقرية، هنا قال أبو ناصر: لقد فرجها الله علينـا بعـد شـدة لنـذهـب بهـما إلى الغرفـة الملحقـة ببسـتان نخيلنـا الواقـع شرق القريـة فهنـاك ستجد العجوزان راحتهما بالابتعاد عن مواطن الإزعاج، فقال أبو سعد: وهل تنتهي مهمتنا عند هـذا الحـد؟ فقـال أبـو نـاصر: بل ستبدأ حيث سنبدأ في الحضور إليهما صباحًا وظهرًا وعصـرًا وليلًا وكل وقت يتوفر أمامنا للاعتناء بهما، إنهما أمانة اختـار الله لنا أن تكون بأيدينا.

وسوف نطلب من أهـالي القريـة السـاكنين شرقًـا مسـاعدتنا حسـب طـاقتهم في الاعتنـاء بهـما ممـا قـد يسـاعدهما عـلى تحسـن صحتهما نحو الأفضل.

يبدو أن أبا سعد قد اقتنع برأي أخيه فلم يعلق عليه بـل قـام

بقيادة الحمارين إلى الطريق المؤدي إلى الحجرة الشرقية.

وصل الأخوان إلى المكان في أمن وسلام، ولم يحدث لهما ما يعكر عليهما أثناء سيرهما إلى القرية خاصة الخوف من سقوط العجوزين من على ظهر الحمارين في غفلة منهما.

أنزل الأخوان العجوزين داخل الغرفة والشمس على حد الأفول مساء، وقال أبو ناصر: سأذهب بأحد الحمارين لآتي بما تحتاجه العجوزان من فرش تساعد على راحتهما أكثر، ومضى أبو ناصر، وبعد مرور ما يقرب من ساعة عاد وهو يحمل الحمار بساطًا وفراشين للنوم وقربة ماء وبعض الأواني الضرورية، وإناء به صعيد طاهر من أجل التيمم، وسراج، كما وضع القربة وإناء به بعض التمر بين الوسادتين لتكون قريبة من مرمى يدي العجوزين.

ومع مرور الأيام زاد اهتمام الأخوين بالغرفة وقررا تحويلها إلى ما يشبه المنزل الصغير فقاما بتجديد طين السطح والتأكد من عدم سماحه بتسرب مياه إلى داخل الغرفة، كما قاما بوضع عدة ميازيب في جهات السطح الأربعة لسرعة تصريف مياه

الأمطار وإغلاق الميزاب الذي كان يصب ماءه على مدخل الغرفة، وقاما ببناء «وجار» صغير لإشعال النار خاصة في فصل الشتاء، وزوداه بما يحتاج إليه من أحطاب وأدوات القهوة والشاي، كما فتحا نافذتين في جهتين متقابلتين في الغرفة للسماح بمرور الهواء تغلقان شتاء، وقاما بفرش بعض أكياس الخيش تحت جذع الأثلة القريبة من الغرفة.

مرت ستة شهور على وصول البدويتين إلى الغرفة وبسبب العناية الفائقة من أبي ناصر وأخيه أبي سعد تَحَسَّنت صحة العجوزين وأصبحتا قادرتين على المشي حبوًا إلى باب الغرفة.

بعد ستة شهور أخرى تقدم المستوى الصحي للعجوزين وأصبحتا تملكان القدرة على القيام والمشي استنادًا على جدار الغرفة.

بعد فترة قصيرة تمكنت البدويتان من المشي البطيء دون مساعدة الجدار، وإنما بمساعدة العصا، وأصبح بإمكانهما الجلوس مساءً خارج الغرفة حيث النور والهواء النقي، بل وأكثر من ذلك تحولت غرفة البدويتين إلى مجلس نسائي يبدأ

دوامه منذ شروق الشمس حتى صلاة العشاء عدا فترة الظهر حيث تجتمع نساء الحي مع البدويتين للإصغاء إلى هاتين البدويتين وهما تتحدثان عن حياتهما في البرية قرابة (70) عامًا وصراعهما الأزلي مع ظروف حياة الصحراء وما فيها من حر وقرّ وجوع وعطش واختلال الأمن أحيانًا، وأصبحت البدويتان قادرتين على مغادرة الغرفة وشجرة الأثل القريبة والتنقل في أنحاء المزرعة ترويحًا عن النفس واستمتاعًا بمنظر النخل وسواقي الماء والاستماع ليلًا إلى أنات السانية.

ولأنهما تعودتا على حياة البادية التي كانت تربي الإنسان منذ نعومة أظفاره على الاعتماد على نفسه في صراعه اليومي مع الحياة في الصحراء فإن البدويتين لم تركنا إلى الكسل بعد التحسن الكبير في صحتهما بفضل الله ثم رعاية المحيطين بهما من رجال ونساء وأطفال وفي مقدمة هؤلاء أبو ناصر وأبو سعد.

كانت البدويتان تستيقظان من النوم لصلاة الفجر وبعد أن ينشر النهار خيوطه على الكون تخرجان من الغرفة بعد تناول

ما هو موجود من تمر ولبن وتمضيان وقتهما إلى وقت الظهيرة في عمل تطوعي مساعدة لأبي ناصر وشقيقه أبي سعد واعترافًا بجميلهما.

كانتا تشغلان نفسيهما بنزع النباتات الطفيلية ووضعها أمام الحمار، والتقاط الثمرات المتساقطة من النخيل بسبب الرياح، وأحيانًا القيام بالإشراف على سير الماء في القنوات وتصريفه بطريقة عادلة بين أحواض النخيل وغيرها من الأعمال التي لا تجهدهما رغم العمر المتقدم وتكون عونًا وإسداء جميل لمن اعتنى بهما وكان سببًا في استمرار حياتهما بعد أن تركتا في انتظار الموت.

بعد أن تحسنت صحتهما أكثر وأكثر كانت البدويتان تذهبان كل جمعة إلى مجلس القرية حيث تستمعان إلى خطبة الإمام عند أحد أبواب المسجد ثم القيام بجولة في أرجاء مجلس القرية وتصفح وجوه الأهالي الذين يعرفونهما حق المعرفة (وهل يخفى القمر؟).

كان السبب في نزول البدويتين إلى مجلس القرية هو الأمل

في مقابلة أحد أفراد عائلتهما التي رمتهما تحت سفح الجبل في يوم قائض هربًا من رعايتهما بعد أن تقدمت بهما السن، كانتا تريدان أن تقولان له: ها نحن أحياء بفضل من الله ثم فضل ذوي القلوب الرحيمة.

لكن من المؤكد أنهما لم تصادفا أحدًا من أفراد العائلة وذلك لأن العائلة التي تركتهما في الصحراء كانت تعلم أن هناك من ذهب بهما واعتنى بهما، ولا شك أنه سيكون من أهل القرية لقربها من سكناهما في الصحراء؛ لذا تجافى أهالي هاتين البدويتين عن القدوم إلى القرية كل جمعة كما يفعل البدو عادة للبيع أو الشراء هربًا من الفضيحة وهكذا استمرت حياة العجوزين في كل عام أفضل من العام السابق، وحنان أهل القرية يتدفق إليهما كالمطر الغزير الذي ينفع ولا يضر.

وكانت قمة الإثارة حينما قدم أبو ناصر وأخوه أبو سعد ذاهبين إلى البئر القريبة لإعداد السائبة للسقي لأنه حان موعدهما المخصص لهما.

كان ذلك بعد صلاة العشاء في ليلة بدرية، حينما لمح أبو

ناصر وأخوه أبو سعد العجوزين خارج الغرفة وقد افترشتا قطعة من الخيش وإحداهما تمشط الثانية في سعادة وحبور وهما تغنيان حيث تقول الممشوطة:

«تِحْرِينًا نعرِسْ» **وتقول الماشطة: «فَيْشِجَا»**[1]

«نرجع صبايا» **وتقول الماشطة: «فَيْشِجَا»**

«ونركب حنايا»[2] **وتقول الماشطة: «فَيْشِجَا».**

واستمرت العجوزان في ضيافة أبي ناصر وأبي سعد بل والقرية كلها ما يقرب من عشر سنوات حتى حان يومهما ودفنتا في مقابر القرية - رحمهما الله -.

* * *

---

(1) كلمة غريبة يبدو أن معناها: (نعم).

(2) حنايا: أي هودج.

الملك سعود في خشم الملحاء

تولى الملك سعود -رحمه الله- الحكم يوم: 2/ ربيع الأول عام (1373هـ) وبويع ملكًا في 4/ ربيع الأول من العام نفسه.

وبعد ثلاثة شهور تقريبًا أي في شهر جمادى الثانية بدأ جولة تفقدية لجميع مناطق المملكة.

بدأت الجولة بمنطقة القصيم على أن تكون وجهة جلالته الثانية هي منطقة الوشم وبالتحديد مدينة شقراء، نظرًا لأهميتها السياسية والاجتماعية لكونها مقرًا لدائرة المال التي يتولاها عبد الرحمن السبيعي، وبني من أجل ذلك مقرًا لها، أصبح حاليًا أشهر من نار على علم بمسمى آخر هو قصر السبيعي التاريخي.

طبعًا فإن خبرًا مثل هذا في فخامته ودلالته السياسية والاجتماعية لا يمكن أن يخفى على إنسان في منطقة الوشم، ومن هنا عرف أهالي أشيقر بنبأ الرحلة الملكية، وقد تكون إمارة شقراء قد أبلغت أمير أشيقر بنبأ زيارة جلالته إلى شقراء.

ولكن المهم أن مروره بأشيقر لم يكن في الجدول الرسمي للرحلة؛ لذا اجتمع أكابر أهل أشيقر وتناقشوا في موضوع مقابلة جلالته ولو خارج أشيقر ولو لساعات محدودة.

كان الاجتماع يضم أمير أشيقر آنذاك منصور ابن عدوان، وإمام الجامع: عمر ابن فنتوخ، ومدير المدرسة الابتدائية: عبدالعزيز الفريح (مسامح)، ورئيس شركة النجاح: حمد السبيعي، ومجموعة من مدرسي المدرسة، منهم: والدي الشيخ: إبراهيم بن حمد السماعيل، والأستاذ: عبد الله بن عبدالعزيز السالم، والأستاذ: عبد الله بن إبراهيم السماعيل، ومجموعة من خيار أهل القرية قد يطول الأمر لو حاولت تسجيل أسماء من علقت ذاكرتي بهم.

قرر الأهالي نصب مخيم كبير على طريق الرحلة الملكية على بعد (50كم) من أشيقر، وكان طريق الرحلة محددًا لا يمكن استبداله حيث أنه قد سبق وأن قامت المعدات الثقيلة بمسحه من القصيم حتى شقراء بدفن الحفر والمطبات، وكشط الرمال، وقلع الصخور التي قد تعيق سير الموكب الملكي.

اختار الأهالي مكان المخيم بعد تجاوز نفود خشم الملحاء إلى المستوي حيث اتجهوا ونصبوا مخيمهم قريبًا من خط سير الموكب الملكي.

كان عدد الأهالي يتجاوز المئة شخص بقليل، ومن ضمن هؤلاء بعض طلاب المراحل العليا في المدرسة الابتدائية في حين اعتذر الأهالي لبقية الطلبة الذين يرغبون في مرافقتهم لضعف الإمكانيات.

وكان من ضمن الأهالي مدرس مصري اسمه: محفوظ، وصل للتو من مصر ليعمل بمدرسة أشيقر الابتدائية.

ونظرًا لخبرة هذا المدرس المصري التي استفادها من مشاهدته في القاهرة للمواكب الملكية الخديوية في عهدي الملك فؤاد والملك فاروق اقترح على الأهالي إقامة قوس نصر للترحيب بمقدم الملك تجتازه السيارة الملكية، وكتابة (يافطات) تحمل عبارات ترحيبية بجلالته.

وافق الأهالي وقام الأستاذ محفوظ بصنع وتركيب قوس نصر من خشب الأثل وعسبان النخيل.

كما أن أحد الأهالي تمكن من جلب مقاعد وثيرة (كنب) من أحد القصور الملكية لوضعها في الخيمة التي سيستريح فيها جلالة الملك، ومن الطريف أن الملك سعود لما دخل الخيمة وأبصر (الكنب) عرفه بأنه من أحد قصوره.

أقام الأهالي ستة عشر يومًا تقريبًا قبل أن يصل إليهم الموكب الملكي لأنهم لا يعلمون عن برنامجه شيئًا ولا توجد اتصالات هاتفية بين أهالي المخيم والمشرفين على الموكب الملكي.

كانت تلك الأيام خيرًا وبركة لم تكفّ السماء عن الانهمار إلا قليلًا، وتحولت الأراضي الشاسعة إلى برك وغدران، وجرت الأودية، وتحولت الرمال إلى ما يشبه الطرق المعبدة لكثرة امتصاصها الماء، حتى أن السيارات التي يستعملها الأهالي في التردد بين المخيم وأشيقر تفضل السير على الرمال بدلًا من الأرض المنبسطة؛ مخافة أن تعلق في الطين، كما كانت الأرض خضراء والربيع ينشر أزهاره في كل مكان ينشر في نفوس الناظرين البهجة والسرور.

في اليوم السادس عشر من شهر رجب تقريبًا وصل الموكب الملكي وتوقف عند الخيام، حيث نزل جلالته من سيارته وأخذ يصافح مستقبلينه فردًا فردًا صغيرًا وكبيرًا ثم أخذ طريقه إلى الخيمة الرئيسة المعدة لاستقباله مرفوقًا بالحاشية.

بدأ الحفل الخطابي ترحيبًا بجلالته حيث قرأ والدي الشيخ: إبراهيم بن حمد السماعيل ما تيسر من آيات القرآن الكريم، ليأتي بعده الأستاذ: عبد الله بن عبد العزيز السالم ليلقي كلمة الأهالي، ثم الطالب: عبد الله بن سالم السالم ملقيًا كلمة ترحيبية باسم الطلاب، أعقب ذلك الأخ: سليمان بن محمد ابن سيف الذي ألقى قصيدة من عدة أبيات باللغة الفصحى لم يكن فيها سوى خطأ واحد، ومن العجيب أن سليمان ابن سيف لم يتجاوز تعليمه مرحلة الكتاتيب ومع ذلك برع في نظم هذه القصيدة إضافة إلى إجادته في نظم الشعر الشعبي وأعمال البناء[1].

(1) انظر القصيدة: ملحق رقم 2.

انتهى الحفل الخطابي، وانتقل جلالة الملك إلى الخيمة الأخرى التي أعدت فيها سفرة تليق بمثله تحتوي على كل أنواع الفاكهة والتمور والألبان والحليب (لأن الوقت لم يكن وقت الغداء).

جلس جلالته إلى المائدة حيث ناوله الأهالي إناء به لبن بعض الأبقار حيث تضلع منه جلالته وأعجب بطعمه الذي يدل على أنه لبن خالص وليس (بمذق) ممزوج بماء، ثم مد جلالته الإناء إلى أحد كبار البدو المرافقين، وقال له: «اشرب من اللي ما هوب لبنكم» على سبيل المزاح.

انتهى جلالته والمرافقون من تناول ما طاب لهم مما قدم لهم، واستأذن لمواصلة سفره إلى شقراء، وعندما هم بركوب سيارته أشار إلى أحد مرافقيه وهو المسؤول المالي ويسمى (ابن عيدان) بأن يصرف للأهالي إكرامية جزيلة تقديرًا منه لهم على حسن الاستقبال والضيافة.

تقاسم الأهالي ما جادت به اليد الملكية بالتساوي، وكم كان الأمر مفرحًا أن بعضًا من القطع المعدنية من الذهب

الخاص.

استأنف الموكب الملكي رحلته متجهًا جنوبًا إلى شقراء وبعد أن اختفى عن الأنظار فوجيء أهالي أشيقر في المخيم بهبوب ريح عاصفة تحمل الأتربة والرمال مما تسبب في انعدام الرؤية واقتلاع الخيام ودفن مستلزمات المخيم تحت التراب.

ولعل ما يحير العقل هو تساؤل الأهالي كيف جاءت تلك الريح العاصفة مع أن كل شبر في الأرض سهلًا وجبلًا ورملًا قد شرب من مياه الأمطار حتى ثمل.

لم يحزن أهالي أشيقر لما حصل لهم بل حمدوا الله -سبحانه وتعالى-، ورأوا في ذلك أن الله كان رحيمًا بهم حيث لم تهب العاصفة إلا بعد رحيل الضيف الكبير، إذ لو هبت العاصفة لحظة وجوده لكان في الأمر إحراجًا لهم أمام ضيفهم بسبب عارض لم يصنعوه ولم تكن لهم القدرة على رده.

انتهت علاقة جلالة الملك سعود بالأهالي ليبدأ الجزء الثاني من تلك العلاقة، ولكنها كانت مع بعض الطلاب فقط ولم يشاركهم فيها شخص من الأهالي.

كـان ذلـك حـين اعتـذر الأهـالي عـن اصطحاب بعـض الطلاب معهم إلى المخيم في خشم الملحاء نظرًا لضيق ذات اليد وقلة الإمكانيات، حيث عاد هؤلاء الطلاب إلى منازلهم يجرون أذيال الخيبة على ضياع تلك الفرصة النادرة المفرحة.

في يوم غد كان بعض هؤلاء الطلاب يحكون قصتهم مع الأهالي لأحد كبار السن الذي قال لهم: ولماذا الغضب والحزن أنتم رجال وعندكم القدرة أن تشيدوا مخيمًا خاصًا بكم لا يشارككم فيه أحد.

وأكمل الرجل المسن قائلًا: اجمعوا لكم مبلغًا ماليًا من تبرعاتكم، واشتروا ما تحتاجون إليه من لوازم المخيم، واذهبوا إلى (ابن مرشد) في شقراء واستأجروا سيارته، واذهبوا إلى (الفَرْغ) وانصبوا مخيمكم على طريق الموكب الملكي.

استمع الطلاب إلى تلك النصيحة وقاموا بتنفيذها فورًا، وجمعوا مبلغًا ماليًا واشتروا لوازم الرحلة، واستأذن كل طالب من أهله للذهاب في تلك الرحلة؛ لأنه قد وضع شرط للذهاب وهو موافقة الوالدين -خاصة الأم-.

استأجر الطلاب سيارة (ابن مرشد) بـ(150) ريالًا التي كان يقودها شخص اسمه: (ابن سُعَيِّد)، حيث أوصلهم إلى الفَرْغ، وأنزلهم ومتاعهم بجوار الطريق الذي سيمر من عليه الموكب الملكي حتمًا.

نصب الطلاب خيمتهم، وأقاموا (3) أيام متواصلة، كما كان شأن الأهالي لم تنقطع فيها السماء الممطرة عن الأرض حتى أنهم اكتفوا بمياه الغدران توفيرًا للماء الذي جلبوه معبأ في براميل.

نصب هؤلاء الطلاب عصا طويلة عليها علم،وهو عبارة عن:(قماش عليه صورة جمل، كان يُستخدَم بِقْشَة لحفظ الملابس) وانتظروا متى يمر الموكب الملكي الذي لا يدرون متى موعده، ولكنه من المؤكد سيمر فجأة.

أقبل عليهم الموكب الملكي مع منتصف النهار فعمت الفرحة قلوبهم، وحينما رأى الملك سعود مخيمهم أمر بالتوقف، رغم أن هذا التوقف ليس في برنامج الرحلة.

توقفت سيارة جلالته، وفتح باب السيارة ووضع رجله

اليمنى على الأرض فيما بقي هو جالسًا على مقعده.

تتابع الطلاب للسلام على جلالته الذي سألهم: ممن أنتم؟ فقالوا له: نحن من أشيقر، فقال لهم: ولماذا لم تخرجوا مع أهاليكم؟ فقال الطلاب: أنهم رفضوا طلبنا لمرافقتهم. فما كان من جلالته إلا طيب خاطرهم بقوله: «أنتم أفضل منهم».

ألقى الطلاب بين يدي جلالته كلمتين ترحيبيتين، كما أدوا نشيدًا وطنيًا نال إعجاب جلالته[1]، وألقى محمد الصالح اليوسف -رحمه الله- قصيدة قال: إنها من المدرسة، كما ألقى محمد المسلم الحصان -رحمه الله- كلمة ترحيبية.

وفي تلك الأثناء أحضر أحد الطلاب دلة القهوة ووقف أمام الملك ليصب له فنجان، وأمام رهبة الموقف ارتعشت يده واضطربت الدلة وهو يملأ الفنجان حيث سقطت «اللِّيْفة» التي في مجرى الدلة في الفنجان، فتطاير رذاذ القهوة على ثياب الملك، فأصيب الطالب بالهلع والحزن، إلا أن الملك سعود

(1) هو نشيد (بلاد العرب أوطاني) للشاعر اللبناني: فخري البارودي.

طمأنه، وقال له: «لا عليك، الشَّنطة مليانة ثياب»، وطلب منه أن يسكب له فنجانًا بديلًا.

عند هذا الحد انتهت هذه الزيارة غير المبرمجة، واستعد الملك لمواصلة رحلته إلى شقراء حيث وجه المسؤول المالي بصرف إكرامية لهؤلاء الطلاب نظير حسن الاستقبال والضيافة وتجشم عناء السفر على هؤلاء الصغار.

وقد أعطاها إبراهيم بن عيدان لمحمد المنيفي -رحمهما الله- الذي سلَّمها لعبد الرحمن اليوسف -رحمه الله- فوزعها على الطلاب الذين كان عددهم (12) طالبًا، وكان المبلغ الإجمالي لما صرف لهم (200) ريال[1].

وكان نصيب كل طالب من تكاليف الرحلة أقل من (10)

---

(1) حسب إفادة عبد الرحمن اليوسف -رحمه الله-، وهناك ممن حضروا المناسبة من يقول: أن هذا المبلغ هو قيمة بيع أدوات الرحلة بعد العودة، أما مكافأة الملك سعود -رحمه الله- فكانت (40) ريالًا لكل واحد، وذهب عبد الرحمن اليوسف رئيس الرحلة إلى شقراء واستلمها من بيت المال في بيت (السبيعي) الذي أصبح حاليًا متحفًا.

ريالات فقط.

في الغد قام الطلاب بالاستعداد للرحيل، وثم طوي المخيم حيث جاءت سيارة (ابن مرشد) لتعيدهم من حيث أتوا إلى أشيقر.

وهكذا بقيت ذكرى هذه الرحلة الملكية حيّة في أذهان الأهالي والطلاب لا تزيدها الأيام إلا توهجًا ولا تتذكرها القلوب إلا وحنت إلى تكرارها مرة أخرى[1].

وكانت هذه الرحلة الملكية بالنسبة لأهالي أشيقر وطلابها ذكرى جميلة تستحق أن يتم تدوينها ليعرف الأحفاد كيف كان

---

(1) يروي بعض الطلاب أنه بعد عودتهم من الرحلة كان الملك سعود قد منح لكل طالب بالمدرسة منحة مالية، وبعد أن ذهبوا للمدرسة طالبوا بأن تشملهم منحة الملك سعود أسوةً بزملائهم، إلا أنه رُفِض طلبهم بحجّة أنهم سبق وأن استلموا منحة مالية من الملك، فقال الطلاب: أن الذي استلمناه كان بسبب ضيافتنا له، ثم هددوا بالشكوى، قائلين: « إن الملك لم يصل ثرمداء»، حينها وجّه مدير المدرسة(عبدالعزيز الفريح) -رحمه الله- بإعطائهم من المنحة، وكانت(20 ريال)، فأصبح الذي كسبوه من زيارة الملك (60 ريال) وهو مبلغ يُعَدُّ كبيرا في ذلك الوقت.

آباؤهم في ترابطهم وتعاونهم وجرأتهم في التعامل مع الأمور العظيمة.

❋ ❋ ❋

الصدقة الخفية[1]

انتهى موسم التمر رطبًا، واستقرت آخر حبات التمر في جصاص الفلاحين في منازلهم الطينية داخل القرية أو في مزارعهم.

لذا بدأت أعمال الفلاحة بعد هذه المرحلة تقل سواء بالنسبة للفلاح أو لعائلته.

وحيث إن المناخ بدأ في الاعتدال مع ميل بسيط إلى البرودة فإن الفلاحين بدأوا يتجهون إلى البرية، وذلك لجمع الأعشاب خاصة الجليلة التي تحتاجها سوائمهم في فصل الشتاء، وكذلك اقتطاع بعض الأحطاب لكي تساعدهم على الدفء في الليالي الباردة، وكان ذلك الوقت في منتصف الخريف حيث قلت الحاجة الملحة إلى الماء سواء لسقي النخيل والمزروعات أو للذهاب بها إلى البرية، حيث أن الفلاح لم يكن يأخذ معه من الماء إلا ما يكفيه ليوم أو ليومين، ولعلمه بمواقع الآبار في

(1) أسماء الشخصيات في هذه الحكاية مستعارة، وليست أسماء حقيقية.

الصحراء التي تتوفر على ماء عذب تؤمن حاجة الفلاح وتزيد.

كذلك فإن هذه الفترة أصبحت بالنسبة لنساء الفلاحين فترة استرخاء نظرًا لقلة الأعمال الفلاحية بسبب الانتهاء من جذاذ التمر وتشذيب النخيل وتسميدها، لذا لم تكن المرأة الفلاحة بحاجة إلى الخروج من منزلها فجرًا لمساعدة زوجها في عمله اليومي.

في القرية كان يعيش عامر، رجل بسيط يعمل في فلاحة الأرض والعناية بالنخيل التي ورثها من والده، وكانت أسرته صغيرة تتألف من زوجة وابنة واحدة فقط، منحها الله سعة في الكمال و في الجمال والأدب والأخلاق والتدين.

وكانت والدتها لا تقل عنها في شيء من هذه الصفات التي جعلت حياة عامر مع أسرته حياة هادئة بسيطة تكاد تخلو من المشاكل العائلية.

توفر عند الأم وابنتها بسبب دخول فصل الخريف وقت طويل للبقاء في المنزل أو زيارة الجارات القريبات، كما توفر لديهما وقت طويل في ليل الخريف يقضيان جزءًا منه في السهر

إذ ليس هناك ما يدعوهما للنوم مبكرًا والاستيقاظ مع ساعات الفجر الأولى، كما أن خروج الأب إلى البرية لجلب الأعشاب والاحتطاب ساعدهما أيضًا على توفر وقت للجلوس معًا وتبادل الأحاديث في شتى أمور حياة الأسرة.

في إحدى الليالي المقمرة والبدر يغطي بنوره نصف المنزل المكشوف وكان الجو معتدلًا، جلست الأم (اسمها: قُوَيت) تتجاذب أطراف الحديث مع ابنتها (اسمها:بَنًّا)، فجأة سألت البنت أمها سؤالًا لم تكن الأم تتوقعه.

قالت البنت (بنّا):

ما حاجة والدي في الإكثار من الأواني التي يخزن فيها الشحم المذاب، ونحن أسرة تتألف من ثلاثة أشخاص فقط، وحاجتنا إلى الدهن لا تتطلب هذه الأوعية الكثيرة؟

قالت الأم (قُوَيت):

إن والدك لا يجمع هذه الكمية من الشحم المذاب لاستعماله المنزلي وإنما للمتاجرة به في سوق القرية خاصة في

الفترة التي تقل فيها أعمال الفلاحة بدخول فصل الخريف أو عدم خروجه للبرية.

قالت البنت: ومن أين يشتري أبي هذه الشحوم؟

قالت الأم:

من البدو الذين يفدون للقرية خاصة يوم الجمعة للصلاة ولاقتناء ما يحتاجون إليه، حيث يحضرون بعض بهائمهم من أغنام وإبل بعد ذبحها لتعرضها لأسباب جعلت ذبحها أمرًا لازمًا، ومن ثم بيعها على سكان القرية، كما أن الأمر يزداد ويرتفع في فصل الصيف حيث يأتي البدو لكي يقيموا مضاربهم في الجو الشرقي حيث موارد المياه.

قالت البنت:

ولماذا لا يحتفظ البدو أنفسهم بالشحوم بعد إذابتها بدلًا من بيعها إلى أهل القرية ثم العودة إلى شرائها؟

قالت الأم:

لأن ذلك الأمر يتطلب أن يكون عند البدوي أوعية كثيرة،

وهذا لا يتلازم مع طبيعة الترحال عند البدو من مكان إلى مكان طلبًا للماء والمرعى؛ لأن ذلك يستدعي أن تتوفر لديهم ركائب لنقل ما تختزنه الأوعية من شحوم، لذا يضطر البدويّ إلى بيعها إن لم يكن بحاجة إليها، ومن ثم شراء ما يحتاج إليه فيما لو كان مضطرًا على قدر احتياجه دون زيادة أو نقصان؟

قالت البنت: ولمن يبيع أبي هذه الدهون المذابة؟

فقالت الأم:

في الغالب يبيعها على البدو، خاصة إذا مرضت إبلهم بداء الجرب فيأتون إلى القرية لشراء الدهون لخلطها مع الزرنيخ، ومن ثم طلاء الإبل بها، أما أهل القرية فحاجتهم إلى تلك الدهون فيما عدا الاستعمال المنزلي فقليلة جدًا لندرة الإبل لديهم.

قالت البنت:

ولكن يا أمي هناك من أهل القرية خاصة الفلاحين من هو في حاجة إلى تلك الدهون لغير الاستعمال المنزلي.

قالت الأم: وكيف؟

قالت البنت:

لعلك تعلمي أن منزلنا يقع على طريق الذاهبين إلى البرية والذين أراهم فجرًا وهم يعبرون الطريق يقودون حميرهم حتى في الأيام الباردة، وعليهم أثر الخشونة لذا فإنهم في حاجة أكيدة إلى هذه الدهون للاستعانة بها في علاج أمراض البرد وخشونة الطريق والعمل، ومع ذلك فلم أر أبي رغم غناه وشدة تدينه حيث لا تفوته تكبيرة الإحرام قد جاد على هؤلاء البؤساء ولو بقليل القليل من الدهن لمواجهة برد الشتاء القارص، فما السبب؟

أطرقت الأم قليلًا، ثم قالت لابنتها: سوف أقول لك السبب إذا عاهدتني ألا تقولي لوالدك عما قلت شيئًا، فأقسمت البنت لأمها بالله ألا تنطق بحرف مما جرى الحديث عنه هنا.

قالت الأم:

يا ابنتي إن أباك رغم غناه وتدينه بخيل شحيح لا يكاد ينفق على بيته إلا وهو كاره، فكيف تريدين منه أن تمتد يده

بالجود خارج المنزل؟

فقالت البنت:

وما الحل في دفع والدي إلى تغيير سلوكه هذا إلى ما هو أفضل؟

فقالت الأم:

لا سبيل إلى ذلك، فتلك جبلة وطبع نشأ عليها والدك، وليس بمقدورنا أن نغيرهما، والمثل يقول: «غَيِّرْ جَبَل ولا تُغَيِّر طَبِيْعَة»، فلنترك الأمر لله -جل وعلا- ولعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

قالت البنت:

إذًا لماذا لا أقوم أنا وأنت بما بخل به والدي فنحسن إلى هؤلاء الفقراء والبؤساء بإعطائهم عند مرورهم بنا قليلًا من الدهن.

فقالت الأم:

ومن أين يتوفر لنا ذلك؟

قالت البنت:

من تلك الأوعية الكثيرة المملوءة بالشحم المذاب.

فردت الأم قائلة:

ولكن ذلك ملك أبيك وليس لنا أن نمد أيدينا إليه دون علمه؛ لأن ذلك يعتبر سرقة.

قالت البنت:

نحن لم نسرق لنضع في جيوبنا، نحن نتصدق صدقة خفية، لعل الله يقينا مصارع السوء، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ حيث قال: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب**»، وقال أيضًا: «**داووا مرضاكم بالصدقة**» فنحن بتلك الصدقة نمنع عن أنفسنا -إن شاء الله- المرض وميتة السوء، ثم أردفت البنت قائلة: إن مثل هذا العمل قد سبق أن أجازه الرسول ﷺ لهند بنت عتبة، حيث قالت له: «**يا رسولَ الله، إنَّ أبا سفيانَ رجلٌ شحيحٌ، لا يعطيني ما يَكفيني وولَدي، إلَّا ما أخذتُ من مالِهِ، وَهوَ لا يعلَمُ، فقال: خُذي ما يَكفيكِ**

وولَدَكِ بالمعروفِ».

قالت الأم:

وماذا نفعل فيما لو اكتشف والدك ما نعمله حين يتفقد أوعيته فيجد الدهن ناقصًا؟

فقالت البنت:

إن الأوعية التي عند والدي كثيرة قد يستغرق أمر بيعها عامًا وكل ما باع شيئًا عوضه بدهن جديد ولذا فنحن سنأخذ من الوعاء الذي يقع في آخر الصّفة والذي أعتقد أن يد والدي لن تمتد إليه إلا بعد سنة أو عدة شهور، وربما يحدث الله لنا أمر خير قبل أن تصل يد الوالد إلى كشف سرنا الخفي.

قالت الأم:

ولكن كيف لنا أن نصل إلى الدهن ووالدك يقفل المخزن بالمفتاح الخشبي ويضعه في جيبه؟

فقالت البنت:

إن أبي عندما يريد النوم يخلع ثوبه الذي يحمل المفتاح

ويستبدله بثوب آخر، هنا سوف أتسلل برفق كتسلل حباب الماء أو الغذاء في الأعضاء وآخذ المفتاح لنقوم بفتح المخزن، وأعيده إلى ثوب أبي قبل أن يستيقظ.

قالت الأم:

لقد أقمت عليّ الحجة يا ابنتي فلا أملك أن أرفض لك قولًا ولا فعلًا، ولكن كيف نعمل فيما ذهبت إليه؟

قالت البنت:

إذا استيقظنا لصلاة الفجر ورأيت والدي وقد خرج للمسجد لأداء الصلاة تقفين على قارعة الطريق ومعك إناء الدهن، وكلما مر بك شيخ بائس أو رجل أو امرأة أو طفل تعطينه حفنة لا بأس بها من الدهن ليستعين بها في ترطيب كفيه وقدميه ووجهه من بؤس الشتاء، وعندما تنتهي الصلاة وتلمحي شبح والدي في طريقه للمنزل تعودين للمنزل وتعطينني الإناء لأكمل سيرتك الأولى، وعليك أن تعرفي أنه يجب أن تكوني أمام عينيه عند دخوله إلى المنزل لكي لا يتطرق الشك إلى قلبه فيما لو لم يجدك أمامه.

قالت الأم: وأنت؟

قالت البنت:

أنا لن يكتشف والدي غيابي كالعادة؛ لأنه يعتقد أنني ما زلت نائمة، فهنا أخرج من حيث لا يراني وأواصل مسيرة الخير التي بدأت على يديك مع أذان الفجر، وأستمر في توزيع ما معي من الدهن على المارين حتى يتبين الخيط الأبيض من الصبح لأعود للمنزل قبل أن يستيقظ والدي من منامه فيشك في أمر غيابي أو يلمحني من حيث لا أراه وأنا أعود للمنزل.

قالت الأم:

وفقك الله يا ابنتي وزادك بصيرة وحكمة، لقد رسمت خطة مذهلة لعمل الخير ونرجو من الله سبحانه وتعالى أن يستر أمرنا فلا ينكشف فعلنا، وإن انكشف أمرنا أن ييسر لنا الحجة في تبرير ما فعلناه في الخفاء عن والدك.

قالت البنت:

إذًا موعدنا فجر هذا اليوم لنبدأ مسيرة «الصدقة الخفية».

قالت الأم: ليكن ذلك.

فجرًا استيقظت العائلة لصلاة الفجر وخرج الأب (عامر) بعد أن توضأ لأداء صلاة الفجر بالجامع مع جماعة المسجد الذي يبعد عن بستانه ومنزله قرابة ربع ساعة، حيث خرجت الأم وهي ترقبه من بعيد حتى اختفى شبحه في الظلام هنا حملت وعاء الدهن ووقفت على الطريق الذي يمر بمحاذاة عسبان النخيل وأخذت تقتطع قطعًا من الدهن التي تجمدت بسبب البرودة وتعطي كل من مر بها قليلًا ليسد حاجته في مكافحة برد الشتاء ووعورة الطريق والعمل.

وحينما لمحت الأم شبح الأب (عامر) عائدًا بعد انتهاء الصلاة وقبل أن يراها دخلت المنزل ووضعت الوعاء في مكان لا يمكن أن يصل إليه نظر والد ابنتها، وتعمدت أن تمر أمامه وقد تلحفت بجلال الصلاة، وبعد أن اتجه (عامر) إلى حيث ينام قامت البنت بأخذ الوعاء وقامت بملئه لتعويض ما قامت والدتها بتوزيعه، وخرجت لتقف في مكان أمها وتستأنف مسيرة الصدقة الخفية فتمنح كل مارّ بها ما يسد حاجته من الدهن.

وهكذا استمرت الأم والبنت في مسيرتهما الخيرة مدة تقرب من ستة أشهر، وإن كان عدد الخارجين للبرية يقل صيفًا عنه في الخريف والربيع والشتاء، ولم يكتشف عامر شيئًا مما يجري حوله، لقد كان الله رحيمًا بالأم وابنتها فستر عليهما فلم تصل يد عامر إلى الوعاء الذي يأخذان الدُّهن منه، بل كان يأخذ عند البيع الأقرب فالأقرب ثم يعيد ملء الوعاء بدهن جديد.

وفي فجر أحد الأيام[1] عندما اتجه عامر إلى باب المنزل للخروج إلى المسجد لأداء صلاة الفجر مع الجماعة، فوجئ في بستان النخيل بوجود ناقة بَارِكَة جوار إحدى النخلات، إلا أن عامر فضل الذهاب إلى المسجد حتى لا تفوته الصلاة، وبعد العودة من المسجد اتجه إلى حيث تَبْرُكُ الناقة، وأخذ يتأملها بعمق حيث لاحظ أنه لا أثر لخفها على الأرض كما لاحظ أنه لا وسم على رقبتها يدل على صاحبها، كما رأى أنها بدون شكيمة أو خطام وليس عليها أثر الارتحال وما يصاحبه من إرهاق وتعب، ولم يجد على ظهرها «مسامة» مما يدل على أنه لم

(1) من هنا تبدأ الأسطورة.

يكن هنا من يمتطي ظهرها، بل كانت باركة هادئة هانئة لا شيء يزعجها، ولعل أكثر ما حير عامر هو كيف دخلت هذه الناقة إلى بستان النخيل رغم أن سوره مرتفع والباب مقفول منذ غروب الشمس، وتساءل: هل يمكن أن تكون دخلت قبيل المغرب من دون أن تشعر العائلة بذلك؟ ولكنه طرد هذا التساؤل بسبب عدم وجود أي أثر لأخفافها على الأرض، وأخيرًا وصل عامر إلى قناعة أن هذه الناقة جاءت إلى بستانه بطريقة تفوق قدرة الإنسان العادي على التفكير وبأسلوب خفي على البشر لا يعلمه إلا الله، ولكنه مع ذلك رأى أنه لا بد له من سؤال الإمام عن سر هذه الناقة، خاصة وأنه متأكد تمامًا أنها ليست جنًا متشكلًا في هيئة حيوان، لذا انتظر عامر حتى حان وقت صلاة الظهر، واتجه لتأدية الصلاة في المسجد، وبعد انتهاء الصلاة اتجه إلى الإمام، وأفضى له بسر الناقة وتواجدها داخل بستانه مع انعدام أي أثر لها عند الدخول. هنا سأله الإمام إن كان يؤدي في حياته اليومية عملاً خيرًا بطريقة خفية أو أنه يفضل سكان القرية في أداء واجباته الدينية. لكن عامر

أجاب بأنه في جميع أفعاله وأعماله الدينية والاجتماعية رجل عادي لا يفضل أحد من أهالي قريته. لم يتبين أن الإمام حاول أن يفسر وجود هذه الناقة الغريب بالكرامة، ذلك لأنه يعيش في مجتمع محافظ دينيًا، ولا يعترف بحصول الكرامة للإنسان العادي، كما أن ادعاء الكرامة تفكير صوفي محض لا يمكن أن يكون في مجتمع بريء من الصوفية، كما أن الإمام لم يسمع من عامر عندما أخبره عن سر هذه الناقة ما يفيد بتميزه الديني أو الاجتماعي القائم على السرية والخفاء بحيث يكون مدخلًا لجزاء إلهي يفوق قدرة الحدث العادي ويصل إلى مرحلة الكرامة التي هي أمر خارق للعادة، لهذا اكتفى الإمام بإفادة عامر بالقول: «هذا رزق ساقه الله إليك» وهو تعبير شائع في المجتمع المحافظ لتفسير الظواهر الغريبة التي تخفى أسبابها، لذا خرج عامر من المسجد يصفح وجهه بشرًا وسعادة بهذا التفسير من الإمام، وتراجع لوهلة تفكيره وتساؤله الذي لازمه منذ رأى الناقة جاثمة في بستان نخيله.

اتجه عامر مباشرة إلى منزل جزار القرية وطلب منه الحضور

عصرًا إلى بستانه وأبلغه بسر الناقة ولكنه طلب منه عدم إخبار أي أحد.

حضر الجزار عصرًا واستعد لنحر الناقة بمساعدة عامر وابنته (بَنَّا) وأمها (قُوَيْت)، وعندما انتهى الجزار من نحر الناقة أعطاه عامر أجرته وشيئًا من لحمها على سبيل الهدية، أما عامر فإنه انشغل مع قويت في تقطيع اللحم فيما انشغلت البنت في إذابة شحوم الناقة وتحويلها إلى دهون، وعندما انتهت وضعت أوعية الدهن تحت النخيل لكي تطير حرارتها.

بعد صلاة العشاء جاء عامر وأخذ أواعي الدهن وذهب بها إلى مخزن الدهن، وهناك وعلى ضوء السراج الضعيف أخذ يملأ الأوعية الفارغة بالدهن الجديد ومن ضمنها الوعاء الذي كانت الأم وابنتها تأخذان الدهن منه وتعطيانه للفقراء فجرًا.

أضفى الله تعالى ستره على ما فعلت الأم وابنتها فلم يلحظ أو ينتبه عامر للنقص الشديد في محتوى الوعاء من الدهن وهو نقصٌ أقرب ما يكون إلى الفراغ، وحينما انتهى عامر من صب الدهن في الأوعية، تنفست الأم وابنتها الصعداء وحمدتا الله

تعالى أن أخفى سرهما عن عيني عامر.

نام عامر نومًا هنيئًا ونفسه عامرة بالسعادة والرضى لأن الله -سبحانه- رزقه رزقًا لم يكن يتوقعه، حيث استيقظ فجرًا واتجه إلى المسجد لأداء صلاة الفجر وحينما عاد إلى منزله لم يتجه إلى فراشه لإكمال نومه حتى شروق الشمس بل فضل الجلوس إلى جذع نخلة ليعاوده التفكير في سر الناقة الغريب الذي أدرك بنفسه بأن ذلك ليس مكافأة له لأنه لم يسبق أن تميز في عمله الديني أو الاجتماعي عن الآخرين، كما أنه لم يلحظ أيضًا أي تميز لأم أولاده (قُوَيْت) وابنتها (بنّا) لكي يصح تفسير ما حدث أنه مكافأة لهما؛ وأشرقت الشمس على عامر ولم يصل إلى جواب مقنع وإنما إلى تساؤل يجرّ وراءه تساؤلًا حتى أصبح الأمر أمامه طلسما.

ذهب إلى داخل المنزل ليتناول (ريوقه) كما يسمى الإفطار في المجتمع القروي المؤلف من أقراص من البر والحليب الحار وأخذ يتجاذب أطراف الحديث مع زوجته وابنته والذي لم يتجاوز الحديث عن سر الناقة الغريب وتفسير الإمام وأنهى

الحديث بأنه لم يلحظ في حياته وحياة عائلته أمرًا يميزها عن سواها حتى تظفر بهذه المكرمة.

هنا وعلى طريقة المثل اللبناني «بق البحصة يا أنطوان» ردَّت البنت قائلة: بلى إن مجيء الناقة بهذه الطريقة التي تفوق مستوى التفكير البشري كان مكافأة لما كنت أقوم به وأمي من صدقة خفية.

قال عامر لابنته: وماذا كنتما تفعلان؟ فأخبرته البنت: بأنهما يأخذان كل فجر شيئًا من الدهن دون علمه، وتقومان بتوزيعه على المارة من بؤساء وفقراء وهم في طريقهم إلى البرية، لكي يستعينوا بهذا القليل على مواجهة قساوة الشتاء والطريق والعمل، فقال عامر: ولماذا لم أتبلغ بما كنتما ستعملان؟ فتدخلت الأم (قُوَيْت) قائلة: لأننا كنا نريد أن نتكتم على هذا العمل فلا يشيع أمرنا فنفقد أجرنا؛ أخذًا بقول الرسول ﷺ: **«ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلم شمالُه ما تُنفق**

يمينه»[1].

هنا تدخلت البنت (بَنَّا) قائلة:

لكي أكون صريحة معك يا أبي لقد كنا نخاف أن تمنعنا من فعل هذه الصدقة الخفية بسبب إدراكنا أنك قد لا ترضى بهذا العمل نظرًا لكون طبعك سابقًا هو الإمساك، والرسول ﷺ يقول: **«مَا مِنْ يَوْمٍ يُصبِحُ العِبادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»**[2]، لذا رأينا أن نسلك طريق السِّرِّية في عملنا هذا آملين من الله تعالى أن يثيبنا ويثيبك على هذه الصدقة لكونك صاحب المال المنفق، ولعل الله كان رحيمًا بنا فجاءت الناقة لكي تكون سببًا في عدم إفشاء سرنا، إذ كان الوعاء الذي كنا نأخذ منه الدهن على وشك النفاد.

أحنى الأب عامر رأسه إلى الأرض قليلًا مفكرًا فيما

---

(1) مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

(2) مُتَّفَقٌ عَلَيْه.

سمع من الأم وابنتها، ورأى أنهما كانتا محقتين فيما تقولان وما تفعلان، وحينما رفع رأسه لم يملك إلا أن تسللتْ يده إلى جيبه ليخرج مفتاح المخزن الخشبي، قائلًا: خذا المفتاح، وافعلا ما تريدان، بل ووزعا لحم الناقة الذي لم يأخذ منه أحد شيئًا سوى الجزار الذي قام بذبح الناقة، وأردف قائلًا لهما: منذ اليوم لن أغل يدي إلى عنقي، ولكنني سأبسطها في عمل المعروف والصدقة الخفية كل البسط.

❋ ❋ ❋

صفعة بلا سبب[1]

عاد ابنا العم صالح وإبراهيم إلى غرفتهما الخشبية التي شيدتها لهما الشركة التي يعملان بها ضمن عشرات الحجرات لعمال الآخرين حتى تحولت المنطقة إلى ما يشبه الحي الصغير الذي ينام على أكتاف رمل ناعم خفيف لا يسمح بتوقف السيارات.

كان الوقت عندما عادا بعد غروب الشمس، حيث أمضيا نهارهما كاملًا منذ الساعة السابعة صباحًا في العمل الشاق الذي لم يتخلله أدنى راحة سوى ساعة واحدة لتناول طعام الغداء في المطعم المشترك بمقر الشركة.

ألقى إبراهيم وصالح جسميهما المنهكين على الرمل الخفيف النظيف، وأخذ كل منهما يعد نجوم السماء التي بدأت تتلألأ كالفضة في عيونهما.

مضى وقت لا يقل عن نصف ساعة وهما على تلك الحال،

---

(1) أسماء الشخصيات في هذه الحكاية مستعارة، وليست أسماء حقيقية.

ثم التفت إبراهيم إلى صالح قائلًا: ما رأيك في أن تنهض لكي نقوم بطبخ عشائنا مما يتيسر وجوده لدينا من مواد الطبخ؟ هنا رد صالح: لا أظن أننا بحاجة إلى العشاء بل إلى النوم حال انتهائنا من أداء صلاة العشاء التي لم يبق عليها سوى دقائق معدودة.

سكت إبراهيم ولم يحاول الجدال مع ابن عمه صالح، وعند حلول وقت الصلاة أدياها في مكانهما، ثم أخذ كل منهما فراش النوم من الحجرة الخشبية واتجها إلى الجهة الغربية لفرشها على الرمال بحثًا عن الجو البارد والهواء العليل، لأن النوم في الحجرة الخشبية في ذلك الوقت غير مجد ولا مريح؛ نظرًا لارتفاع درجة الحرارة.

تمدد كل من الجسمين المرهقين على الفراش الخاص به، وأخذ كل منهما يعد النجوم التي تتراقص أمام عينيه انتظارًا لأن يغمض النوم عينهما.

قبل أن يداعب النوم جفنيهما وبينما هما في حالة وسط بين النوم واليقظة سمعا طرقًا شديدًا على باب الغرفة الخشبية الذي

يقع شرقًا عن مكان نومهما! .

طارت أوائل النوم التي كادت أن تطبق على أجفانهما وأخذا ينصتان لهذا الطارق الذي أفسد عليهما لذة النوم، من يكون؟ ولماذا أتى في هذا الوقت؟ وعشرات الأسئلة التي لم يجدا لها جوابًا.

ترى هل يكون الطارق أحد زملائهما؟ لا لا لا، يمكن أن يحدث هذا لأن جميع زملائهما في الحجرات الخشبية يعلمان أنهما ينامان خارج الغرفة فلماذا إذن يأتي أحد منهم إليها طارقًا؟ ثم أن هناك اتفاقًا غير مكتوب (جنتلمان) بين جميع العمال على عدم التزاور بعد صلاة العشاء حتى لا يضطروا للسهر الذي قد يتسبب في عدم نهوضهم مبكرين فجرًا للذهاب إلى العمل، ما عدا في ليلة العطلة الأسبوعية، إذا لا بد أن يكون الطارق غير ملم بالعرف الذي يؤمن به جميع سكان الحي الخشبي، وإلا لما ذهب ليطرق باب حجرة خاوية.

ولكي يقطعا الشك باليقين نهضا واتجها إلى باب الغرفة الشرقي حيث لمحا أمام الباب شبحين لم يتحققا منهما بسبب

الظلام وعدم وجود إضاءة كهربائية، تقدم صالح وإبراهيم إلى الشبحين أكثر فأكثر حتى بدأت ملامح وجهيهما تتضح لهما، وكم كانت المفاجأة أنهما كانا ضيفين من القرية ومن أقاربهما أيضًا جاءا إليهما في هذا الوقت الضيق.

لم يسع إبراهيم وصالح إلا أن يرحبا بالضيفين ويعانقاهما في ود ومحبة ثم يصطحبانهما حيث فراش الجلوس الموجود خارج الغرفة وقريبًا من الباب الشرقي حيث جلس الضيفان على البساط واتكأ كل منهما على «مركى»، وأخذا يتبادلان مع ابني العم عبارات الود والسلام والعواطف النبيلة، عند ذلك انصرف إبراهيم وصالح إلى داخل الحجرة الخشبية لإعداد القهوة والشاي كخطوة أولى في التكريم، وحينما دخلا الغرفة سأل صالح ابن عمه إبراهيم: وكيف سيكون العشاء الذي سنعده لهما؟! ليس لدينا في هذا الليل ما يليق بهما. رد إبراهيم قائلًا: لا عليك أعد القهوة والشاي واقطع الوقت معهما بالحديث، وأنا سأذهب لأتدبر شأن العشاء مع بعض سكان حينا الخشبي.

وافق صالح على فكرة إبراهيم ومضى لشأنه لإعداد القهوة، أما إبراهيم فاختفى في ظلام الحي بين الحجرات الخشبية بحثًا عن مخرج لن يجده بسهولة لتدبير العشاء لهذين الضيفين الطارئين.

كان يجد حرجًا أن يطرق أبواب الحجرات الخشبية التي يمر بها والتي يسمع أصوات أصحابها داخلها المضاءة بسراج الكيروسين لا الكهرباء، ولم يصادف في طريقه أي ساكن من سكان الحي لكي يوقفه ويطلب منه المساعدة في مشكلة العشاء.

استمر إبراهيم في سيره على غير هدى وفي تفكيره، وفجأة هب أثير خفيف بعد أن كان الجو ساكنًا، هنا داعبت رائحة أخَّاذة أنف إبراهيم حيث حملها الأثير إليه، كانت تلك الرائحة رائحة القتار[1] يحملها النسيم من مكان قريب، لذا جعل إبراهيم رائحة القتار هاديًا له إلى المكان الذي يأتي منه.

---

(1) جاء في المعجم الوسيط: «القتار هو: دُخَانٌ ذو رائحة خاصَّة ينبعث من الطَّبيخ أو الشِّواء، أو العظم المحروق، أو البَخور».

بعد قليل وجد إبراهيم نفسه أمام هذا المطبخ الجماعي وأنه هو مصدر الرائحة. دخل إبراهيم إلى جوف المطبخ الذي كان خاليًا من أي إنسان، وإذا به يجد أمامه مجموعة من عيون الغاز مشتعلة، وكل عين تحمل على كتفها طنجرة أو (قدرا) كما تقول لهجتنا الشعبية، وهذا يعني أن إبراهيم وجد نفسه أمام عدة أكلات على وشك النضوج لم تكن تخطر على باله، وأن أصحابها وضعوها على الغاز وذهبوا إلى مكان إقامتهم لكي يعودوا عند اقتراب نضجها.

نظر إبراهيم يمينًا وشمالًا فلم ير شبح إنسان؛ لذا حضر لديه المكر والحيلة التي اشتهر بها بين أصدقائه، وسرعان ما خلع «شماغه» من فوق رأسه ووضعه واقيًا في «عروتي» أكبر القدور الموجودة، وحمله بين أيديه وخرج من المطبخ متجهًا إلى حجرته الخشبية، وقد وجد حلًا سهلًا لمشكلة العشاء التي لم يكن يدري أنها ستنتهي بتلك السهولة.

كان من حسن حظ إبراهيم أنه لم يصادفه في الطريق إلى غرفته أي إنسان لكي يكشف سره الذي ظل خافيًا على

الآخرين، حتى أذاعه بنفسه بعد زمن طويل كدليل على براعته في المكر والحيلة.

وصل إبراهيم إلى الحجرة الخشبية واتجه إليها، حيث دخلها ووضع «القدر» على الأرض، وأزاح غطاءها قليلًا ليعطي فرصة للبخار أن يخرج فتخف حرارة ما بداخل القدر.

خرج إبراهيم متجهًا إلى حيث ابن عمه صالح والضيفين الكريمين اللذين لم يلحظوا قدومه ولا ما يحمله بسبب الظلام، وجلس معهم يتبادل أطراف الحديث عن القرية وشجونها وحياتها الاجتماعية، حتى إذا مضى زمن ليس بالقليل وشعر بأن ما في القدر قد خفت حرارته ذهب إلى الحجرة، وسكب ما في جوف القدر في صحن كبير، ثم أخذ سفرة الخوص وذهب بها إلى الجالسين حيث وضعها وسطهم، ثم مضى وحمل الصحن المليء بالأكل، ووضعه بين يدي الجالسين، ودعاهم لتناول عشاءهم على اسم الله، ولم يضع على السفرة مع صحن الأكل إلا إناء ماء للشرب، لتلافي أن يصاب أحدهم بغصة.

كان الأكل منوعًا رؤوسًا ومقادم، وحواشي بطن خروف،

وكان أجمل ما فيه لذته التي زادها الجوع أضعافًا.

شمر الحاضرون عن أذرعتهم اليمنى وبدؤوا الأكل بشهية من لم يذق طعامًا طوال اليوم، ولم تحل الحرارة المنبعثة منه دون الاستمرار في الأكل بلا انقطاع في ذلك الوقت الذي كان إبراهيم وصالح وضيفهما منهمكين في الأكل، كان في الجانب الآخر من الحي الخشبي رجل يخرج من غرفته متجهًا إلى المطبخ لكي يحضر عشاءه ورفقاءه بعد أن اعتقد أنه نضج.

حينما دخل ذلك الرجل المطبخ الجماعي فوجيء بأن «قدره» غير موجود وأن عين الغاز التي كان عليها ما تزال مشتعلة، وأخذ ينظر يمينًا وشمالًا لكي يعرف أين ذهب قدره فلم يجد جوابًا، نقل نظره بين القدور فقد يكون هناك من جاء مازحًا أو جادًا وقام بالمناقلة بين القدور ولكنه لم يصل إلى نتيجة واحدة، مما جعله يعتقد أن يدًا ما قد أخذت قدره ولكن إلى أين؟! إنه لا يدري.

أصيب بخيبة أمل وخرج من المطبخ وعاملا اليأس والجوع ينهشانه ووقف عند باب المطبخ مفكرًا ومتسائلًا: «أين ذهب

القدر؟!» وكما دلت رائحة القتار إبراهيم إلى حيث يشتم رائحة القدر داخل المطبخ فوق عين غاز؛ بسبب حركة الهواء، إذا برائحة القتار مرة أخرى تطرق أنف الرجل حيث حملها النسيم الذي تغير مداره، لذا قرر هنا الرجل أن يسير متتبعًا رائحة القتار الذي يهب من مكان قد لا يكون بعيدًا، وبعد فترة مشي لا تتجاوز سبع دقائق وجد نفسه أمام جواب السؤال الذي أعياه سابقًا.

لمح داخل الغرفة «قدره» وقد انكفأ على وجهه، وعلى بعد أمتار وجد (4) رجال يتسابقون على أكل ما في الصحن، وعرف بما لا يدع مجالًا للشك بأنهم يأكلون عشاءه ولكن لم يسيء الظن بهم.

سلم الرجل على إبراهيم وصالح والضيفين حيث تمت دعوته للمشاركة في العشاء، ولكنه رمى المفاجأة التي لم يتوقعها أحد حيث خاطب الآكلين قائلًا بلهجة شعبية: «غاتي أنتم تاكلون العشا مالتي»، وسكت فلم يبدر منه ما يسيء الظن بهم، اندهش الآكلون من قول الرجل الواقف فوق رؤوسهم،

وعلقوا أيديهم مستمعين لما يقول، وأوشكت حكاية المكر والحيلة أن تنكشف للآكلين، إلا أن نباهة إبراهيم التي اشتهر بها وذكاءه وسرعة تصرفه استطاعت أن تطوق هذا الموقف المفاجيء، كان ذلك حينما قام وصفع ابن عمه صالح على خده قائلًا: ويلك كيف أرسلك لتحضر عشاءنا فتخطئ وتأخذ عشاء الرجل؟! وعندما رأى صاحب العشاء أن الموقف على وشك أن يصبح تراجيديًا أتبع قائلًا: «عفيه بالهنا والشفا عليكم، ولو كنتم ضيوفي ما عشاكم»، وأدار ظهره منصرفًا بعد أن مر على الحجرة وأخذ قدره الخالي.

استأنف الحاضرون مسيرتهم في تناول محتويات الصحن حتى أصبحت قاع الصحن قاعًا صفصفًا ليس للذر فيها مقيلًا، وعظامًا متناثرة لا يدرى أهي لعام أم لعامين.

رفع إبراهيم الصحن والسفرة واتجه بهما إلى الحجرة، أما صالح ومعه الضيفان فقد غسلوا أيديهم بالرمل النقي، وبعد ذلك وحسب العادة النجدية القائمة على «كل ونم» استأذن الضيفان من إبراهيم وصالح لكي يناما وقدما لهما الشكر على

حسن ضيافة لم يخسرا فيها قرشًا واحدًا.

آثرَ إبراهيم وصالح فراشيهما للضيفين الذين لم يمضيا وقتًا بعد التمدد عليهما إلا واستغرقا في نوم طويل.

أما صالح وإبراهيم فناما على البساط بعد أن صنع كل منهما له وسادة من رمل غطاها بجزء من البساط.

نام إبراهيم سريعًا أما صالح فأمضى وقتًا وهو ينقل عينيه من مشاهدة نجمة ثابتة إلى أخرى سائرة وتفكيره يلح عليه لماذا يصفعه إبراهيم على ذنب لم يرتكبه، ولم يغادر مقر الغرفة إطلاقًا منذ وصوله إليها بعد المغرب، وظل هذا السؤال يلح عليه ويبحث له عن جواب فلم يجده حتى غلبه النوم عند منتصف الليل.

حل موعد صلاة الفجر فاستيقظ الضيفان، ونبها إبراهيم وصالح حيث أدى الأربعة صلاة الفجر واستأذن الضيفان للمغادرة لزيارة أقرباء جدد، إلا أن صالح وإبراهيم ألحا على الضيفين للبقاء لتناول طعام الإفطار لكنهما اعتذرا، هنا قال إبراهيم: إذًا لا أقل من فنجان من القهوة وبضع تمرات حيث

استجاب الضيفان، وبعد تناول القهوة التي لم يستغرق إعدادها سوى دقائق محدودة غادر الضيفان متجهين إلى الطريق العام بانتظار سيارة قد تمر بهما وتنقلهما إلى حيث يريدان.

أما صالح وإبراهيم فلبسا ملابس العمل واتجها إلى حيث تقف حافلة الشركة التي تنقل العمال إلى مقر العمل صباحًا وتعيدهم إلى الحي الخشبي مساءً، وقد أجلا إفطارهما لضيق الوقت حتى الوصول لمقر العمل، كان صالح طوال الطريق يفكر في الصفعة ويتلمس بأصابعه آثارها على خده والسؤال يلح عليه للبحث عن جواب لما حدث فلم يصل إلى نتيجة.

كان صالح قد أكد أن ما فعله إبراهيم ليس بدافع حقد وضغينة وانتقام فهو ابن عمه وصديقه منذ الطفولة، و لم يحدث في يوم من الأيام أن وقع بينهما خلاف أو شجار ولو كانا كذلك لم يفدا من قريتهما البعيدة للعمل سويًا في هذه الشركة.

من المؤكد أن هناك سرًا خفيًا لا يعرفه إلا إبراهيم فقط

ويحتفظ به لنفسه وأنه لن يذيع ذلك السِّـر إلا في وقت لاحق، ولكن السؤال الذي يلح على صالح أنه يصرّ على إجابة سريعة لما حدث، واستمر تساؤل صالح طوال اليوم حتى عاد مع إبراهيم إلى مقر سكنهما.

بعد أن وصلا ورمى كل منهما نفسه على البساط الذي يكاد أن يندفن تحت زحف الرمال، واستراحا قليلًا، التفت صالح إلى إبراهيم متسائلًا وقائلًا: لماذا صفعتني يا إبراهيم على ذنب لم أرتكبه وأنت تعلم أنني لم أذهب إلى المطبخ ولم أحضر شيئًا بل لم أغادر مكان جلوسي مع الضيفين إلا لإعداد القهوة؟

هنا قال إبراهيم: لم يكن أمامي إلا هذا العمل لكي أتلافى مشكلة أكبر أيقظها مجيء صاحب العشاء، وقوله لنا أنكم تأكلون طعامي، وخوفًا من أن يظن الضيفان أننا نطعمهما طعامًا مسروقًا، اضطررت لصفعك مدعيًا عليك بأنك ارتكبت خطأ، فبدلًا من إحضار عشاءنا أحضرت عشاء الرجل بديلًا لكي يعتقد الضيفان أن ما حدث كان بسبب خطأ؛ جعل صاحب العشاء يتنازل عن حقه ويبارك لنا في أكل

طعامه مما أضفى على هذا الطعام صفة الإباحة.

وعليك أن تعرف يا صالح بأنه لو تسرب شك إلى الضيفين بأن ما يأكلانه طعام مختلس عن سبق وإصرار لقام كل منهما بإدخال إصبعه في حلقه وأصر على استفراغ ما أكل لأنهما لشدة تدينهما لا يقبلان أن تكون معدة كل منهما مقر طعام مسروق، ثم أضاف أن هذه الصفعة كانت تبريرًا ناجحًا للموقف الطارئ باكتشاف الرجل أن هناك من أخذ طعامه ووقوفه بنفسه على الجرم المشهود، وهذا التصرف من المؤكد يا صالح أنك لم تفكر فيه ولا فيما سيفعله الضيفان لو عرفا حقيقة ما يأكلان، فلا تلمني ولا تشك إطلاقًا في حبي لك وصداقتي معك التي لا تشوبها شائبة، وستبقى ما بقيت الشمس تشرق على الكون فأنت ابن العم والأخ الذي لم تلده أمي.

كان صالح يستمع إلى تعليل إبراهيم سبب الصفعة بلا ذنب مندهشًا ومتعجبًا من سرعة بديهة إبراهيم التي ساعدته على إنقاذ الموقف وتحويل صفة الطعام من طعام حرام إلى حلال.

هدأت نفس صالح بعد أن سمع إجابة إبراهيم وأنها تحمل تبريرًا منطقيًا لتلافي مشكلة أكبر، وهنا قال في نفسه: سامحك الله يا إبراهيم حتى لو كانت الصفعة صفعتين، ثم أردف قائلًا لإبراهيم: معك حق واستغرقا ضاحكين، ثم أشار صالح إلى إبراهيم قائلًا: «تحت السواهي دواهي».

* * *

قُفْرٌ في روما

في البداية أعترف أنني بقيت متردداً بين استعمال مصطلح «قَدِيْد» ومصطلح «قُفْر» ومعناهما شرائح اللحم الجافة، فمصطلح قديد أعم وأشمل يكاد يكون منتشرًا في جميع العالم العربي، أما مصطلح «القفر» فيكاد يكون مصطلحًا نجديًا فقط.

لكنني في الأخير رأيت أن الأفضل استعمال مصطلح «قفر» لكونه ألصق بالذاكرة الشعبية والحياة الاجتماعية.

كان ذلك في نهاية العام (1396هـ) حينما سافرت مبتعثًا للتدريس في الجزائر، وبالتحديد في الأسبوع الأخير من رمضان، حيث فوجئت عند وصولي إلى مطار الدار البيضاء قبل تسميته لاحقًا بمطار هواري بو مدين بضياع حقيبة ملابسي وأغراضي الشخصية، إلى الآن فلا أدري أين نزلت الحقيبة، هل هي في مطار طرابلس الغرب؟ أم في مطار تونس قبل وصول الطائرة إلى الجزائر؟ وهو الاحتمال الأقرب.

بعد العيد وحين فتحت المؤسسات أبوابها ومن ضمنها الخطوط السعودية في العاصمة الجزائرية عوضني مديرها (عمر أشرم) -رحمه الله- بـ: (400) دينار جزائري -تعادل آنذاك (100) دولار في السوق الرسمي و(70) دولارًا تقريبًا في السوق الموازية- عن جميع محتويات الحقيبة، وكان تعويضًا هزيلًا لا يفي باحتياجاتي الشخصية.

بالكاد اشتريت بهذا المبلغ بنطلونًا وقميصًا من النوع الرديء جدًا نظرًا لأنه لا يوجد في السوق الجزائري آنذاك أية بضاعة مستوردة بمستوى جيد؛ نظرًا للتطبيق الاشتراكي الصارم آنذاك الذي لا يسمح بالاستيراد إلا في حدود ضيقة جدًا ومن دول محددة جدًا أغلبها دول المعسكر الأوروبي الشرقي.

ومن أجل الخروج من هذا الوضع المأساوي قمت بكتابة رسالة إلى الأهل في أشيقر أطلب منهم فيها تكليف أحد الأقارب في الرياض بشراء مجموعة من الملابس (بنطلونات – قمصان – جاكيتات) وإرسالها إلي بعناية لإنقاذي من هذا

الوضع البئيس، وأتبعت الطلب بطلب آخر هو أن يرسلوا لي شيئًا من لحم الأضاحي.

بعد مضي أربعين يومًا وجدت في صندوق البريد الخاص بي في المدرسة الثانوية التي أعمل فيها إشعارًا بضرورة مراجعة دائرة الجمارك في ميناء عنابة.

ذهبت إلى الدائرة وسلَّمتُ الإشعار لأحد الموظفين الذي أبلغني بوجود إرسالية لي.

أحضر رجل الجمارك الإرسالية، وتسمى عند الجزائريين «الديوانة».

كانت عبارة عن كيسين من الخيش وكرتونًا بحجم كرتون برتقال نفرتيتي، واستلمت الكيسين بسرعة دون اتخاذ أية إجراءات إدارية سوى توقيع سند إستلام، أما بالنسبة للكرتون فإن موظف الجمارك قام بفتحه، ولما شاهد ما فيه رفع رأسه قائلًا بالعامية الجزائرية «إيش يكون؟»، ثم أردف: «إِقْدِيْد؟»، ثم أردف: «لحم شايح؟»، ثم قال: «كيفاه ما كانش في الجزاير مكلا؟» أجبت: بلى الماكلا في الجزائر باهي وممتاز، قال لي: إذًا

لماذا جاء هذا اللحم الشايح من الحجاز (لا يعرف الجزائريون آنذاك إلا الحجاز فقط دون السعودية)؛ خشيت أن يصادر رجل الجمرك هذه الإرسالية الطريفة المتميزة وأجبته: أرسلت إليّ لسببين:

الأول: أن من العادة المتبعة لدينا بأنه إذا حج أحد الأقارب لأول مرة وهي حجة الفرض وعند ذبح الفدية يقوم بإرسال جزء منها إلى الغائب من أسرته، وكان هذه المرة من نصيبي لكوني الغائب الوحيد.

الثاني: أن هذا اللحم لحم فدية، والمعروف أن الله -سبحانه وتعالى- فدى عن النبي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بذبح سمين، وأنا اسمي إسماعيل بن إبراهيم متوافقًا مع اسم النبي الذبيح واسم والده، وكان هذا سببًا قويًا أيضًا في إرسال هذه الهدية.

قال لي رجل الجمرك: إذًا هذا اللحم مغسول بماء زمزم؟، فلم أقل نعم ولا لا، بعدًا عن الكذب، ولكنني قلت كما يقول الجزائريون: «وفيل» بمعنى: يحتمل، فقال لي رجل الجمرك: إذًا

أنت من الحجاز؟ قلت: نعم. هنا طلب مني جواز السفر، وأخذ يتصفحه فلما رأى صورتي بالزي الوطني، قال لي: الآن عقلت عليك أنت من الحجاز، ثم أخذ قطعة من اللحم بحجم أنملة الأصبع ولاكها بين أسنانه ثم قال: «لحم باهي» ثم أقفل الكرتون وسلمه لي دون جمارك، وقال: هذا لحم مبارك من الحجاز «ما كانش ناخذ ديوانة» فخرجت مسرورًا من دائرة الجمرك بالكرتون والكيسين وكان بداخلهما مجموعة متميزة من الملابس.

انتشر خبر هذه الإرسالية في أوساط زملائي من الجنسيات الأخرى والذين يسميهم الجزائريون (الشرقيين) وتعرضت لسخرية ونقد شديدين خاصة من الإخوة العراقيين، ولم تجد محاولة دفاعي نفعًا خاصة فيما يتعلق باللحم الشايح، وفي عصر يوم من الأيام زارني ثلاثة من هؤلاء الإخوة في سكني الخاص، فذهبت لإعداد الشاي وقمت بتقطيع عدد من أصابع هذا اللحم (القفر) على قدر الأنملة ووضعتها في صحن ووضعته أمام الضيوف وسكبت لهم الشاي، وانتظرت.

من باب الاستكشاف مد الإخوة أيديهم للطبق وأخذ كل منهم قطعة لحم وأخذ يلوكها ولم يبتلعها، ثم امتدت أيديهم وأخذت قطعة واستمروا هكذا حتى أصبح الطبق خاليًا لا يجد الذر فيه مقيلًا، هنا ضحكت من الموقف الذي انقلب من السخرية إلى الإعجاب، وقلت لهم: لقد أحضرت التخلف وأنتم أكلتموه، فأيُّنا أشد نباهة؟ قالوا لي: سامحنا على سخريتنا فلم نعلم أن هذا اللحم لذيذ إلى هذه الدرجة، بقيت السخرية تعبر عن نفسها على ألسنة الإخوة العراقيين مرة أخرى بخصوص الملابس، لأنهم يرون أن طلبي ملابس من الوطن لا مبرر له وفي السوق الجزائري ما يكفي ويليق وذلك لأنهم لم يمروا بتجربتي بعد ضياع حقيبتي.

لم يجد دفاعي عن نفسي نفعًا، حتى جاء ذات يوم وإذا بباب السكن يطرق بعد المغرب، ولما فتحت الباب وجدت الزميلين: محمود شاكر وعوني عبد الواحد، ولما دخلا واستقرا جالسين لاحظت على وجهيهما مسحة من الحزن والكآبة، ولم أسمع منهما سخريتهما المعتادة، فسألتهما عن سبب الزيارة؟

فقالا لي: جئنا لغرض واحد، ولكننا لا نريد أن تشمت منا حين تسمع طلبنا، فقلت: طلبكما على العين والرأس، وليس من عادتي الشماتة بصديق.

هنا طلبا مني أن أعطيهما ما يتوفر لدي من الملابس الزائدة عن الحاجة التي وصلتني من الوطن، ولما سألتهما أليس عندكما ملابس؟ أجابا بأنهما هذا اليوم وهما في العمل تعرضا لسرقة كبيرة قامت بها الخادمة حيث أحضرت معها مجموعة من اللصوص، وقاموا بسرقة كل محتويات السكن من ثلاجة وغاز وتلفزيون وأجهزة تسجيل وملابس وأواني المطبخ ولم يتركوا إلا البلاط، ولم ينج من السرقة إلا غرفة زميلهما (البير) وهو عراقي مسيحي حيث أنه قد استبدل باب غرفته الخشبي بباب من الحديد القوي، وركب عليه ستة أقفال ولا يخرج من المنزل إلا بعد إقفالها جميعًا؛ لذا عجز اللصوص عن اقتحام غرفته فنجا، قلت لهما: اذهبا إلى الغرفة وافتحا خزانة الملابس وخذا ما تريدان بشرط ألا تتجاوزا ثلاثة بنطلونات ومثلها من القمصان واثنين من الجاكيتات، فلقد كان وضعهما مأساويًا إذ

لم يعودا يملكان من الملابس إلا ما عليهما فقط.

ذهب الأخوان إلى الغرفة، وبعد نصف ساعة خرجا وقد اختار كل منهما ما يعجبه، وشكرا لي ما قمت به تجاههما، واعتذرا لي عن سخريتهما من الكيسين والكرتون معًا، وطلبا مني ألا أتشمت، فقلت لهما متمثلًا قول الشاعر:

لا تهين الفقير علك أن　　　تخضع يوما والدهر قد رفعه

وقول الآخر:

لا تحقرن صغيرًا في مخاصمة　　　إن البعوضة تدمي مقلة الأسد

فهزا رأسيهما علامة الموافقة على ما قلت وخرجا شاكرين.

بدأت إجازة الشتاء للمدارس لمدة أسبوع، وكنت وزميلي سليمان قد رتبنا لزيارة صديقنا عليّ الذي يدرس في أكاديمية الفنون الجميلة في روما، وفي الموعد المحدد سافرنا بواسطة الخطوط الإيطالية وكانت المسافة بين عنابة وروما أقل من ساعتين.

استقبلنا صديقنا علي في المطار، وركبنا سيارته الفولكس

واجن الألمانية متجهين إلى مدينة روما، وفي الطريق سألنا: هل تريدان أن تسكنا فندقًا أم تسكنا بجواري؟ فقلنا: وأين تسكن؟ قال: إني أسكن في غرفة معها دورة مياه في عمارة صغيرة تملكها عجوز إيطالية ولديها عدة غرف شاغرة، قلنا: نحن بالدرجة الأولى قدمنا لزيارتك قبل روما لذا نريد أن نسكن بجوارك حتى لا تضيع وقتًا في الذهاب والإياب.

وهو ما تم حيث استأجرنا غرفة كبيرة تسع شخصين بالراحة علاوة على دورة مياه، وكانت تلك العجوز غاية في الود والأدب وسمو الأخلاق، كما أنها أبدت استعدادها لإعداد أي وجبة نريدها.

كان من حسن الحظ أن أسبوع الإجازة الذي نقضيه في روما تحول إلى أسبوع إضراب من قبل نقابات العمال وطلاب الجامعات؛ لذا لم يكن زميلنا علي يذهب إلى الجامعة إلا سويعات قليلة، أما غالب الوقت فكان بجانبنا، وقد تم استغلال ذلك الوقت أفضل استغلال في السياحة داخل روما وخارجها، حيث زرنا مقر الفاتيكان الدائري وكنيسة القديس

بطرس مقر البابا والمدرج الروماني، وتناولنا الطعام على شط نهر التيبر مرات عديدة، وزرنا نافورة الأماني حيث يلقي السواح عند زيارتها قطعًا معدنية تمشيًا مع تقليدي إيطالي وتجمع بلدية روما تلك الحصيلة من قاع النافورة وتصرفها في صيانتها، كما زرنا باب أسبانيا حيث يجتمع الهيبيز والبوهيميون من كل أنحاء العالم وقد اتخذوا ذلك المكان لإقامتهم ونومهم، كما زرنا مدينة قريبة من روما، اسمها: (بروجيا) وكان من أشد ما أعجبني فيها حبات التفاح الكبيرة حيث تزن الحبة الواحدة قرابة نصف كيلو وقمنا بشراء واحدة وأكلناها نحن الثلاثة حتى شعرنا بالشبع واكتفينا بتلك التفاحة عن وجبة الغداء.

زرنا أيضًا مدينة فلورنسا خاصة ساحة الفنانين حيث تعرفنا على فنان عراقي اسمه: حيدر الأمير، سبق وأن مارس مهنة التدريس في بريدة، وانتقل من مهد التدين إلى فلورنسا مهد العلمانية، وطلبنا من هذا الفنان أن يرسم لنا لوحة (بورتريه) وهو ما تم وما زلت محتفظًا بالصورة الخاصة بي حتى الآن منذ (46) عامًا.

أخذنا قطار الليل عبر ميلانو إلى البندقية (فينيسيا) حيث أمضينا الليل واقفين إلا من لحظات معدودة نتمكن من الجلوس على الأرض لشدة الازدحام، وقد قضتُ قراءة بعض الجرائد التي أخذتها معي في الانتصار على حالة الملل وطول الطريق، حيث وصلنا البندقية مع بشائر الصبح ولم نضيع وقتًا، حيث قمنا بجولة في أهم معالم تلك المدينة الساحرة، وأهمها: الكنيسة التي تقع قبالة محطة القطار وساحتها الواسعة المليئة بالسواح وطيور الحمام والمعروفة باسم: سان ماركو، وقمنا بجولة في شوارع المدينة المائية بواسطة قارب، وحينما بلغت الساعة الحادية عشر ظهرًا كان التعب قد نال منا فاستأجرنا غرفة في أحد الفنادق ودخلنا للنوم طيلة ثلاث ساعات لإراحة أجسادنا، عندما استيقظنا استأنفنا جولتنا خاصة في معامل الزجاج المنتشرة في جميع الشوارع، والتي رأينا من عمالها المهرة العجب العجاب في تصنيع مختلف أشكال الزجاج من فوانيس وكؤوس وأواني بشتى الألوان.

عند غروب الشمس كنا في محطة القطار للعودة إلى روما

حيث وصلنا إلى غرفتنا قبيل الفجر بقليل.

في صبيحة اليوم التالي ونحن نتناول طعام الإفطار قلنا لصديقنا علي إننا نرغب أن يكون غداءنا في مقر السكن وأن نتذوق طبخ العجوز الذي تثني عليه كثيرًا، فقال: ماذا تريدون غداءكم؟ من أنواع المعكرونة أو البيتزا الإيطالية؟ قلت: لا إنما نريد أن تطبخ لنا كبسة سعودية، فقال: وماذا تريد اللحم سمكًا أو دجاجًا؟ قلت: لا عليك، اللحم موجود لدي.

لم أكن قد أبلغت صديقي علي بأنني قد أحضرت معي له هدية قد تكون زهيدة الثمن ولكنها كبيرة المعنى في غرابتها وطرافتها في مدينة مثل روما.

كانت الهدية قليل من لحم «القفر» الذي أرسل إلي من السعودية وأكل العراقيون جزءًا منه بعد حملة سخرية وشماتة.

ما دفعني لإحضار القفر هو أنه لا يوجد في السوق الجزائري من الصناعات التقليدية ما يمكن إهداءه نظرًا للتطبيق الصارم للإشتراكية الذي حوَّل الأسواق إلى ما يقرب من منطق الفقر والعدم، لذا كان القفر خير هدية.

أحضرتُ القفر وناولته للصديق علي الذي تلقاه بكل سرور وإعجاب لطرافة الإهداء، وقام بقسمة القفر قسمين أعطى العجوز نصفه بعد أن قطعه إلى قطع صغيرة واحتفظ بالنصف الآخر.

وطبخت لنا تلك العجوز الإيطالية كبسة سعودية كدنا من جودتها أن نأكل أصابعنا منها كما يقول المثل، وزاد من لذتها قطع القفر اللذيذة التي تزري بأنواع المعكرونة الإيطالية وصديقتها البيتزا.

فعلًا لقد كانت تلك العجوز الإيطالية في طبخها لهذه الكبسة تذكرنا ببعض عجائزنا الطيبات في أشيقر.

ولعل ما أعجبني أكثر من تلك العجوز الطيبة أنها تربي لديها كلبة (لا داعي لذكر اسمها) ربما لتعوضها عدم وجود أولاد أو أحفاد لديها، ولعل أكثر ما أثار إعجابي هو طريقة تربية هذه الكلبة خاصة في تعاملها مع الغريب الذي يسكن عند تلك العجوز ولعل أبلغ صفاتها إضافة إلى هدوئها هي نظافتها، فحينما تشعر بأنها بحاجة لقضاء الحاجة فإنها تخرج من

السكن إلى زاوية مهجورة في شارع ضيق ثم تعود إلى مقر السكن بكل هدوء، فعلًا كانت كلبة نظيفة ومؤدبة كما هي صاحبتها.

انتهت الإجازة على خير، وعدتُ وصاحبي إلى عنابة، وتركنا نصف كمية القفر لدى صديقنا لا ندري ماذا سيفعل بها.

في السنة الثانية وعلى غير ما نتوقع فوجئنا بصديقنا علي يزورنا في عنابة، لقد كان في طريقه إلى روما وفضَّل النزول في تونس العاصمة لقضاء عدة أيام، ونظرًا لقرب العاصمة التونسية من مدينة عنابة (300كم) فقد قرر زيارتنا، وجاء إلى عنابة بعد غروب الشمس وهو لا يحمل عنوانًا لنا، ولا يدري أين يذهب.

في تلك الأثناء مر زميل لنا اسمه: (عبد الرحيم ديراني)، فلما رأى صديقنا علي واقفًا يحمل حقيبة أمام مقهى السلّكت، أدرك أنه غريب على المدينة لذا توقف بجواره، فجاء إليه صديقنا وسأله الأخ عبدالرحيم: أين تريد؟ فقال صديقنا علي:

أنني أبحث عن صديقين (إسماعيل وسليمان) وليس معي لهما عنوانًا، فقال له الأخ عبد الرحيم: وهل في عنابة شرقي واحد يجهل هذين الاثنين، وأركبه معه حتى أوصله إلى سكننا، وكانت فرحة اللقاء به لا تعدلها فرحة بالنسبة لنا، وفرحة وجودنا بعد يأس لا تعادها فرحة بالنسبة له.

أمضى صديقنا علي في ضيافتنا ثلاثة أو أربعة أيام أمضيناها بالتجوال به في معالم عنابة، وكنا وقتها نستعد لقضاء إجازة الشتاء لمدة أسبوع واحد في تونس القريبة، حيث رافقني مع صديقي (ناصر) -رحمه الله-، أما سليمان فقد كان قد قصد وجهة أخرى.

قضينا في تونس أسبوعًا جميلًا زاده بهاء الجو المطير والربيع الذي يغطي شمال تونس وأشجار الزيتون ودوار الشمس، وزرنا مدينة الحمامات وسوسة، وضواحي تونس: قمرت وحلق الوادي وسيدي بو سعيد وقرطاج وباردو وغيرها، مما لا يتسع المجال لذكره.

وفي طريق العودة زرنا بنزرت وباجة ومجازالباب وطبرقة،

وقبل الافتراق بيوم -حيث سيذهب صديقنا عليٌّ إلى روما ونحن إلى عنابة- سألته عن ما آل إليه بقية القفر الذي أحضرته معي العام الماضي إلى روما.

قال لي: ألم تنس؟ قلت: وهل ينسى رجل مثلي موقفًا كهذا يتسم بالطرافة والغرابة، فقال لي: لقد حدث للنصف الثاني من القفر قصة تشبه قصة النصف الأول في غرابتها وطرافتها، قلت: وهل يمكن أن تشنف أذني بسماعها لكي تختزنها ذاكرتي لتصبح حديثًا يروى في مقبل الأيام والأعوام.

قال صديقي علي: نعم. فلقد حدث أن زارني في روما صديقنا المشترَك (عبد الرحمن) حيث يقوم بجولة ذات طابع تجاري في أوروبا وجاء إلى روما خصيصًا لزيارتي، ولكونه رجلًا مقتدرًا ماليًا فضل السكن في فندق راق بدلًا من غرفة العجوز الإيطالية، وأقام في روما أسبوعًا لم نكد نفترق خلاله إلا للنوم؛ وذلك لأن روما ما زالت تعيش مرحلة الإضراب الذي لم ينته من قبل الطلاب أو نقابات العمال حيث أمضينا هذا الوقت في السياحة كما حدث معك وزميلك سليمان.

بعد مضي ثلاثة أيام قلت للصديق عبد الرحمن لقد مللنا من التردد على المطاعم للغداء والعشاء، ولذا فأنا أريد أن أغير في أسلوبنا اليومي فقال: وهل هناك مطاعم أخرى يمكن الذهاب إليها؟ قلت له: لا ولكنني أريد أن أدعوك اليوم إلى وجبة غداء سوف تسعدك وتتذكرها طوال عمرك فقال: ما هي؟ قلت: لن أقول سأجعلها لك مفاجأة سوف تسر بها.

وافق صديقنا عبد الرحمن، فذهبت وأخرجت النصف الباقي من القفر، وأعطيته للعجوز الإيطالية لإعداد الكبسة، وعند الساعة الثانية ظهرًا حضر الصديق عبد الرحمن، ولما وضعت المائدة أمامه فوجئ بأنها كبسة على قفر وهو ما لم يكن يتخيله، بدأ يأكل بشهيَّة وكأنه يأكل مأكلًا أعدته أمه أوجدَّته، وأكثر ما أثار إعجابه هو وجود القفر، فقال لي: هل ذبحت أضحية في العيد الماضي، فهذا من لحمها؟ قلت: لا، قال: إذًا من أين أتيت بهذا القفر فهو له شهية نجدية لا يكاد يشاركه أحد فيها؟ قلت: إن ذلك من أسراري الخاصة، ولن أقول لك كيف حصلت عليه ومن أحضره، هنا علق عبد الرحمن يده عن

الأكل وأخذ يفكر قليلًا وفجأة مد يده وقال لي على سبيل الجزم والتأكيد: «أقطعُ يدي إن لم يكن الأخ إسماعيل قد زارك في روما وهو من قدم لك هذا القفر كهدية»، قلت: وما يدريك؟ قال: إن غرابة هذا المشهد الذي لم أتوقعه لا يحدث إلا من مثل هذا الشخص فقط، هنا اعترفت له بحقيقة هذا القفر، وكانت ضحكة مشتركة، فظلت ذكرى هذا القفر ماثلة في الأذهان طيلة (46) عامًا.

* * *

حكاية قصيدة (1)

كان الزمن ظهر يوم خميس حيث بدأت أنا وزميلي سليمان رحلة ربيعية من عنابة في اتجاه المغرب لمدة ما يقرب من (21) يومًا.

رافقنا في جزء من الطريق حتى العاصمة الجزائرية التي تبعد عن عنابة (600 كم) زميلان أحدهما عراقي اسمه: سامي الآغا، والثاني لبناني اسمه: ميشيل، ويسمي نفسه نزارا، كان الجو ربيعيًا معتدل الحرارة ماطر بشكل مستمر، وقد فتحت أشجار الورود أزهارها في منظر جميل يخلب الألباب، كان السير في الطريق مغريًا بعدم السرعة لكي يمتع المسافر عينيه بهذا البهاء الرباني، فعن يمينه جبال خضراء، وعن يساره بحر يقرب حينًا ويبعد حينًا ويختفي حينًا، في حدود الساعة الثالثة كنا على مشارف مدينة سطيف التي تبعد عن عنابة مسافة (300كم)، وكانت منطقة هذه المدينة تختلف عما عداها حيث يجثم الجليد على صدرها عند غروب الشمس ويستمر إلى قرابة ظهر اليوم التالي حيث يبدأ في التلاشي عدا أجزاء

متفرقة لم تَنْتَبِه. بعد تجاوزنا مدينة سطيف بقليل وفي منطقة زال جليدها أوقفنا سيارتنا (فيات 128) صفراء اللون لكي نريح أقدامنا من محنة الجلوس ثلاث ساعات متواصلة.

كانت السماء تمطر مطرًا خفيفًا والريح متوسطة السرعة، وحينما أوقفنا السيارة اتجه كل منا في طريق، وقد ابتعدت أنا عن السيارة قرابة ثلاثمائة متر ولكنني أمام اشتداد المطر والريح اضطررت للعودة إلى السيارة حيث عاد أيضًا جميع رفاقي، استأنفنا رحلتنا حتى وصلنا حي ابن عكنون في العاصمة الجزائرية في تمام الساعة السابعة.

نزل صديقانا سامي وميشيل لأن هذا الحي هو نهاية الرحلة بالنسبة لهما، أما أنا وزميلي سليمان فقد واصلنا رحلتنا غربًا إلى مدينة البليدة (40كم) من العاصمة، واتجهنا فور وصولنا إلى منزل زميلنا عبد العزيز الذي يعمل مدرسًا في المعهد الإسلامي في البليدة لنمضي الليل عنده ونتناول عشاءنا ونواصل رحلتنا صباحًا.

في مجلس زميلنا عبد العزيز جلسنا نحتسي الشاي

ونتحدث في مواضيع شتى، ولكننا لاحظنا أن صديقنا يقوم بين آونة وأخرى إلى داخل المنزل ليعود إلينا بعد عشر أو عشرين دقيقة، سألنا زميلنا عن سر تكرار قيامه فأجابنا أنه يجهز حقائبه للسفر غدًا صباحًا برفقة عائلته إلى تونس حيث اتفق مع زميلنا إبراهيم في عنابة على السفر معًا.

هنا قلنا له: طالما أنك ستمر بمدينة عنابة فهذه مفاتيح منزلنا خذها معك فقد تحتاج إليها، لكنه في البداية رفض لأنه سيصل عنابة ظهرًا ولن ينتظر سوى وقت قليل ليجهز رفيقه إبراهيم شؤون رحلته مع عائلته.

قلنا: ولكنك في طريق العودة قد تصل ليلًا وتضطر للمبيت في عنابة، وسكن الأخ إبراهيم أقل من أن يكون قادرًا على احتواء عائلتين في وقت واحد.

قال لنا: وكيف أعيد المفاتيح إليكم؟ قلنا في طريق عودتنا من المغرب سنمر عليك ونتناول الغداء معك ونستلم مفاتيحنا، وإن سارت الأمور بغير ما رسمنا فلدينا احتياطي من المفاتيح عند جارنا الفلسطيني (أبي فلاح).

اقتنع صديقنا عبد العزيز، واستلم المفاتيح ثم أحضر العشاء على الطريقة الجزائرية المؤلف من دقيق الكسكوس باللحم والخضار، وبعد الانتهاء عدنا لشرب الشاي وتجاذب أطراف الحديث حول وجهتي سفرنا (تونس والمغرب)، وفي تمام الساعة الحادية عشرة خلدنا إلى النوم.

في الساعة السابعة صباحًا تناولنا إفطارنا، ثم «اتجه كل منا في طريق» -كما يقول الشاعر والطبيب: إبراهيم ناجي-، زميلنا عبد العزيز اتجه شرقًا إلى تونس، وأنا وزميلي سليمان غربًا إلى المغرب.

تجاوزنا في طريقنا مدينة الشلف المسماة قبلًا بالأصنام وكذلك سيق وغليزان ثم وهران ووصلنا إلى منطقة الحدود المغربية الجزائرية في حدود الساعة الثانية عشرة، كانت الحدود من جهة الجزائر تقع بعد مدينة «مغنية» ومن جهة المغرب قبل مدينة «وجدة»[1].

(1) هذه الحدود تعرف باسم: «زوز بغال» أي: زوج إبغال، (بنطق الجيم زاي)
=

لم نستغرق وقتًا طويلًا في الخروج من الجزائر ودخول المغرب حيث لم تبلغ الساعة الواحدة ظهرًا إلا ونحن في وسط مدينة وجدة نتناول غداءنا.

واصلنا رحلتنا في مدن المغرب الجميلة، زرنا وجدة وتازا ومكناس وفاس وأزور وصفرو والقنيطرة والرباط والمحمدية وطنجة، وسافرنا بالطائرة التي يسميها المغاربة (أم أحمد) إلى جبل طارق؛ لأن زميلًا ثالثًا كان بحاجة إلى شراء سيارة، وعندما عدنا إلى المغرب أمضينا ما بقي من أيام الرحلة وهي قليلة في الدار البيضاء وبالتحديد في فندق اسمه: (جان جوريس)، وعندما حزمنا حقائبنا ووضعناها في السيارة واستعدادًا للسفر التقينا بزميلين سعوديين عند باب الفندق أحدهما اسمه: (سليم)، وكنا نعرفه في الرياض حيث اشترك معنا في لجان امتحان الشهادة الابتدائية عام (1395هـ) أما

= وحسب الرواية الشعبية: أنه من أجل تحديد منطقة الحدود بين المغرب والجزائر سير بغلان، واحد من وجدة والثاني من مغنية فالتقيا في هذا المكان حيث أقيمت الحدود فسميت بهذا الاسم.

الثاني فهو: (سلامة)، لا نعرفه ولكننا نسمع عنه وأنه كان أحد أعضاء البعثة السعودية في الجزائر.

أصر هذان الزميلان على تأجيل رحلتنا ثلاثة أيام، وأنزلا حقائبنا دون رغبة منا خاصة وأنهما يسكنان في نفس الفندق.

بعد أن أمضينا خمسة أيام متأخرين عن موعد عودتنا، بدأنا رحلة السفر، حيث توقفنا في فاس لنستأنف الرحلة صباح اليوم التالي، ولم نتوقف إلا في الحدود الجزائرية، عندها تعرضنا لبعض العراقيل من رجال الجمرك أخرتنا عن مواصلة الرحلة لخمس ساعات تقريبًا وحين سمحوا لنا بالدخول كان الوقت متأخرًا؛ مما أجبرنا على المبيت في مدينة وهران.

قبل بزوغ الشمس استأنفنا رحلتنا شرقًا إلى مدينة البليدة حيث وجدنا زميلنا عبد العزيز قد عاد من رحلة تونس، كان هدفنا من المرور عليه استعادة مفاتيح منزلنا وتناول غداءً مبكرًا ومواصلة الرحلة.

دخلنا إلى مجلس الأخ عبد العزيز، وكان يجلس فيه زميل تعرفنا عليه اسمه: عبد الرحمن، ويعمل في مدينة وهران ضمن

أعضاء البعثة التعليمية السعودية، وقد انتهت مدة بعثته ولكنه تمكن من العودة مرة أخرى بعد مضي سنة.

بانتظار الغداء وعلى قعقعة كؤوس الشاي أخذنا نتبادل الأحاديث بيننا عن أهم المواقف التي مرت بنا في رحلة المغرب وزميلنا عبد العزيز في رحلة تونس.

فجأة قال لنا الأخ عبد العزيز (وهذا هو بيت القصيد من الحكاية كلها) أنه حدث له موقف غريب جدًا.

طلبنا منه أن يحكي لنا عن هذا الموقف الغريب فقال: إنه وهو متجه إلى عنابة في طريقه إلى تونس اضطر قرب وصوله إلى مدينة سطيف للتوقف للراحة، ونزل أفراد العائلة واتجه كل إلى ناحية وكان الجو ممطرًا والريح بين خفيفة ومتوسطة، وفي طريق العودة للسيارة لمواصلة رحلة السفر شرقًا يقول فوجئت بإحدى بناتي تحمل في يديها ورقة مبللة بالماء تقول أنها وجدتها لاصقة بسبب الريح في جذع شجرة طلح، فأخذتُها منها ونشَّفتُها مما علق بها من قطرات المطر وكم كان الحظ جيدًا إذ أن ما هو مكتوب عليها لم يتأثر بالمطر لأنه مكتوب بالحبر

الناشف.

قلت للأخ عبد العزيز: وماذا تحمل سطورها؟ قال: إن الغريب أنها تحمل قصيدة نبطية مشابهة تمامًا لشعرنا الشعبي في نجد. هنا قلت: ومن قائلها؟ قال: لا يوجد اسم قائلها على الورقة، ولكن يقول في أحد أبياتها: «يا محيسن» قلت: ومن محيسن هذا؟ قال: لا أدري، قلت: وكيف تفسر وجودها في هذه الشجرة وفي هذا المكان والجو الممطر؟ قال: لا أدري ولكنني أعتقد أن هذه القصيدة قد قالها أحد البدو الذين يرافقون بعض الأمراء في رحلات القنص في الجزائر وأنه يوجه القصيدة إلى زميلنا في العاصمة الجزائرية (عبد المحسن)، قلت: وكيف يكون ذلك؟ وكيف للأخ عبد المحسن أن يعرف بدويًا جاء في رحلة قنص في البرية؟

إلى هنا توقفت عن طرح الأسئلة، وعادت بي الذكرى مفكرًا فيما كنت أكتبه من شعر وقلت لماذا لا تكون القصيدة من قولي؟ ولكنني استبعدت هذا الطرح، إذ من الصعب معرفة كيف علقت هذه القصيدة في هذه الشجرة البعيدة عن

مدينة عنابة.

عدت لسؤال الأخ عبد العزيز وقلت: وأين وجدتَها بالضبط؟ قال: وجدتها في مكان قبيل وصولي إلى سطيف، وكنت قريبًا من إحدى القرى التي مررت بها في طريقي إلى تونس.

هنا أدركت أن المكان الذي توقف فيه الأخ عبد العزيز في طريقه شرقًا هو المكان الذي توقفنا فيه أنا وزميلي سليمان في ذهابنا غربًا، واسمه: قرية «البشير».

هنا راودني إحساس، لماذا لا تكون القصيدة لي؟ ولكنني استبعدت هذا الإحساس لأنني لا أتذكر أنه قد سقط من جيبي شيء حينما ذهبت للتنزه بعيدًا عن السيارة، ثم سألت نفسي: ولماذا لا تكون تلك الورقة قد سقطت مني وأنا لا أشعر لقوة الريح والمطر؟ ولكنني للمرة الثانية استبعدت هذا التساؤل لأنني غير متأكد من أنني كنت أحمل أوراقًا في جيبي أثناء السفر.

ثم راودني إحساس ثالث وهو: لماذا لا تكون القصيدة في

جيب صديقي سليمان وأنه أخذها قبل بدء الرحلة من مقر سكننا؟ ولكنني أيضًا استبعدت هذا الإحساس لأن الأخ سليمان قال أنه لا يتذكر أنه أخذ شيئًا، كما أنه لا يتذكر أنه قد سقط منه عند نزوله من السيارة شيء.

لكنني رغم غرابة الموقف وندرة استحالته وعدم تصديقه، قلت: لماذا لا أقطع الشك باليقين؟

لذا قلت للأخ عبد العزيز: أرني القصيدة فرفض رفضًا تامًا، قلت: إذًا أعلمني هل هي مكتوبة بخط أحمر حينًا وأزرق حينًا؟ فذهب واطلع عليها في داخل البيت ثم جاء، وقال: نعم. هنا سألته وهل هي مكتوبة على ورق حجازي مسطر (نسميه في نجد فَرْخ)؟ ذهب مرة أخرى وعاد وقال: نعم. قلت له: وهل ينتهي الشطر الأول من أبيات القصيدة بحرف (القاف) والسطر الثاني بحرفي (اللام والهاء)؟ فذهب وتأكد وعندما عاد قال: نعم. هنا ضحكت وقلت: القصيدة ليست لبدوي وإنما هي لي و«محيسن» المقصود والموجهة إليه هو الأخ: عبد المحسن الموسى في أشيقر. قال: وكيف وقعت منك في هذا

المكان الذي توقفت أنا فيه وكيف لم تمزقها الريح والمطر؟ قلت: لا أدري فما حدث فوق تصوري، ولكن لكي تتأكد أنها قصيدتي أعطها للأخ عبد الرحمن وليختبرني بإلقاء الشطر الأول من البيت ثم يطلب مني إكماله، ثم يلقي الشطر الثاني ويطلب مني تكملة البيت بقراءة الشطر الأول.

وافق الأخ عبد العزيز وأحضر القصيدة وأعطاها للأخ عبدالرحمن الذي قام باختباري بتكملة الأبيات ويتنقل من الأول للرابع ومن التاسع للخامس لتعجيزي ولكنه لم يحقق مراده؛ لأنني كنت في ذلك الوقت أحفظ القصيدة كاملة حفظًا جيدًا.

هنا لم يسع الأخ عبد الرحمن إلا الإقرار بنجاحي في الامتحان وأن القصيدة ملكي ومن قولي وأعادها للأخ عبدالعزيز الذي سمح لي بالاطلاع على الورقة والتي كانت فعلًا قصيدتي وبخطي وكانت هي المسودة قبل إعادة كتابتها وإرسالها للأخ عبد المحسن الموسى.

استعاد الأخ عبد العزيز الورقة مني وحينما حاولت معه أن

يعطيني إياها لارتباطها بموقف طريف غريب نادر، رفض وأبقى القصيدة عنده بعد أن تعهد لي بالمحافظة عليها.

ومضت سنتان بعد ذلك وأنا أحاول مع أخي عبد العزيز بأن يسلمني القصيدة ولكنه رفض حتى جاء العام الأخير من بعثته وقبل شهرين من عودته للمملكة وافق على تسليمها إلي حيث انطلقت قواربها إلى أحد محلات التجليد وقمت بتغليفها تغليف بلاستيكيًا وعدت بها إلى السعودية وما زالت محفوظة عندي إلى الآن.

حقًا إنها لقصة غريبة وطريفة ونادرة وشبه مستحيلة، ولكنها وقعت فكانت جديرة بالتدوين مذكرًا أنني في كل عام ألتقي بالأخ عبد العزيز أسأله عن حكاية القصيدة ولعله أخذها من ابنته في رحلة العودة من تونس لأنه اضطر للمبيت في سكننا ليلة واحدة، ولكنه طيلة الأيام لم يتراجع عن روايته بأنه وجدها وهو في طريق الذهاب قبل الوصول إلى عنابة بـ(300كم)، كما أنه حينما بات في سكننا لم يدخل غرفة من غرفنا ولكنه نام وأولاده في صالة المنزل بسبب واحد وهو أن

الغرف مغلقة ولم تكن مفاتيحها معه.

كما أن مما يؤكد صحة وجودها في هذا المكان في رحلة الذهاب هو لو ابنة الأخ عبدالعزيز قد أخذتها من الشقة فكيف إذًا أن تختار ولاية سطيف مكانا لوجودها، وأن يذكر أنها مبللة بالمطر[1].

* * *

(1) انظر صورة القصيدة: ملحق رقم 3، و صورة طلب تصويرها: ملحق رقم 4.

حكاية قصيدة (2)

يا راقدًا في ثَرَى أَغْمَاتَ سَاجِعَةً
ذكراهُ في نَبَضَاتِ القلبِ عُصفُورَا
كم كنتُ أرغبُ لو زَارَتْكَ أُغْنِيَتِي
وأنتَ تَغْرَقُ بين الوَرْدِ مَسْرُورَا

هذا مطلع قصيدة نظمتُها في ذكرى ملك أشبيلية المعتمد بن عباد الذي كان من أشهر ملوك الطوائف، وقام بطل المرابطين يوسف بن تاشفين بالقضاء على حكمه مع بقية ملوك الطوائف في الأندلس، واعتقله ونقله معه، وفرض عليه الإقامة الجبرية في أغمات (أول عاصمة للمرابطين) مع زوجته الشهيرة: اعتماد الرميكية، وابنها ،وحين توفي المعتمد بن عباد وزوجه وابنه أقيم لهم ضريح بسيط ليس له أي اعتبار ديني، وإنما تخليدًا له كملك له مكانة سياسية في الأندلس ومكانة أدبية، حيث كان ينظر إليه إلى أنه ملك السياسة والشعر.

كما ضمت جبال أوريكا التي تبعد عن أغمات (35كم)

وعن مراكش (60كم) رفات زوجته الثانية والتي يسميها المغاربة (ستي فاطمة).

كانت حكاية المعتمد بن عباد مشهورة مع زوجه فاطمة، وهناك من يرويها على أنها مع اعتماد الرميكية حينما أطلت من شرفة القصر في أشبيلية ورأت البنات القرويات يخضن في شوارع أشبيلية بأقدامهن العارية في مياه الأمطار ويطأن في الطين، فتمنت لو كانت تخوض معهن بدلًا من سجنها في ذلك القصر، فما كان من المعتمد إلا أن أمر بأن يعجن المسك في ماء الكافور على هيئة الطين ويفرش به أحد أروقة القصر في محاكاة شوارع أشبيلية، وطلب من اعتماد أن تخوض فيه تحقيقًا لرغبتها، وعندما حدثت بينه وبينها مشاجرة خفيفة، قالت له: والله ما رأيت منك خيرًا قط، فقال لها منكرًا: ولا يوم الطين!، فخجلت وسكتت.

وحكايته مع اعتماد عندما كانت جارية ولم تكن ملكة وكانت واقفة خلفه وهو جالس يمتع نظره بمياه بركة القصر حينما هبت الريح فاضطرب ماء البركة وشكلت منه الريح

دوائر كبرى وصغرى، فقال المعتمد:

نَسَجَ الرِّيحُ مِنَ المَاءِ زَرَدْ

وعجز عن إكمال البيت.

فقالت اعتماد:

أَيُّ دِرْعٍ لِقِتَالٍ لَوْ جَمَدْ!

أعجب المعتمد بقولها وتزوجها وأصبحت سيدة القصر ورافقته في رحلة الحياة حلوها ومرها حتى ماتت معه في أغمات.

في إحدى زياراتي المتكررة للمغرب زرت بلدة أغمات، وكانت قرية ذات مبان طينية بعضها متهدم وبها أثار من عصرها الزاهي القديم حين كانت عاصمة المرابطين، تحيطها البساتين العامرة بأشجار الزيتون والسفرجل والتفاح، ويقع قريبًا منها جبل أوريكا المعممة قمته بالثلج ويخترقه أحد الأودية المليء بأشجار السفرجل والتفاح، وتنسكب فيه الشلالات المنحدرة من الجبل، وتمتلىء ضفته بالسواح من

أهالي المغرب والأجانب خاصة يوم الأحد.

رغم أن أغمات قرية إلا أنها متكاملة الخدمات ففيها مطاعم شعبية ومقاهي ومحلات خياطة ومحطة للحافلات وسواها من الخدمات، ولكن أشهر ما تضمه بين جنباتها هو ضريح المعتمد ابن عباد الذي أكسبها شهرة عالمية.

حينما زرت أغمات كانت للتو تلملم بقايا الحفل التاريخي الذي أقيم بمناسبة مرور ألف عام على تأسيسها.

زرت الضريح الذي تم إنشاؤه عام (1970م)، ويقع بين بساتين الفواكه والزيتون، ويبعد قليلًا عن مركز القرية. كان هناك محافظ الضريح والذي يقوم بفتح أبوابه الساعة التاسعة إلى غروب الشمس، اسمه: (عبد الكريم آيت الزوايت) وهو رجل طيب القلب لطيف المعشر يرحب بالزوار القادمين لزيارة الضريح من كل مكان.

جلست مع عبد الكريم ما لا يقل عن ساعة من الزمن بعد أن انتهيت من زيارة الضريح، كان أغلب حديثنا عن رؤية زوار الضريح للمعتمد بن عباد كملك وشاعر.

غادرت أغمات إلى مراكش مع وعد مني بالعودة مرة أخرى لزيارة الضريح حيث أمضيت فيها ما يقرب من خمسة أيام، زرت فيها آثارها وأماكنها التاريخية، مثل: قبور السعديين وضريح يوسف بن تاشفين ومسجده وجامع الكتيبة، وفنادق القرية القديمة التي تم إحياؤها وتعرف باسم «الرياض»، وبركة المنارة الشهيرة وأهم حدائق مراكش الجميلة التي تضم بين جنباتها رفات بعض الأدباء الأوروبيين، كما زرت أهم معلم تاريخي وسياحي وهو ساحة جامع الفناء التي صنفتها منظمة اليونسكو كأثر من أهم الآثار العالمية، وحينما فكرت الحكومة المغربية إزالتها جوبهت بمعارضة شديدة محلية وعالمية تراجعت بسببها الحكومة المغربية عن إزالتها.

تضم ساحة جامع الفناء بين جنباتها مختلف الثقافات الشعبية، من فرق شعبية (القناوية) ومرقصي القرود والأفاعي وقارئي الكف والتنجيم ومرتلي القرآن وعازفي الربابة وناقشات الحناء وباعة بعض الطعام، والألعاب البهلوانية، والمطاعم الشعبية في الهواء الطلق التي تبيع مختلف

الأكلات الشعبية المغربية من الكوسكوس الأكلة المغربية الشهيرة إلى المشاوي والحريرة وقواقع البحر، وكذلك المطاعم التقليدية الفخمة حيث حول الفرنسيون البيوت التقليدية الشهيرة في القرية القديمة إلى مطاعم سياحية على النمط التقليدي ذات شهرة عالية، مثل: مطعم البركة والدور ومطعم الفاسية وغيرها، وأهم ذلك اللون الأحمر الذي يكاد يشمل جميع مباني المدينة، وأنهيت جولتي في مراكش، واتجهت إلى مدينة آسفي على مسافة (170كم)، وهي مدينة تشتهر بصناعة الجلود والخزف والصيد البحري.

آسفي مدينة أنيقة تشتهر بما يسمى: القلعة البرتغالية، التي استطاع المغاربة فيها إغراق البرتغاليين في يد روم القلعة مما دعاهم إلى الهرب منها.

أقمت في البداية في فندق سفير المطل على البحر، كما سكنت في فندق أطلانتيك المجاور له، ونظرًا لقربهما من مركز المدينة لم يكن الأمر يحتاج إلى تاكسي، بل كنت أذهب وأعود مشيًا على الأقدام حيث الجو المعتدل والهواء الرقراق ورذاذ

المطر الذي ما أن يتوقف حتى يعود.

خرجت من فندق سفير كعادتي في تغيير السكن بين آونة وأخرى وسكنت في فندق في وسط المدينة حيث المقاهي والمطاعم والأسواق التجارية، اسمه على ما أعتقد: (آسيف).

خرجت ذات عصر من الفندق للقيام بجولة على الأقدام قادتني إلى أهم أثر تراثي والذي أشرت إليه سابقًا (القلعة البرتغالية)، ثم واصلت طريقي إلى الشاطيء حيث قادتني قدماي إلى مقهى أنيق رائع يغسل قدميه بمياه البحر الصافية، اخترت مكانًا هادئًا أمتع نظري بأمواج البحر الخفيفة والسحب البيضاء التي تغطي هام السماء فتختفي أشعة الشمس ويهطل المطر.

طلبت بعض المشروبات، وأمضيت وقتي في التفكير في رحلتي إلى مراكش وزيارة معالمها حتى توهمت أنني في مراكش ولست في آسفي، إلا أن زيارة أغمات كانت أكثر حضورًا في ذهني لما تحمله نفسي من تقدير للمعتمد بن عباد ملك الكرسي والقلم.

وجدت أنني أسائل نفسي: لماذا لم أكتب شيئًا تخليدًا لذكرى هذه الزيارة التي قلَّ أن يقوم بها سائح عربي؛ لأن المعتمد يستحق الكتابة عنه، ولكي تخرج زيارتي له من الفضاء العادي إلى فضاء الأدب والثقافة. وهنا اتخذت قراري بتسجيل تلك الزيارة في قصيدة تخلد قصيدة المعتمد الشهيرة.

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا

فساءك العيد في أغمات مأسورا

وهكذا سرحت بخيالي أستعرضُ حياة المعتمد السياسية والأدبية وبدأت في نظم القصيدة على ما تيسر لي من قصاصات أوراق أحشو بها جيب القميص حيث أمضيت ما يقرب من ساعة غبت فيها عن آسفي وبحرها ورحلت عبر الخيال إلى أشبيلية وأغمات، ولم أفق من خيالي إلا مع غروب الشمس، حيث ذهبت للفندق وخيط الذكريات لم ينقطع بل إنه يزداد إلحاحًا على ذهني، وقمت بتسجيل ما كتبته ونقله من القصاصات إلى ورق جديد.

واستمر هذا الهاجس والرحيل عبر الخيال إلى أغمات حتى

وأنا أتناول طعام العشاء وكلما ظفرت ببيت أقوم بتدوينه فورًا، واستمر هذا الهاجس يلح علي حتى منتصف الليل حتى أنني تساءلت صباحًا كيف استطاع النوم أن يداعب عيني.

في الصباح حضر الهاجس من جديد واستمر معي في إفطاري وفي جولتي عبر أزقة وأحياء آسفي، حتى إذا حان وقت العصر أخذت طريقي إلى هذا المقهى الذي شهد بداية الكلمة لكي يكون له شرف نهاية الحكاية.

ولأن المقهى يتمتع بجو رومانسي ساعد عليه براعة مهندس الديكور خُيِّل إليّ أن شياطين الشعر جعلت هذا المقهى موعدًا لها مع الشعراء بدليل أنني تمكنت من إكمال القصيدة التي تبلغ (25) بيتًا داخل رواقه، وقمت بسكب أبياتها على ورق جديد.

خرجت من المقهى بحثًا عن مركز اتصالات لكي أقوم بإرسال القصيدة بعد تمامها إلى صديق في الرياض، وكم كانت المفاجأة عندما وجدت مركز اتصالات ملاصق للفندق ويسميه الأخوة المغاربة: «مخدع».

طلبت من الموظف الموجود في المركز إرسال القصيدة كرسالة بالناسوخ إلى الرياض، لكنه اعتذر أن مفتاح الجهاز مع مالك المركز، وأنه ليس موجودًا وربما يحضر خلال ساعة عند ذلك تركت نسخة القصيدة عنده وكتبت رقم المرسل إليه في أعلاها، وطلبت من الموظف إعطاءها لمالك المركز وسأعود بعد ساعة لتسديد تكاليف الإرسال، وخرجت لإمضاء الوقت في جولة بين أزقة وأحياء المدينة العتيقة التي تزداد جمالًا في عيني كلما أوغلت فيها. عدت بعد ساعة إلى مركز أو مخدع الاتصالات لأجد مالك المركز في انتظاري، وبعد السلام، سألته: إن كان قد أرسل القصيدة؟ فأجابني: أنه لن يفعل إلا بشرط فقلت له: إنني موافق دون أن أعلم ما هو، فقال: أن احتفظ بنسخة من القصيدة فلم أمانع، وقام بإرسالها.

كان مالك المركز صحفي مغربي في جريدة الميثاق اسمه: سعد جلال، انعقدت بسبب هذه القصيدة صحبة معه مدة وجودي في آسفي حيث نمضي الوقت معًا من العصر حتى ساعة النوم واستمرت هذه العلاقة لعدة سنوات، وقد وعدني هذا الصحفي

بأنه سوف ينشر هذه القصيدة في جريدة الميثاق كما طلب مني قصيدة عن مدينة آسفي قام بنشرها في الجريدة.

عدت إلى الرياض وقمت بطباعة القصيدة على هيئة لوحة كبيرة مقاس (120سم × 60سم) وعلقتها على جدار مدخل البيت، وبعد أربع سنوات تقريبًا عدت إلى المغرب في جولة سياحية بدأت من مدينة العيون في الصحراء فطانطان فأغادير فالصويرة حتى وصلت إلى مراكش هذه المدينة العجيبة الغريبة التي تجمع المتناقضات والتي تزداد جمالًا ورهبة في نظري مع الأيام. في هذه المدينة الحمراء عادت بي الذكرى إلى أغمات والمعتمد بن عباد، وصديقي محافظ الضريح (عبدالكريم آيت الزايت) فقررت زيارته، ووصلت إلى أغمات ذات صباح، واتجهت فورًا إلى الضريح لأجد صديقي عبد الكريم على كرسيه الذي كان عليه عند زيارتي الأولى وكأنه لم يفارقه منذ ذلك اليوم.

بعد السلام، جلست إلى جواره وسألته ألم تتقاعد؟ فقال: بلى، ولكنني مع ذلك مستمر في عملي محافظًا للضريح

بالمجان؛ لأنني لا يمكن أن أنسى أنني قضيت في هذا المكان الخالد أكثر من ثلاثين عامًا. قلت: ولكن يجب أن تستريح، فقال: إن راحتي الحقيقية هي في مداومتي بحراسة الضريح حيث تكون الفرصة مهيأة أمامي للالتقاء بمختلف جنسيات البشر الذين يزورون الضريح واكتساب ثقافة منوعة بسبب الاستمرار في المداومة في فتح الضريح. ثم قال: انظر في الجهة المقابلة، فهناك بيتي وعندي القدرة على مراقبة الضريح وأنا في منزلي، فإلى أين أذهب وبيوت القرية وأسواقها بعيدة عني نسبيًا كما أنها ستفقدني لذة الاتصال بالغرباء والسواح.

سألت عن السواح العرب فأبدى تذمره من قلتهم وضعف ثقافتهم وأن هناك من يزور المعتمد وهو لا يدري من هو.

أبلغته بأنني بعد زيارتي الأولى قد نظمت قصيدة في المعتمد ابن عباد تتحدث عن تاريخه ومأساته، فقال: أين هي؟ للأسف لم يكن معي نسخة منها ولكنني وعدته بإرسالها أو إحضارها إن يسر الله لي الأمر في زيارة أخرى، وقد وعدني الأخ عبدالكريم بأن يعلقها في مدخل الضريح لأنه حسب معرفته

أول قصيدة يتواصل معها من سائح عربي.

ودعت الأخ عبد الكريم بعد أن قمت بجولة في الضريح وأخذت صورًا للمراقد الثلاثة للمعتمد وزوجته اعتماد الرميكية وابنه الصغير.

وواصلت رحلتي في المغرب إلى جهات أخرى من هذا البلد الطيب، وبعد عودتي إلى الرياض كان أول عمل قمت به هو إحضار نسخة من القصيدة وعملت لها بروازًا خشبيًا، وبعثها إلى صديقي عبد الكريم بواسطة البريد الممتاز، ومضت بعد ذلك عدة شهور ولم يصلني خبر عن القصيدة فغلب علي الظن أن البريد أضاعها كما أضاع إرساليات أخرى من قبل.

كانت المفاجأة حينما وصلتني رسالة عبر (الواتساب) من الأخ سعد المهنا قام بتحويلها إلي، كانت هذه الرسالة هي صورة لقصيدتي (منفي أغمات) التي أشرت إليها آنفًا وصلته من الدكتور إبراهيم بن عبدالرحمن التركي (رئيس تحرير صحيفة الجزيرة الثقافية) الذي كان في زيارة لمراكش لحضور ندوة عن الشيخ محمد العبودي، واستغل الفرصة فقام بزيارة

أغمات وضريح المعتمد بن عباد حيث فوجئ بالقصيدة معلقة على جدار الضريح، فقام بالتقاط صورة لها وبعثها للأخ سعد المهنا الذي قام بإرسالها إلي.

وما زالت القصيدة -ولله الحمد- معلقة في جدار الضريح، وقد أصبحت في نفسي ذكرى جميلة، أُهدِيها إلى المعتمد بن عباد حتى بعد مماته بألف سنة. هذا الملك الذي وإن ترجل عن كرسي الحكم فإنه بقي ممسكًا بكرسي الثقافة والشعر.

وقد قمت مؤخرًا بإجراء تعديل بسيط على النص في نسخة القصيدة الأولى بسبب تعدد الروايات التاريخية عن المعتمد بن عباد، وأخذت بأقربها إلى قلبي الذي اطمأنت إليه النفس، وقمت بطباعتها على هيئة رسالة إلى ملك أشبيلية المعتمد بن عباد، عنوانها: «منفي أغمات» علقتها في مدخل المنزل.[1]

❋ ❋ ❋

---

(1) انظر القصيدة: ملحق رقم 5 .

من عَنَّابَة إلى أشَيْقِر (1)

عنابـة مدينـة جزائريـة تقـع في شرق الجزائـر وتبعـد مـن العاصـمة الجزائريـة قرابـة (600كـم)، وعـن الحـدود التونسـية قرابـة (90كـم) تقريبًـا، وتعـد المينـاء الثالـث في الجزائـر بعـد العاصمة ووهران، وتسمى: (عروس الشرق الجزائري).

وأُشَيْقِر قرية في إقليم نجد، تقـع شـمال مدينـة الريـاض عـلى مسـافة (200كـم) تقريبًـا، وشـمالي شـقراء بمسـافة (16كـم) تقريبًا، واشتهرت قديمًا بكثرة علمائها.

بدأت علاقتي بـالجزائر حينما انتـدبت للعمـل مدرسًـا للغـة العربية ضمن البعثة التعليمية السـعودية في الجزائـر، كـان ذلـك في شهر رمضان المبارك عـام (1396هـ)، حيـث أمضـيت فيهـا (4) سنوات معلمًا للغة العربيـة والأدب العـربي كلهـا كانـت في مدينـة عنابـة عـدا (21) يومًـا في بدايـة المهمـة كانـت في مدينـة (قسنطينة) وبالتحديد ثانوية عبد الحميد ابن باديس.

كثيرة هي المواقف والحكايات المختلفة التي مرت بي خـلال

السنوات الأربع، هناك مما يحتاج للكتابة عنها إلى مئات الصفحات، لكنني اخترت جانبًا من هذه الحكايات للكتابة عنه لاعتقادي بأنّ ذلك الجانب هو أهم ما في هذه الحكايات والمواقف طوال السنين الأربع؛ ولأن هذا الجانب من الحكاية لم يمر به مبتعث واحد للتدريس في الجزائر سواي، مما جعله يلح علي في الكتابة عنه وتدوينه لأهميته وخوفًا من ضياعه كما ضاع تاريخنا الشفوي، وذلك يتمثل في رحلتي بالسيارة من مدينة عنابة في الجزائر إلى أشيقر في إقليم الوشم في نهاية عام: (1400هـ/ 1980م).

بدأ التفكير في الرحلة عندما استلمت قرار إنهاء الإيفاد لإكمالي (4) سنوات، كان ذلك في (3/ 4/ 1400هـ) وللأسف الشديد أن تاريخ انتهاء البعثة كان قبل انتهاء العام الدراسي في الجزائر بنحو شهر، حيث أوقف بدل التمثيل الدبلوماسي وبدل العلاج، وأصبحنا نعمل بالراتب فقط.

المهم بدأت التفكير في العودة إلى موطني، ولكنني قدَّرت أن ذلك لا يمكن أن يتم قبل نهاية شهر رمضان لأن لدي من

المشاغل ما يجب إنهاؤه قبل السفر، مثل: تسليم السكن وتسديد فواتير الماء والكهرباء والغاز وبيع أثاث المنزل، وأهم من ذلك بيع السيارة. لكن برزت لدي مشكلة عويصة كيف أتنقل في مدينة عنابة مدة بقائي بعد بيع السيارة خاصة وأنا أسكن في حي سكني جديد يبعد عن مركز المدينة بحوالي (6 كم) ولا يوجد به أية خدمات.

هداني تفكيري الساذج وأكررها مرة أخرى -لأنني ندمت لاحقًا على هذا التفكير- إلى محاولة الاستعانة بمعلم سعودي يعمل معي في عنابة لم يمض على وجوده سوى عام وأمامه ثلاثة أعوام أخرى.

وكان مما دعاني إلى التفكير في الاستعانة به هو اعتقادي أنه لن يردني خائبًا بسبب المعروف الذي أسديته إليه سابقًا وقبل أن أعرف حتى اسمه.

كان من عادتي إذا بدأت العطلة الصيفية في الجزائر وعزمت على السفر أن أكتب رسالة موجهة للأخ المعلم الذي قد يعين معلمًا في عنابة دون أن أعرف اسمه ومفهوم الرسالة أن عليه

إذا عين في عنابة ألا يسكن فندقًا ويتعرض لعقبات وصعوبات بسبب المعيشة والتنقل والوحدة.

طلبت في رسالتي لذلك المعلم المجهول أن يذهب إلى مقر سكني في العمارة، رقم: (E.6)، (1052) في حي أحمد اليوني، وليستلم مفتاح الشقة من جاري الساكن في الدور الأول، وأن يعيش في الشقة حتى آتي عند بدء الدراسة، وقلت أنه سيجد مبلغًا من المال (دينار جزائري) عند جاري (أبي فلاح) -رحمه الله- ليأخذه ويستعين به على أمور معيشته اليومية هو ومن معه.

أدت الرسالة دورها حيث استفاد منها أول مرة زميل اسمه: حسين، حيث ذهب إلى الشقة وسكن بها، حتى عدت إلى عنابة في عامي الثالث، وكان هذا المعلم نعم الرجل أخلاقًا وكرمًا، ورغب في السكن معي فوافقت حيث أمضينا عامًا جميلًا، ولكنه للأسف قرر إنهاء إيفاده بعد عام واحد لظروف عائلية.

كررت حكاية الرسالة مرة أخرى ليستفيد منها مدرس

جديد مع زميلين له حيث ذهبوا إلى الشقة فور وصولهم إلى عنابة وأقاموا بها شهرًا حتى عدت مع بداية العام الدراسي.

استطعت تأمين سكن لاثنين من هؤلاء المعلمين بسعر رمزي من الشقق المخصصة لوزارة التربية، أما الثالث فإنه رغب في السكن معي فرحبت لكي يكون عوضًا عن زميلي السابق حسين ويا ليتني ما فعلت حيث تعرضت وعانيت من تصرفاته السيئة وشحه طيلة المدة التي قضاها معي.

عندما وصلني قرار إنهاء الإيفاد أبلغته بذلك وكان يستعد للنزول إلى مركز المدينة، فطلبت الركوب معه لأحدثه في أمر مهم، ركبت معه، وفي الطريق أبلغته بصعوبة بقائي دون سيارة بعد بيع سيارتي، ولهذا طلبت منه أن يتكرم بإعطائي سيارته كما فعلت معه في بداية العام؛ لإنهاء بعض مستلزمات سفري، (حيث أنه سيسافر مع بداية الإجازة وستبقى سيارته دون استخدام)، وعندما يحين سفري أذهب لتخزينها في (كراج) سيارات عند شخص نتعامل معه؛ كي يجدها في مَأْمَنٍ عندما يعود للعمل من سفره، لكنني فوجئت منه بالرفض الشديد

لإعطائي السيارة، وعندما سألته: لماذا؟ مع أنني لم أبخل عليه بسيارتي سابقًا، كان عذره أقبح من ذنب، إذ قال لي: إنه يخشى إذا أعطاني سيارته وحان سفري أن أوقفها في أحد الشوارع فتكون نهبًا للصوص، فقلت: وهل أنا أحمق مستهتر لكي أفعل هذا الفعل الشنيع؟ إنني أقول لك سأوقفها في (الكراج الفلاني)، ولكنه للأسف أصر على عدم التجاوب معي منكرًا لمعروفي وحسن جميلي الذي قابلته به قبل أن أعرفه.

ثم أضاف هذا المعلم قائلًا: أقترح عليك إبقاء سيارتك معك، وعندما يحين يوم سفرك وتبيعها وينقص ثمنها عن سعرها هذا اليوم أعوضك الفرق، قلت: له عليك أن تعرف أنني فلان الذي صنع لك معروفًا لم تكن تحلم به في بعثتك هذه، ولست شحاذًا وطلبت منه الوقوف، ونزلت غاضبًا من سيارته، وواصلت سيري إلى مركز المدينة على الأقدام لقضاء بقية فترة الضحى في مقهى «السِّلْكت» مقر اجتماع أعضاء البعثات التعليمية العربية، وعندما انتصف النهار، خرجت إلى السكن ووجدته قد أخذ حقيبته ورحل ليسكن عند زميل آخر

أشبه ما يكون به خُلُقًا.

بصراحة لمت نفسي لومًا شديدًا على طلبي سيارة هذا الشخص، إذ كيف يحدث هذا مني مع أنني أمتلك مؤشرات أستقيتها من مواقف سلبية سابقة، ولكنني أيضًا عذرت نفسي وقلت: لو لم أطلب ذلك منه لما كان لي الحق أن أَدَّعِي أنه رفض.

كان السبب الذي يدعوني لبيع السيارة هو أن الحكومة الجزائرية تسمح للمعلمين المتعاقدين بإدخال سيارتهم بدون جمارك شريطة ألا يبيعونها على جزائري إلا بعد دفع جماركها أما إذا أراد بيعها من دون جمركة فهذا لا يمكن إلا على متعاقد عربي أو أجنبي لا جزائري.

كما أن البيع قبل بداية الإجازة سيتم بالعملة الصعبة (دولار) أو (فرنك فرنسي) يحوله المشتري للبائع على بنك خارج الجزائر لأن الحكومة الجزائرية حصرت حق استعمال العملة الصعبة أو ما يسميه الجزائريون (الدوفيز) بيدها فقط.

أما بيع السيارة بالدينار الجزائري فلم يكن مقبولًا بسبب

بسيط، وهو: ماذا يفعل بعملة لا تقبل خارج حدودها وكل يوم يهبط سعرها في السوق الموازية.

* * *

مِنْ عَنَّابَة إلى أشَيْقِر (2)

أصبحت أكثر تشددًا وتصديقًا للمثل العامي: «منة الله ولا منة خلقه» واتخذت قراري النهائي الذي سأقوم بتنفيذه وهو ألا أحني رأسي إلا لله، وألا أطلب مساعدة من أي إنسان مهما كانت الأسباب، خاصة إذا كان هذا الكائن سلبيًا في علاقته بمن أحسنوا إليه في وقت مضى، واتخذت قراري بالاعتماد على نفسي فقط، لذا قررت الإبقاء على سيارتي التي رافقتني في الغربة (3) سنوات بجانبي طيلة بقائي في عنابة، وأن تكون رفيقي في رحلة العودة إلى الديار حتى تصل إلى بيت أهلي في أشيقر، وألا أعرضها للبيع في عنابة حتى لو ملئت ذهبًا، لذا بدأت في الإعداد الجيد لرحلة طويلة تصل إلى (7000 كم)، سأقطع فيها صحاري ومغارات وغابات ومدنًا وقرى وبحارًا تبدأ من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوصول.

بدأت الإعداد للرحلة من باب المطبخ، حيث قمت باختيار بعض أدوات الطبخ وإعداد الشاي من موجودات المطبخ ومما يزيد عن الحاجة، واستكملت الناقص بالشراء من المحلات

التجاريـة، فاشـتريت مطبخًـا يحمـل باليـد ويعمـل بالغـاز، واشـتريت ملاعـق خشـبية لاستعمالها عنـد الطـبخ خوفًـا مـن احـتراق أصـابعي بسـبب استعمال الملاعـق المعدنية، كـما زدت الأدوات بعـدد (2) مـن الجراكـل للـماء مـن بـاب الاحتيـاط، وبالنسبة للنوم اكتفيت بفراش مطاطي ينتفخ بالهواء ويستعمله رواد البحر وبرك السباحة، إضـافة إلى بطانيـة خضـراء أخذتها من غرفة النوم لكونها عزيزة على قلبي وتمثل جزءًا من ذكرياتي في عنابة كونها قد أرسلت لي من الأهـل في أشيقر لأستعملها لمدة (4) سنوات، ثم قـررت أن تكـون جزءًا مـن أمتعتـي، ومـا زلـت أحـتفظ بهـا بحالـة جيـدة رغـم مـرور (42) عامًـا عـلى الرحلة.

بقـي عـلي أهـم شيء في الاسـتعداد للرحلـة إنـه الخيمـة السـياحية التـي سـتكون مقـر جلـوسي ونـومي في المخـيمات السياحية (الكامبينغ) وقد يسَّـر الله الأمـر بعثوري عـلى خيمـة تَسَعُ (4) أشخاص وتنصب بواسطة المواسير الخفيفة قد جلبها أحـد أصـدقائي مـن موسـيليا، فاشـتريتها بـ (900) فرنـك

فرنسي واشتريت أيضًا حافظتين للماء والمواد المراد تبريدها. ولم يهل هلال شهر رمضان إلا وكانت جميع حاجياتي جاهزة.

أمضيت شهر رمضان تقريبًا كالعادة نوم في النهار وسهر حتى الفجر مع الأصدقاء أمام العمارة التي أسكنها، أو على شاطيء ريزي عمر، حتى جاء يوم التاسع والعشرين، حيث قمت بتسليم الأثاث لمن اشتروه مني، فسلَّمْتُ الثلاجة وفرن الغاز والسخانة وأدوات وخزائن المطبخ وغرف النوم وكنبات المجلس، وأهديتُ مكتبتي إلى المعهد التكنلوجي للتربية، ولم يحن وقت العصر إلا والشقة قاعًا صفصفًا لا أملك فيها سوى البطانية الخضراء التي فرشتها في الصالة الداخلية لجلوسي ونومي آخر ليلة في عنابة، أما إفطار ذلك اليوم وسحور الفجر التالي فقد تكفل به جاري وصديقي (أبو فلاح) -رحمه الله-.

أشرقت شمس الثلاثين من رمضان وكنت مستيقظًا مبكرًا استعدادًا للسفر إلا أنني تأخرت حتى ترتفع الشمس قليلًا لكي أودع أصدقائي وجيراني الذين لم يزالوا في نوم عميق، ولكي أصل إلى منطقة الحدود الجزائرية مع تونس في وقت

يكون فيه مسؤولي الأمن والجمرك قد استيقظوا من نومهم واستأنفوا عملهم، بدلًا من الوصول مبكرًا ومحاولة إيقاظهم من نومهم فأتعرض منهم لسوء المعاملة التي يمكن تجنبها بالانتظار قليلًا، وفي تمام الساعة الثامنة كنت قد وضعت حاجياتي داخل سيارتي البيجو (504)، ووضعت الخيمة في السلة الطويلة العلوية، وودعت أصدقائي وجيراني، ودموعي تبلل خدي إذ ليس سهلًا أن تفارق هؤلاء الأصدقاء بسهولة بعد عشرة استمرت (4) سنوات كان الود والوفاء والإخلاص الجسر الذي يربط بين القلوب، وبعد ساعتين تقريبًا وصلت إلى منطقة حدود (القالة) التي تبعد من عنابة قرابة (90كم) إذ أنني تعمدت عدم السرعة في السير مخترقًا عددًا من المراكز والقرى على مهل لإعطاء عيني الفرصة لتوديعها، مثل: بن مهيدي وبن قاسي وبحيرة العسل وبو ثلجة والطارف والقالة.

كان رجال الحدود قد استيقظوا وبدؤوا عملهم ولم يكن لديهم في الحدود سواي مسافرًا إلى تونس بسبب رمضان، ولم

أتأخر في إنهاء إجراءات السفر وعبور سيارتي المنطقة الحدودية دون مشاكل تذكر؛ لأنني اخترت الوقت المناسب للوصول.

تعاملت مع موظفي المنطقة الحدودية معاملة مسافر سيعود بعد انتهاء إجازته، إذ أنه لا يوجد ما يوحي لهم بأنني لن أعود إذًا على الأقل لمنعوا مغادرة سيارتي بلوحاتها الجزائرية، كما أن وجود العملة الصعبة معي (دولار أمريكي + مارك ألماني) والتي كثيرًا ما جلب وجودها الصداع إلى رأسي لم تشكل هذه المرة أية مشكلة أقضي بسببها عدة ساعات في منطقة الحدود، وذلك أن جميع ما أحمله رغم قلته مسجل رسميًا على استمارة العملة الصعبة ومعتمد من جمارك مطار الحمرا[1]، في عنابة عند دخولي عن طريقه في آخر رحلة لي قادمًا من بروكسل.

غادرت منطقة الحدود الجزائرية متجهًا إلى نقطة الحدود التونسية التي تبعد آنذاك (30 كم) عن مثيلتها الجزائرية، حيث يقتضي الوصول إليها اختراق طريق جبلي تغطيه الغابات التي

---

(1) سمي مؤخرًا مطار رابح بيطاط.

ترسم مع الغيوم المتفرقة لوحةً تأثيرية رائعة.

لم يطل مقامي في الحدود التونسية حيث لم تستغرق عملية الدخول أكثر من (20) دقيقة؛ لأن التونسيين يتعاملون مع القادم إليهم كسائح يجب التعامل معه بكل لطف ودبلوماسية وترحيب مع وجود كافة التسهيلات الجمركية خاصة فيما يتعلق بالعملة الصعبة.

وصلت إلى مدينة طبرقة التي تستقبل الزوار القادمين من الجزائر قبل أي مكان آخر، وهي مدينة جميلة تقع من جهة في حضن جبال خضراء وفي الجهة المقابلة تغسل قدميها بأمواج البحر الزرقاء. لكوني قد زرت طبرقة كثيرًا عند زياراتي المتعددة لتونس ولكون اليوم آخر يوم في رمضان لم أجد مبررًا للاستراحة في هذه المدينة الجميلة، لذا واصلت سفري متجهًا إلى العاصمة تونس التي تبعد عن طبرقة مسافة (200 كم) وهي طريق تبعث في نفس من يسلكها الارتياح والنشاط والاندهاش بهذه الطبيعة الخضراء والأرض المزروعة بأشجار الزيتون والنوار حتى يصل إلى تونس مرورًا بمدينتي باجة

وبنزرت.

عصرًا كنت قد وصلت إلى شارع الحبيب بو رقيبة أهم وأكبر شارع في تونس كلها والذي يحتضن في نهايته تمثالًا عمَّن سمي الشارع باسمه، وفي نهايته من الجهة الأخرى المدينة القديمة المسماة: (القصبة) حيث يشمخ جامع الزيتونة الشعبي، اتجهت إلى فندق مُصَنَّف درجة ثالثة، اسمه: (كارلتون) سبق لي نزوله مرارًا حيث أقمت فيه ليلة العيد فقط، أمضيت بقية المساء وجزءًا من الليل في التجوال خاصة في المدينة القديمة حيث تناولت طعام الإفطار عند سماع مؤذن الزيتونة لأواصل جولتي حتى حدود الساعة العاشرة ليلًا لأعود إلى الفندق نظرًا لإقفال السوق وذهاب الناس إلى منازلهم استعدادًا للتحضير للعيد صبيحة اليوم التالي.

في صبيحة العيد وبعد تناول الإفطار الصباحي واصلت طريقي إلى أهم مدينة سياحية في الشمال التونسي، هي: مدينة الحمامات، حيث توجد عشرات الفنادق المصنفة وغير المصنفة، ومراكز الإيواء السياحي المعروفة باسم (الكامبينغ)، والتي لا

تبعد عن تونس العاصمة سوى (60 كم) فقط.

اتجهت فور وصولي إلى الحمامات إلى منطقة إيواء سياحي، اسمها: (حمام شط) ويوجد بها فندق، اسمه: (سلوى) اتخذه ياسر عرفات مقرًا لمنظمة التحرير الفلسطينية بعد خروجها من بيروت عام: (1982م) وأطلق عليه الشاعر: محمود درويش (جمهورية سلوى)، وأقمت في هذا الفندق الجميل ليلة واحدة فقط حتى رتبت أموري في المخيم السياحي المعروف (بالكامبينغ) والذي يستدل عليه السائح بلوحة إرشادية مرسوم عليها شكل خيمة، هناك حجزت عن طريق اللجنة المشرفة على إدارة المخيم مكانًا لنصب الخيمة وإيقاف السيارة وثم تسجيل جواز سفري وتسليمي الموقع المزود بصنبور مياه وفيش كهرباء للاستعمال الشخصي، ولم يكن البحر والسوق التجاري والمطعم تبعد عني سوى أمتار قليلة، كما نُصِبَتْ بقرب الشاطئ حنفيات الدش المرفوعة على مواصير تفوق قامة الرجل لكي يستحم فيها رواد الشاطيء بعد خروجهم من البحر.

استأنفت حياتي في المخيم بعد نصب الخيمة التي تستطيع ضم (4) أشخاص داخلها، حيث كنت أصحو مبكرًا، وبعد الإفطار أقوم بجولة على الشاطيء أو بين المخيمات وأمارس السباحة لمدة ساعة تقريبًا، ثم أنطلق بواسطة السيارة للجولة في المدن والقرى والمزارع الموجودة في المنطقة.

قبيل العصر انطلقت إلى العاصمة وبالتحديد لحي المنزه (6)، حيث يسكن أخي وصديقي الرائع (يوسف السيف) -رحمه الله- الذي كان في الملحقية السعودية في تونس حيث قضيت معه وقتًا طويلًا سواء في منزله أو في التجوال في أحياء مدينة تونس والقرى المحيطة بها خاصة (قربص) المشهورة بمياهها المعدنية، لأعود بعد ذلك إلى المخيم للنوم وبداية يوم جديد.

ذهبت إلى السفارة الليبية في تونس للنظر في إمكانية السماح لي بعبور ليبيا إلى مصر وللأسف الشديد رفضت السفارة إعطائي التأشيرة، ولم يعد بإمكاني العودة للجزائر؛ لأن أمر الخروج بعد الدخول إليها سيكون صعبًا ويلزم أن أقوم ببيع

سيارتي قبل الخروج النهائي.

أخذت أفكر في طريقة أخرى لمواصلة رحلتي بعد أن أغلقت ليبيا أبوابها في وجهي، وعن طريق البحث والاستقصاء علمت بوجود رحلات بحرية شبه يومية بين تونس وجزيرة صقلية ففكرت في السفر إلى إيطاليا، ولكن قبل ذلك لا بد أن أدرس طريقة رحلتي إلى السعودية حيث أدركت إمكانية ذلك عن طريق اليونان فبلغاريا فتركيا.

أخذت أتردد على الميناء في حلق الواد للحصول على فرصة السفر إلى صقلية بعد أن حصلت على تأشيرة دخول إيطاليا، ولكنني للأسف بقيت أيامًا غير قادر على شراء تذكرة سفر في الباخرة بحجة امتلاء الباخرة بالركاب، ونظرًا لبعد المسافة النسبي بين المخيم في الحمامات وحلق الواد وتوفيرًا للوقت نقلت خيمتي إلى مكان إيواء سياحي قرب الميناء، ولكنه لم يكن رسميًا إذ لا توجد فيه أية إدارة ونصبت الخيمة وأخذت أتردد على الباخرة وكانت النتيجة سلبية، حتى جاءت الفرصة عند مراجعتي للباخرة فرجعت خائبًا وهناك أبصرني شخص

تونسي يبدو أنه يتعامل مع الأفراد العاملين على الباخرة لتأمين الركاب لقاء مقابل مادي بحجة امتلاء الباخرة.

أخبرني هذا الشخص أن الباخرة تبحر بنصف طاقتها من الركاب ولكن العاملين عليها يدعون امتلاءها لإرغام المسافر على دفع أتاوة لهم، وعرض ذلك عليَّ، فرفضت دفع الأتاوة، قائلًا: حتى لو بقيت أشهرًا منتظرًا لن أدفع، وبعد توفيق من الله طلب مني ذلك الشخص إعطاءه جواز السفر وأوراق ملكية السيارة وخلال دقائق شاهدته متجهًا إلي ليسلمني التذكرة، ويستلم قيمة التذكرة دون زيادة أو نقص.

في صباح اليوم التالي أبحرت الباخرة متجهة إلى صقلية، وكانت يوجد بها شواغر كثيرة مما يؤكد صحة كلام هذا التونسي الذي التقتيه.

استغرقت الرحلة حوالي (8) ساعات للوصول إلى ميناء (ترابوني) في صقلية، وعندما بدأنا النزول من الباخرة طلب الأمن من أصحاب السيارات فتح أبواب سياراتهم والبقاء بعيدًا للسماح للكلاب البوليسية بالدخول من باب والخروج

من باب ربما بحثًا عن ممنوعات، ولكن العجيب حين قَدَّمتُ أوراقي لرجل الأمن ورأى صورتي بالعقال أشار لي بالخروج بالسيارة دون تفتيش.

لم تكن (ترابوني) هدفي في الرحلة ولكنها محطة لا بد من المرور بها، لذا واصلت طريقي إلى (باليرمو) قلب الجزيرة النابض، ولكن لغياب الشمس وخشية تعرضي لبعض المشاكل والعقبات في طريق لا أعرفها رأيت أن من الأفضل إمضاء الليل في (ترابوني) ومواصلة السفر صباحًا، وساعدني على ذلك أن رأيت علامة وجود مخيم سياحي على الطريق التي أنا عليها، حيث ملت إليه وأوقفت سيارتي، وأمضيت ليلتي هناك، حيث نصبت خيمة صغيرة للنوم فقط لا يدخلها الشخص إلا حبوًا.

واصلت طريقي صباحًا إلى باليرمو التي لم تكن تبعد سوى نصف ساعة، وكانت عيناني تلتفتان يمينًا ويسارًا بحثًا عن وجود إشارة سياحية (مجسم خيمة) تدل على وجود مخيم سياحي لأنني لا أريد السكن في فندق.

كان حظي جيدًا أو كما يقول الجزائريين «كاين معاه الزهر»، حيث وجدت مخيمًا سياحيًا ممتازًا وفي موقع قريب من مركز المدينة من جهة ومن البحر من جهة أخرى ويوجد به إشراف إداري وأمني، قمت بالتسجيل المطلوب لدى الإدارة وسُلِّمت الموقع الذي سأنصب فيه خيمتي، وقد أبلغتني الإدارة على ضرورة دخولي المخيم مع غروب الشمس لأن باليرمو تتحول ليلًا إلى معارك بالرصاص الحي بين عصابات المافيا، والتزمت بهذا التوجيه التزامًا كاملًا فلم أكن أذهب للمدينة إلا نهارًا حيث تبدو الحياة عادية جدًا فأمضي نهاري في زيارة معالم باليرمو من مسارح ومتاحف وكنائس ومتاجر، ولكن للأسف فإن الفائدة كانت قليلة جدًا لعدم معرفتي باللغة الإيطالية، وعدم وجود من يتحدث اللغة الفرنسية التي أحفظ منها ما يساعدني في حياتي اليومية.

أمضيت في باليرمو ثلاثة أيام أمضيتها في التجوال نهارًا والكمون ليلًا بناء على نصيحة الإدارة، وكنت أقضي وقتًا لا بأس به في مقهى المخيم، حيث أنني أسمع بلا مبالغة أزير

الرصاص القادم من شوارع باليرمو، ولكن الاطمئنان والهدوء سيد الموقف في المخيم، فلم يتعرض لسوء من تلك العصابات ربما لأنها تحترم السياح الذين يتدفقون إلى إيطاليا بمئات الآلاف أو الملايين.

كان جيراني في المخيم (3) إيرانيين، ولم تكن تربطني بهم سوى علاقة التحية صباحًا ومساءً.

وكنت أقوم بعد نصب الخيمة بحفر حفرة في الأرض وطمر كيس النقود بها، ثم فرش أرضية الخيمة وتثبيتها فهي بنكي المفضل.

في اليوم الرابع اتصلت بصديقي وجاري (رؤوف) في مدينة عنابة لمدة سنتين والذي غادر إلى إيطاليا وتزوج من إيطالية وأقام في قرية (ريماجوري)، والتحق بالعمل مستشارًا لدى إحدى الشركات الإيطالية؛ لكونه يتقن خمس لغات عالمية نطقًا وكتابة وترجمة عدا العربية، هن: الفرنسية والألمانية والإنجليزية والأسبانية والإيطالية.

سألني أين أنا؟ قلت: في باليرمو، قال لي: إن لي رحلة إلى

باريس ولكنني سوف أؤجلها، لأكون في انتظارك لنقضي وقتًا معًا، ولكن كيف ستصل إلي وبيني وبينك (1800 كم) وبحر، فأنت في جزيرة صقلية وأنا في البر الإيطالي؟ قلت: لا عليك انتظرني غدًا مساء في تمام الساعة العاشرة في ساحة القرية حيث توقف سيارتك، قال: سأفعل، وإن كنت أشك في وصولك وعمومًا سأنتظرك لمدة أربعة أيام فإن قدمت خلالها وإلا سأسافر إلى باريس.

وضعت سماعة الهاتف وذهبت للميناء القريب من المخيم حيث دلفت إلى أحد المكاتب السياحية وبطريقة الإشارة أو بعض الكلمات الفرنسية أو الاستعانة بقاموس اللغة الإيطالية استطعت أن أوصل إليهم رغبتي في السفر إلى مدينة (لاسبستيا)، حيث أفادني المكتب إن أقرب مكان تصل بواخرهم هي مدينة (نابولي) وهناك يتبقى عليك ما لا يقل عن (800 كم) للوصول إلى مدينتك المطلوبة.

أخذت تذكرة الركوب لي ولسيارتي في الباخرة التي ستبحر مساء وذهبت للمخيم حيث قمت بطي الخيمة وتنظيم

الأدوات والمكث جزء من الوقت في المقهى، ثم غادرت إلى الميناء.

أبحرت الباخرة مع غروب الشمس، وكانت مزدحمة بالركاب حتى إن الراكب يضل واقفًا لمدة ساعات قبل حصوله على مقعد للراحة، وهكذا كان نصيبي حين أمضيت واقفًا أرنو بعيني إلى بحر أسير فوقه ولا أراه وينعشني هواؤه، ومع إطلالة الفجر كانت الباخرة ترسو في نابولي ولم تستغرق عملية النزول غير دقائق لكون الرحلة داخلية، حيث أخرجت سيارتي إلى مواقف السيارات ورميت بنفسي في المقعد الخلفي لأستغرق في النوم مدة ثلاث ساعات كانت كافية لطرد تعب ليلة كاملة.

استيقظت وقد ارتفعت الشمس قليلًا، وتناولت إفطارًا سريعًا من أحد محلات بيع الوجبات السريعة، وركبت سيارتي متجهًا شمالًا مستعينًا هذه المرة بخارطة للطرق في كافة أنحاء إيطاليا.

والأجمل أنني حينما أمر بمحطة رسوم السيارات وآخذ

تذكرة المرور للرحلة القادمة أجد أن الخريطة مطبوعة على ظهر التذكرة مما يجعل موضوع الضياع شبه منعدم.

كانت الطريق جيدة وآمنة ومسارات سريعة ولا ثمة حمار أو بعير سيعترض الطريق، لذا كنت بعد مضي ما يقرب من ثلاث ساعات ونصف في ساحة مايكل أنجلو في مدينة فلورنسا التي كنت أعرفها من زيارة سابقة مع الأخ: علي الرزيزاء والأخ: سليمان الهديب.

هناك بحثت عن فنان تشكيلي عراقي، اسمه: حيدر الأمير، سبق له العمل في بريدة ثم جاء للإقامة في فلورنسا، وكم كانت فرحتي كبيرة بوجوده حيث أمضيت معه ما يقرب من ساعتين تكرم علي خلالها بوجبة غداء مبكرة مكونة من شطائر اللحم ومن العصائر.

ودَّعتُ الفنان حيدر أو كما أسميه: (جبر من بطن أمه للقبر) حسب المثل العراقي في إشارة إلى حياته في بريدة، وواصلت طريقي متجهًا شمالًا محاذيًا الساحل الغربي للجزيرة الإيطالية، ولم أتوقف سوى مرة واحدة للتزود بالوقود.

في تمام الساعة التاسعة والثلث تقريبًا كنت أقف أمام محطة القطار في (لاسبيستيا) الموجودة على طرف المدينة، حيث اتصلت بصديقي رؤوف الذي رحب بي وطلبت منه فقط أن يقل لي كيف أسلك طريق (رياجوري) ولكنه أبدى رغبته في المجيء إلي، فرفضت وأخذت طريق القرية (رياجوري) سائرًا على مهل لضيق الطريق وظلمة الليل كان الجبل إلى يساري والبحر على عمق (100) متر على يميني، وفي تمام الساعة العاشرة تمامًا كنت أقف في ساحة القرية حيث كان صديقي رؤوف وزوجه في انتظاري.

هنا نظرت الزوجة إلى ساعتها ثم نظرت إلى رؤوف قائلة له: هل صديقك عربي؟ قال: نعم، قالت بلغة عربية مكسرة: لا أصدق لأن العرب لا يجيدون سوى إخلاف الوعد ولم ينقذها من شكها إلا رؤيتها لجواز سفري.

أمضيت خمسة أيام كاملة ضيفًا على عائلة صديقي رؤوف، قمت في صباح اليوم الأول لوصولي بجولة على الأقدام في شوارع القرية الهادئة التي أتمنى هدوءها لقرانا التي تضج

شوارعها بسرعة السيارات المفرطة والاستهانة بنظم السير.

وفي اليوم الثاني قمت بجولة على الأقدام لمزرعة والد زوجة صديقي في حضن الجبل، حيث شاهدت هذا الرجل السبعيني يعمل بهمة الشباب في سقي الأشجار وتقليمها وجني محصول الخضار، حتى إذا جاءت الساعة الثانية عشرة أخذ من المزرعة ما تيسر منها إلى منزل الأسرة.

وسافرنا في اليوم الثالث إلى مدينة (بيزا) القريبة بكامل أفراد العائلة وصديقي رؤوف، حيث زرنا برج (بيزا المائل) الذي يعد من عجائب الدنيا السبع وأبلغني والد زوجة صديقي أنها أول مرة يزور هذه المدينة ويرى البرج العجيب، كنا نقضي الليل بعد العشاء في جلسة عائلية مع والد الزوجة وأحيانًا نذهب إلى المركز الثقافي للقرية والذي تشرف عليه زوجة صديقي رؤوف.

كان نظام والد الزوجة الذهاب للمزرعة في تمام الثامنة صباحًا والعودة الساعة الثانية عشرة، وتناول طعام الغداء الساعة الواحدة والراحة لمدة ساعة ونصف، ثم الذهاب

للمزرعة على الأقدام والعودة الساعة السابعة مساء وتناول طعام العشاء والساعة الثامنة، ثم الذهاب للنوم في تمام الساعة التاسعة، لم يخلفه طيلة وجودي ضيفًا.

أما والدة زوجة صديقي فامرأة غنية هي وحيدة أبويها، وقد ورثت من والدها فندقًا فخمًا في الأرجنتين، ولكن هذا الغنى لم يؤثر على سلوك هذه العائلة التي تزن تصرفها الاجتماعي بميزان العقل والحكمة والبساطة بدلًا من البذخ الأهوج والإسراف المقيت.

في آخر ليلة وكنا على العشاء أبلغت العائلة بسفري غدًا نحو بلغاريا عن طريق يوغسلافيا، ومن ثم إلى تركيا، حيث أبلغني والد الزوجة بأن انقلابًا قد وقع في تركيا وأقفلت الحدود مع بلغاريا (انقلاب كنعان إيفرن) ولهذا لا داعي للسفر من هذا الطريق لأنك قد تضطر حتى للرجوع إلى إيطاليا.

أدى هذا الانقلاب إلى لخبطة خط سير رحلتي، وجعلني أفكر في البديل، حيث نزلت وصديقي رؤوف لمدينة لاسبستيا

التي تبعد عن القرية (25 كم) لمعرفة ماذا لدى مكاتب السياحة من بديل.

أخيرًا وجدنا الحل وهو العبور إلى اليونان والسفر منها بحرًا إلى سوريا ولكن ذلك يتطلب الذهاب إلى مدينة (باري) الواقعة في جنوب شرق إيطاليا، والتي تبعد مسافة (800 كم) تقريبًا عن القرية، فلم أضيع وقتي، وقمت بالحجز على إحدى البواخر من مدينة باري إلى سالونيك بعد (6) أيام على ما أظن، وفي صباح اليوم التالي كنت في طريقي عائدًا جنوبًا حيث مررت مرة أخرى بمدينة فلورنسا ظهرًا واتجهت إلى حيث يوجد صديقي حيدر الأمير لأمضي معه قرابة ساعة ونصف تناولنا خلالها طعام الغداء المبكر كالمرة السابقة وهو شطائر باللحم والعصائر الطبيعية.

وقبل أن أودع صديقي حيدر وقف علينا سائح كويتي، وعندما عرف أنني سعودي بعد تعريف حيدر الأمير وأنني في طريقي إلى روما رغب في مرافقتي، ورغم أنني قد أخذت على نفسي عهدًا ألا يركب سيارتي سواي تلافيًا للمشاكل التي قد تحدث خاصة من ركاب (الأوتوستوب) البوهيميين، إلا أنني

وافقت على مرافقة الأخ الكويتي لأن مظهره لا يدل على أنه من فئة الهيبز كما أنني تأكدت من شخصه بالاطلاع على جواز سفره.

واصلت وبرفقتي هذا الأخ الكويتي الرحلة إلى روما، حيث وصلنا روما مع غروب الشمس عند محطة القطار الرئيسية حيث ودعني الأخ الكويتي وذهب في طريقه، أما أنا فاتجهت إلى أحد فنادق المنطقة التي أعرفها بسبب زيارة سابقة وقضيت ليلتي فيه.

صباحًا وبعد الإفطار تركت سيارتي في كراج الفندق وأخذت تاكسيًا واتجهت للسفارة السعودية لتسجيل جواز السفر، وهو ما تم ولما حاولت أخذ أية معلومات عن مدينة (باري) رجعت محاولتي خائبة، فاتجهت خارجًا من السفارة وعند البوابة صادفت أحد موظفيها الذي نظر إلي بتمعن ثم قال لي: يبدو أنني قد سبق أن رأيتك، فحدقتُ النظر فيه فعرفته بوجهه لا باسمه، وقلت له: نعم لقد رأيتك العام الماضي في سفارة المملكة في باريس، فأمن على كلامي وأخبرني أنه انتقل للعمل في روما، وسألني: لماذا جئت إلى روما؟ فأخبرته: أنني

في طريقي إلى (باري) حيث ودعني وذهب لشأنه، أما أنا فعدت بواسطة التاكسي إلى الفندق وقمت بإنهاء إجراءات الحساب، وغادرت روما متجهًا إلى باري التي تبعد ما لا يقل عن (300 كم) على الضفة الشرقية للسواحل الإيطالية.

حينما قربت من مدينة باري أخذت أركز نظري على جانب الطريق بحثًا عن إشارة وجود مخيم سياحي مشهور في المدينة، اسمه: (سان جورج)، وابتسم الحظ لي حيث وجدته على يميني، فذهبت إليه وأنهيت إجراءات دخولي إلى المخيم، واستلمت موقع نصب الخيمة، وأمضيت بقية نهاري في نصبها وترتيبها، بلا مبالغة كان المخيم كبيرًا جدًا يسع ما لا يقل عن (3000) سائح وجميع قاطنيه سواح من أوروبا فقط، بدليل قلة الخيام وكثرة (الكرفانات).

أمضيت أيامي التي قضيتها في المخيم نهارًا ما بين السباحة وممارسة رياضة المشي على الشاطئ، أو التنقل بين مواقع السواح القاطنين في المخيم وأغلبهم أصحاب كرفانات لأنظر كيف يقضي هؤلاء أوقاتهم، فكان منهم من يعمل في الطبخ، ومنهم من

يلعب الورق أو الشطرنج، ومنهم من يقرأ كتابًا، ومنهم من يغسل ملابسه، ومنهم من يتحدث مع صديقه، وهكذا، وأحيانًا أذهب إلى مقهى المخيم الرائع حيث المشروبات الساخنة والباردة وأنواع المعجنات والأكلات الخفيفة (سناك).

لم أغادر المخيم منذ وصولي من روما نهارًا حتى تاريخ سفري إلا مرة واحدة دخلت إلى المدينة وأوقفت سيارتي وذهبت في جولة على الأقدام من شارع إلى شارع ومن متجر إلى آخر ومن مقهى إلى مقهى وقبيل غروب الشمس كنت واقفًا عند سيارتي فمددت يدي إلى جيب البنطلون لكي أخرج المفاتيح وكم كانت الخيبة كبيرة حيث لم أجدها، أخذت أبحث عنها يمينًا وشمالًا قرب السيارة فلم أجدها، ولم تكن جيب البنطلون مخروقة لكي أعتقد في سقوطها من دون أن أدري.

اتجهت إلى السيارة ونظرت من خلف الزجاج إلى الداخل لأفاجأ بأنني نسيت المفتاح في مكان التشغيل، ودخلت في حيرة كيف أستطيع فتح الباب، ثم أخذت أبحث في الأرض حولي حتى وجدت سلكًا معدنيًا رقيقًا حاولت أن أفتح باب

السيارة به، ولكنه كان يعاندني فإذا وجهته يمينًا انثنى شمالًا والعكس لتضيع جهودي هباءً.

وبينما أنا مستمر في محاولتي الفاشلة، فوجئت بيد تربت على كتفي، فلما التفت وجدت رجل أمن، وبواسطة الإشارة وبعض الكلمات التي فهمتها لكونها مشتركة بين اللغتين الإيطالية والفرنسية وعدة لغات أدركت أنه يسألني عما أعمل، فأريته السلك المعدني والمفتاح المعلق داخل السيارة ليطلب مني إثبات أن السيارة ملكي، وكان حظي جيدًا إذ كانت أوراق الملكية في جيبي وليست في السيارة، فأعطيتها إياه ثم تفحصها ولما أدرك سلامة موقفي أخرج من جانب البنطلون حزمة مفاتيح واتجه إلى باب السيارة، وفي لمح البصر فتح باب السيارة في سرعة تدعو للدهشة، ركبت السيارة وأدرت محركها، وقبل المغادرة أشار لي بما فهمت منه ألا أنسى المفاتيح مرة أخرى فربما يؤدي ذلك إلى ضياع السيارة كاملة نظرًا لاتساع رقعة السرقة في تلك المدينة.

شكرت رجل الأمن، ولم تغرب الشمس إلا وأنا في قلب

المخيم لأن وصية مخيم باليرمو بضرورة الرجوع إلى المخيم قبل غروب الشمس ما زالت ترن في أذني.

وأمضيت ساعات الليل الأولى في التنقل بين السياح حيث بدأ نشاط جديد يتمثل في رقصات شعبية يقوم بها بعضهم، إلى ألعاب سحرية، إلى ألعاب الكروبات، وغيرها من المناشط المتنوعة، وقبيل منتصف الليل كنت قد أويت إلى خيمتي للنوم لكي أصحو مبكرًا، وبعد الإفطار قمت بطوي الخيمة وترتيب لوازم الرحلة، ثم انطلقت إلى الميناء الذي لم يكن يبعد سوى عشر دقائق حيث سلمت أوراقي الرسمية وتذاكر الحجز لي وللسيارة للأمن على مدخل الباخرة، ومرت الأمور بسلام ولم يمض ربع ساعة إلا وسيارتي تقف إلى جوار سيارات المسافرين، أما أنا فاتجهت إلى مقهى الباخرة.

❊ ❊ ❊

من عَنَّابَة إلى أشَيْقِر (3)

لم أحجز غرفة في الباخرة، وذلك لأن الرحلة بدأت في الصباح الباكر أي في حوالي التاسعة، كما أنها ستصل إلى ميناء سالونيك في حدود الساعة الثالثة بعد الظهر ولذا رأيت أن من الأفضل أن أمضي هذه المدة بين الوقوف على سطح الباخرة ومشاهدة طيور النورس وهي تتبع مؤخرة الباخرة لعل موجها يمنحها الفرصة للعثور على حراسين (نوع من السمك) أو حشرات بحرية، ولتعويض رحلة باليرمو ونابولي التي بدأت في الليل، بعد الوقوف على سطح الباخرة لمدة قد تزيد على الساعة كنت أعود إلى المقهى للراحة وللقراءة وشرب القهوة وهكذا ذهب وقتي بين صعود للسطح وهبوط للمقهى حتى وصلت الباخرة في أمان الله إلى ميناء سالونيك.

لم أتأخر في النزول من الباخرة والحصول على تأشيرة دخول اليونان رغم أن طرف الرحلة الثاني (إيطاليا) خارجي ولم تكن تأشيرة (شنجن) المعروفة هذه الأيام قد بدأ استعمالها في الدخول لعدة دول أوروبية بتأشيرة واحدة.

لم تكن سالونيك في ترتيب رحلتي منذ البداية، ولكن وقوع الانقلاب التركي خلط أوراقي فلم أجد بدًا من الذهاب إلى اليونان؛ لأنها الفرصة المتاحة أمامي في ذلك الوقت ومواصلة الرحلة بحرًا إلى سوريا، لذا رأيت أن لا داعي لدخول سالونيك والبقاء فيها يومًا أو يومين، ولكنني فضلت مواصلة طريقي إلى (أثينا) لمعرفتي بتلك المدينة من زيارات سابقة.

كانت المسافة بين المدينتين لا تقل عن (400 كم) وما زال في النهار ما لا يقل عن أربع ساعات حتى تغرب الشمس فبدأت الخطوة الأولى إلى أثينا، ولم ألبث أن خرجت من سالونيك دون مشاكل لصغر المدينة ووضوح الإشارات المرورية، و لم أجازف بالسرعة كما كنت أعمل في إيطاليا حيث كنت أسرع في حدود ما يتيحه لي قانون المرور نظرًا لجودة الطرق في إيطاليا، أما في اليونان فكانت في ذلك الوقت متخلفة أشبه بالطرق في بعض البلدان العربية، فبينما كنت أسير في طريق مزدوج إذ بالطريق فجأة يتحول إلى مسار واحد وبدون إشارات وهكذا استمر معي الطريق يضيق ويتسع حتى

وصلت إلى أثينا دون توقف.

كان وصولي إلى العاصمة اليونانية قرابة الساعة العاشرة أي بعد غروب الشمس؛ لأن الوقت كان صيفًا يتأخر فيه غروب الشمس. أوقفت سيارتي في أحد المواقف المحددة في قلب العاصمة، وذهبت لتناول طعام العشاء قبل البحث عن فندق نظرًا لأنني لم أجد في طريقي أية إشارة إلى وجود مخيم سياحي كما في باليرمو أو باري.

رأيت من الأفضل المبيت في سيارتي نظرًا للإرهاق الذي أصابني من تتابع السفر في الباخرة وفي البر إلى أثينا، وما قد ألاقيه من صعوبة في العثور على فندق أو عدم وجود موقف للسيارة أمام الفندق، لذا أسلمت رأسي للنوم في مؤخرة السيارة الذي داهمني بسرعة، وقبيل الفجر استيقظت على طارق يطرق على زجاج الباب الخلفي، ولما فتحت عيني رأيت رجل أمن هو من يطرق الزجاج، أنزلت الزجاج، وبدأ الحديث معي بلغة فرنسية مكسرة لأرد عليه بعبارات فرنسية أكثر تكسرًا ولكن في النهاية عرفت مراده وهو عرف مرادي.

كان يسألني: لماذا أبيت في السيارة؟ وأن ذلك حسب الأنظمة ممنوع منعًا باتًا حفاظًا على السواح، وأفهمته أنني كنت أجهل القانون ولكوني متعبًا من رحلة بحرية تتبعها رحلة برية اضطررت للنوم في السيارة، قدَّر رجل الأمن ظروفي وسمح لي بقضاء بقية الليل الذي لم يبق منه إلا قليل لظهور بشائر الفجر شريطة أن أبحث غدًا عن فندق، وهو ما حدث.

لا أدعي أنني زرت جميع معالم أثينا، ولكنني كنت مهتمًا بزيارة جبل الأولمب في وسط أثينا والذي كان اليونانيون القدماء يزعمون أنه مهبط الآلهة، ومنه أخذت الألعاب الأولمبية اسمها، زرتُ الجبل الذي كان حافلًا بالسواح وبالفرق الشعبية اليونانية التي كانت تقدم عروضها في الهواء الطلق كدعاية للتطور السياحي في اليونان.

عدت للفندق لآخذ قسطًا من الراحة، وعصرًا قمت بجولة على غير هدى بالسيارة في شوارع أثينا، وكان السبب في ذلك محاولتي معرفة الطريق المتجه إلى ميناء (بيريه) الذي يبعد عن أثينا حوالي (20 كم)، أوقفت سيارتي في أحد الشوارع

وذهبت في جولة على الأقدام متنقلًا من شارع إلى آخر ومن مقهى إلى آخر، واشتريت عددًا من الصحف العربية مثل الأخبار المصرية، حيث فوجئت بخبر قيام الحرب العراقية الإيرانية.

عدت لسيارتي من أجل العودة للفندق، وللأسف فوجئت بنزع اللوحات من أمام وخلف السيارة وظننت للوهلة الأولى أن هذا العمل بهدف السرقة، ولكنني وجدت إشعارًا على الزجاج الأمامي خمنت وبدون تأكيد أنه من مرور المدينة، سألت أول من مرَّ علي وكان بالصدفة مصريًا الذي أخبرني أن ذلك قسيمة مخالفة؛ لأنني أوقفت سيارتي في مكان ممنوع، وتفضل علي بالذهاب لمقر مرور أثينا الذي كان قريبًا مني، وبعد حديث مع أفراده وأخذ ورد تم إعادة اللوحات إلي وقدروا موقفي أنني لم أعرف لأنني سائح، ويجب على اليونانيين التعامل معه بلطف وديبلوماسية، ذهبت ووضعت اللوحات في مكانها مربوطة بسلك معدني خفيف بدلًا من المسامير التي تم كسرها أثناء نزع اللوحتين، ثم منحت هذا

الأخ المصري إكرامية لعمله الرائع معي واتجهت إلى الفندق حيث أوقفت السيارة في موقفها المخصص لها.

لم أركب السيارة بعد الغروب، وإنما أمضيت جزءًا من الليل متنقلًا في ساحات أثينا وتناول طعام العشاء في أحد المطاعم، وعندما حانت الساعة العاشرة كنت في غرفة الفندق استعدادًا للنوم.

في صباح الغد وبعد تناول الإفطار حملت حقيبتي التي رافقتني إلى الغرفة، ووضعتها في المقعد الخلفي، وانطلقت إلى ميناء (بيريه) لم يكن الخروج صعبًا من أثينا؛ نظرًا لقلة السكان وعدم وجود ازدحام، وبعد خمس عشرة دقيقة كنت على مشارف ميناء بيريه، حيث وجدت على الطريق إشارة وجود مخيم كشفي، ذهبتُ إليه وقمت بتسوية أمور إقامتي ونصب الخيمة بعد استلام الموقع.

لم يكن ذلك المخيم في درجة مخيم باليرمو أو باري، كما كان أغلب رواده من السياح الذين يحملون أمتعتهم على ظهورهم وخيمة صغيرة لا يدخلها صاحبها إلا زحفًا، ولم يكن هناك

تقريبًا سواح من أصحاب الكرفانات، ولعل السبب يعود في ذلك إلى أن غالبية هؤلاء السياح هدفهم التجول في مختلف الجزر اليونانية المتناثرة في البحر مثل خرزات مسبحة منفرطة، وهذا النوع من الرحلات يريد أمتعة خفيفة ولا يتناسب مع وجود الكرفانات مع هذا النوع من الرحلات؛ لأن جميع طرقه تقريبًا بحرية.

كنت أتردد يوميًا على الميناء من أجل الترتيب لمواصلة رحلتي له، حيث اتضح لي بعد دراسة كافة الاحتمالات أن الأفضل والأيسر لي هو الإبحار إلى الميناء السوري (اللاذقية)، دخلت إلى أحد مكاتب الحجز السياحي للحصول على مزيد من المعلومات والحجز، ولم يكن هناك صعوبة في التفاهم باللغة العربية، إذ أنه يقل أن يوجد مكتب واحد لا يوجد به من يتحدث اللغة العربية، ولعل السبب في ذلك هو كثرة السواح العرب الذين يأتون للميناء للإبحار إلى اللاذقية أو قبرص.

دخلت إلى أحد مكاتب الحجز، وبعد المناقشة لفترة قصيرة

عرفت أن هناك رحلة إلى اللاذقية تبحر صباحًا حيث تستغرق الرحلة ثلاثة أيام بلياليها مرورًا بجزيرة قبرص وجزيرة رودس، أنهيت إجراءات السفر ودفعت القيمة المالية لي وللسيارة علمًا بأنني في هذه المرة قد حجزت غرفة للنوم.

خرجت من مكتب الحجز للتمشي سيرًا على الأقدام في شوارع بيريه حيث هدوء الحركة، ولأن وقت الغداء قد حان قررت الدخول إلى أحد المطاعم المطلة على البحر.

دخلت المطعم وطلبت غدائي، وكان الشخص الذي يخدم الطاولة من (أرتيريا) فأخذت أتبادل معه الحديث باللغة العربية، حيث سألني إلى أين سأسافر؟ قلت: إلى اللاذقية، قال: وعلى أي باخرة؟ قلت: باخرة اسمها: (أوديون). هنا وجدتُ هذا الشخص يضع يديه على جانبي رأسه ويصيح فيَّ قائلًا: احذر هذه الباخرة تذهب إلى حيفا، وستكون أسيرًا لدى اليهود لو وصلت إلى هناك، وأفادني أن موظف الحجز قد أخطأ فالباخرة التي ستذهب إلى اللاذقية اسمها: (سلفرين)، وهي بالمناسبة الباخرة التي خرج عليها ياسر عرفات ومنظمة

التحرير الفلسطينية من بيروت إلى تونس عام (82م) وبعد أن أنهيت طعامي خرجنا معًا وذهبنا إلى مكتب الحجز، حيث قال للموظف: كيف؟! كنتم على وشك توريط هذا العربي بالركوب إلى حيفا. اعتذر موظف الحجز وأخذ التذكرة واستبدلها بتذكرة الباخرة (سيلفرين) المتجهة إلى اللاذقية.

في حدود الثامنة مساء دخلت إلى أحد المطاعم المواجهة للبحر لتناول طعام العشاء، وحينما انتهيت من تناوله طلبت كشف الحساب وحينما أتى به النادل اكتشفت أن هناك أشياء قد سجلها النادل ليست من الطعام مما زاد في مبلغ الفاتورة.

سألت النادل: ما هذا؟ أجابني أن هذا سعر المنديل، وهذا سعر الماء، وهذا سعر الخبز، قلت: كيف يكون ذلك ففي كل المطاعم هذه الأشياء تقدم مجانًا مع الطلبات، لكنه أجابني بأن نظام هذا المطعم هو أن لكل شيء ثمنًا، اضطررت للدفع خشية أن يضيف الهواء ومنظر البحر، وخرجت من المطعم وأنا أحدث نفسي قائلًا: شيئان في اليونان يثيران الغرابة: تقليد تكسير الصحون في الحفلات، وأخذ ثمن الخبز والمنديل

في المطاعم.

طبعًا كانت تلك آخر ليلة في بيريه وغدًا ستبحر الباخرة إلى اللاذقية، لذا خرجت إلى المخيم وبدأت في جمع حاجياتي وترتيبها ووضعها في السيارة وطوي الخيمة، أما النوم فقد قمت بنصب الخيمة الصغيرة التي لا يدخلها صاحبها إلا زحفًا، والتي لا يستغرق نصبها وطويها خمس دقائق، ثم قمت بجولة قصيرة بين المخيمات السياحية والجلوس قليلًا، ثم فضلت النوم مبكرًا لأصحو مبكرًا.

* * *

مِن عَنَّابَة إلى أُشَيْقِر (4)

أبحرت الباخرة سيلفرين في تمام الساعة الثامنة صباحًا متجهة إلى قبرص فرودس فاللاذقية محطتها الثالثة والأخيرة، ولقد لاحظت أنه لا يوجد على متنها سوى (3) ركاب عرب فقط، هم: أنا والمهندس جميل البارودي والطبيب المصري صبري جرجس، ولهذا كنا طوال الرحلة معًا لا يفرقنا إلا النوم والحاجة إلى الراحة ظهرًا.

ولعل مما ساعدنا على التآخي طيلة الرحلة هو الملل فلا يوجد في الباخرة وسائل ترفيه سوى فرقة استعراض فلبينية جمعت إلى قبح الأداء قبح الملبس، ولذا كنا نهرب من سطح السفينة حين تبدأ عروضها إلى المقهى حيث نمضي ما نشاء من الوقت إلى حين يحين وقت النوم الذي لم يكن يتجاوز الساعة (12) مساء.

لم أكن وحدي في (الغرفة) التي حجزتها طيلة الرحلة، بل كان معي المهندس جميل البارودي وهو ما زاد سعادتي بوجوده

سعادة مشاركتي الغرفة.

كان الأخ جميل قادمًا من مدينة القالة في الجزائر بعد زيارته لابنته ولأن لديه (فوبيا) الطيران كان يستعمل البحر في رحلاته رغم الوقت الطويل الذي يقضيه على أسطح البواخر.

لا أدري بالضبط كم كانت الباخرة تقطع من عقدة بحرية في سيرها، ولكن من المؤكد أنها وصلت ظهر اليوم التالي إلى ميناء (لارنكا) في قبرص مما يؤكد على بطء سير الباخرة.

حينما وصلنا إلى (لارنكا) سمح لنا بالنزول لمدة (5) ساعات تقريبًا، والعودة في الوقت المحدد لاستئناف الرحلة، وفي شوارع المدينة الصغيرة قضينا أنا وجميل وصبري الوقت في التجوال بين الشوارع الضيقة وارتياد المقاهي الجميلة، وكدت أن أتعرض لحادث مروري لأنني لم أكن أعلم أن السير في قبرص يتم حسب النظام الإنجليزي على اليسار، كنت حينما أريد قطع الشارع أنظر يمينًا كما هي الحال عندنا خشية مرور سيارة، ولكنني كنت أفاجأ بقدوم السيارة من الجهة الأخرى التي لم أحسب لها حسابًا، ولعل ما تسبب في نجاتي بعد الله

سبحانه وتعالى هو أن السرعة في الطرقات كانت محددة وسائقوا السيارات ملتزمون بذلك تمامًا.

بعد (5) ساعات واصلت الباخرة إبحارها متجهة إلى جزيرة ردوس -المحطة الثانية في رحلتها- لم ألحظ أي تغيير في أسلوب الحياة في الباخرة، أو البرامج الترفيهية العقيمة، الشيء الوحيد الذي لاحظته نزول مجموعة كبيرة من الركاب في (لارنكا) ويبدو أنهم قدموا من أجل السياحة، وصعود ركاب جدد بحيث أصبح الوجود العربي ملحوظًا بشكل كبير، ولم يعد مقتصرًا على شخصي وجميل البارودي وصبري جرجس كما كان عند بداية الرحلة.

في مساء اليوم نفسه كانت الباخرة ترسو في رودس حيث سمح للركاب بالنزول لمدة ساعتين فقط أمضيتها مع جميل البارودي في التجوال بين الأزقة والشوارع الصغيرة التي يغلب على تجارتها الصناعة التقليدية، وفي رودس تذكرت العبارة التي قالها معاوية بن أبي سفيان: «يزعجني صياح الديك في رودس» وربما كان يعبر به عن الهدوء الذي يعم

الجزيرة، وهو ما لاحظناه نظرًا لصغر مساحة الأرض وقلة السكان.

قصر المدة الممنوحة لنا لم تسمح لنا بالابتعاد عن الشوارع والمقاهي القريبة من الباخرة، حيث سمعنا جرس الباخرة ينبه إلى انقضاء المدة وضرورة عودة الركاب لاستئناف الرحلة.

خلال توقف الباخرة نزل عدد لا بأس به من الركاب وكلهم يغلب عليهم الطابع الغربي، وركب بدلًا منهم ركاب تدل قسمات وجوههم على أنهم عرب مما جعل الباخرة «تتكلم عربي» كما قال فؤاد حداد؛ نظرًا لأنها بدأت رحلتها إلى محطتها الثالثة (ميناء اللاذقية).

كانت الحياة في الباخرة فيما تبقى من المسافة كلاسيكية مشابهة لما مضى من الأيام من الصعود إلى سطح الباخرة أو الذهاب إلى المقهى أو الراحة في غرفة النوم، والجديد هو أننا تمكنا ليلًا من الصعود إلى سطح الباخرة نظرًا لاختفاء فرقة الاستعراض الفلبينية التي يبدو أنها نزلت في رودس، وبدأنا نسمع أغاني عجيبة تبث من راديو الباخرة.

في تمام الساعة التاسعة صباحًا رست الباخرة في ميناء اللاذقية، وبدأ الركاب في الاستعداد للنزول، وقد كان من حسن حظي أنني اتجهت فور نزولي إلى شرطة الميناء لأحصل على تأشيرة الدخول؛ لأن سوريا لم تكن تشترط الحصول على تأشيرة مسبقة، ولم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق فقط، ربما لأنهم لم يكونوا يعلمون بأن معي سيارتي الخاصة إذ ربما جرى تأخيري حتى الانتهاء من مصلحة الجمارك، ذهبت إلى الباخرة وأنزلت سيارتي وأوقفتها في المنطقة الجمركية حيث حضر ضابط الجمرك لمعاينة السيارة وما تحمله داخلها، كان التيار الجمركي المسيطر على الميناء يتبع لسرايا الدفاع التابعة لرفعت الأسد في حين كانت سوريا الدولة غائبة، وكان موظفو الجمارك لهذا السبب لا يسألون عما فعلوا، كما كان القانون المتبع لديهم هو القانون الذي يبتدعونه لا قانون الدولة، وكان ذلك القانون يعتمد على مبدأ الرشوة أولًا وأخيرًا.

جاء ضابط الجمرك وبدأ في معاينة حمولة السيارة وهي أغراض شخصية بحتة تتألف من أدوات المطبخ وفراش النوم

والخيمة والملابس، لا تستوجب دفع ليرة واحدة، ولاحظت أن ضابط الجمارك بدأ يعد قائمة بما تحمله السيارة حيث قدم لي البيان وقد دون عليه الرسوم التي يجب علي دفعها، ولكنني اعترضت قائلًا: إنها أغراض شخصية يحملها أي إنسان، ولاحظت أن كثيرًا من الركاب السوريين لا يلبثون إلا قليلًا حتى يحصلوا على تصريح دخول السيارة، رفض ضابط الجمارك اعتراضي وأصر على أن أدفع، هنا طلبت منه الاطلاع على القانون الذي يوجب على السائح دفع رسوم على ثيابه، ولكنه تلجلج وأبى؛ لأنه لا يوجد قانون مثل هذا، طلبت أيضًا أن يسلمني إيصالًا فيما لو سددت له ما طلب، ولكنه أيضًا تهرب من مطلبي، ولما رأى إصراري على عدم الدفع تركني إلى سيارة أخرى قائلًا ما معناه: ستدفع أو ترجع لليونان.

كما قلت سابقًا أنه من حسن حظي أنني أخذت تأشيرة الدخول من الشرطة دون أن يعلموا بأن برفقتي سيارتي الخاصة إذًا لتغير الحال، لذا فإنني تركت ضابط الجمارك

مشغولًا بتفتيش سيارة أخرى، وغادرت الميناء حيث أوقفت تاكسيًا وطلبت منه إيصالي إلى إعدادية جابر بن حيان، دخلت المدرسة، وسألت أحد إدارييها عن الأستاذ أمير سليمان وهو أحد أصدقائي في مدينة عنابة طيلة أربع سنوات.

قادني هذا الإداري إلى أحد الفصول حيث كان الأستاذ أمير يلقي درسه. حين رآني من غير توقع أقبل علي مرحبًا، وسألني كيف جئت إلى هنا؟ فأخبرته أنني قدمت عن طريق ميناء اللاذقية، وأن هناك إشكالًا تعرضت له من ضابط الجمارك الذي أراد سلب ما معي بحجة دفع الرسوم بطريقة غير قانونية. استأذن الأخ أمير من الإدارة، وخرج معي إلى مقر إدارة الجمارك في المدينة حيث يعمل أخوه وشرح له الحكاية، فاصطحبني أخ أمير إلى مدير عام الجمرك الذي رحب بي واستمع إلى ما لاقيته من عنت في الميناء، فقال لي: لا مانع من الترخيص لسيارتك بما تحمل مجانًا شريطة أن تغادر سوريا خلال (24) ساعة، فأجبته: إنني لم أتحمل مشاق السفر من اليونان إلا لكي أرى سوريا باعتبار تلك زيارتي الأولى، ثم أن

أمي -رحمها الله- لا تريدني أن أصل إليها خيالًا ميتًا، ورخصة يوم فقط للعبور ستجعلني أسرع السير في طرق سيئة قد يقع لي بها حادث مؤلم، وبعد حوار قصير وافق على تمديد البقاء في سوريا لمدة (15) يومًا.

خرجت من إدارة الجمرك برفقة أمير وأخيه نحمل توجيه مدير عام الجمارك حيث قمنا بتسليمه إلى ضابط الجمارك الذي صنع المشكلة وأفهمه أخ أمير على ضرورة إنهاء إجراءات دخول السيارة بدون مشاكل أو رسوم، وهز هذا الضابط رأسه بالموافقة، هنا غادر أمير وأخوه الميناء، وحينما طلبت من الضابط تنفيذ الأمر وإنهاء الإجراءات «عادت حليمة لعادتها القديمة» وأصر على موقفه السابق، واستمر الأمر بيني وبينه في أخذ ورد لمدة ساعة كاملة وهو يزداد عتوًا ونفورًا.

استغرب الأخ أمير وأخوه تأخري فعادا إلى الميناء حيث وجداني في حوار مرتفع اللهجة مع ضابط الجمارك، وأبلغتهما بأن هذا الضابط تنكر للأمر الصادر من المدير العام ورفض الترخيص بدخول السيارة إلا بعد دفع الرسوم على مستلزماتي

الشخصية، هنا قام أخو أمير بنهر الضابط وأبرز له بطاقته، وأمره بتنفيذ الأمر بدون أن ينبس بكلمة، هنا اضطر الضابط للموافقة بهز رأسه ولكن أخو أمير سليمان قال: لن نغادر الميناء إلا والسيارة معنا، هنا اضطر ضابط الجمارك إلى ختم التصريح بدخول السيارة.

غادرنا الميناء دون أن ندفع ليرة واحدة واتجهنا إلى المدينة، ونظرًا لأن المدينة لا يتوفر بها مخيمات سياحية اضطررت للإقامة في أحد الفنادق في قلب المدينة كان في مستوى (3) نجوم إذ لم يكن في ذلك الوقت يوجد في اللاذقية فنادق (5) نجوم سوى فندق واحد وبعيد نسبيًا عن مركز المدينة حيث يقع على الشاطيء الأزرق.

أقمت في اللاذقية ثلاثة أيام في ضيافة مميزة وكرم وطيب معشر من الأخ أمير وأخوه ومن قابلته من أصدقائهما.

كنت في النهار أقوم بجولة لوحدي في أسواق وشوارع وحارات اللاذقية؛ لأن زميلي أمير كان مشغولًا بعمله مدرسًا في إعدادية جابر بن حيان، أما في المساء بداية من الساعة

الرابعة فلم أكن أفترق عن الأخ أمير إلا للنوم فقط.

كنا نقضي وقتًا لا بأس به على الشاطيء الأزرق حيث المقاهي والمعالم المتميزة، كما قمت بزيارة قرية (أوغاريت) وهو الاسم القديم لمدينة اللاذقية، والتي يرى علماء الآثار أنها شهدت انبثاق أول لغة مكتوبة، حيث شاهدتُ نماذج من تلك محفورة على الصخور، كما قمت والأخ أمير سليمان بزيارة إلى رأس البيط وكسب حيث الجمال والخضرة الدائمة والجو المعتدل والبحيرات الزرقاء والتي لا تبعد عن اللاذقية سوى (25 كم)، وأخذت جولة على الحمامات التركية القديمة التي ما زالت تؤدي عملها، كما قضيت أوقاتًا رائعة مع أصدقاء أمير سليمان حينما يجتمعون ليلًا على لعبتي (الطرنيب والشطرنج).

كنت قد لاحظت خلال تجوالي سيرًا على الأقدام كثرة السيارات التي يبدو على جسمها الخارجي آثار رصاص مما يدل على أن المدينة قد مرت في فترة سابقة باضطراب أمني.

لا أدعي أنني قد عرفت مدينة اللاذقية معرفة تامة خاصة من ناحية آثارها وذلك لعدم وجود وتوفر أية مطبوعات أو

نشرات أو كتيبات تتحدث عن السياحة في تلك المدينة.

* * *

من عَنَّابَة إلى أشَيْقِر (5)

أمضيت أربعة أيام في اللاذقية بما فيها يوم وصولي، واستأذنت من صديقي أمير لأواصل السفر إلى حمص التي تبعد (190 كم) تقريبًا.

في الصباح الباكر كنت في طريقي إلى حمص عن طريق الساحل السوري، حيث مررت بمدينة بانياس ولكنني لم أتوقف بها، وعند منتصف الضحى كنت في مدينة حمص، حيث اتجهت لاستئجار غرفة في فندق الميماس نظرًا لأنه لا يوجد مخيمات سياحية حول المدينة لدواعي أمنية.

أخذت وقتًا للراحة يمتد من دخولي الفندق في حدود الساعة العاشرة صباحًا حتى العصر، حيث قدت سيارتي وذهبت للبحث عن شارع عدي بن زيد لزيارة صديقي وجاري في مدينة عنابة الفنان عبد القادر عزوز، وجدت الشارع وللأسف لم أجد زميلي عبد القادر الذي لم يصل بعد من عنابة أو أنه قرر عدم المجيء هذه العطلة.

قررت استغلال ما تبقى من النهار في جولة داخل أحياء مدينة حمص، فأوقفت السيارة، وقمت بجولة على الأقدام دون هدف محدد، وبينما أنا أسير في إحدى الساحات الصغيرة مررت بمتجر لألعاب الأطفال، وشاهدت من خلف الزجاج شبح صاحب المتجر الذي تهيأ لي أن وجهه ليس غريبًا علي، دنوت من زجاج المتجر وحدقت النظر كثيرًا في هذا الشبح ليتبين لي على وجه اليقين أنه الأستاذ (يوسف) الذي كان يعمل مدرسًا للفلسفة في الثانوية التي أعمل بها في عنابة وسكن معي في نفس العمارة لمدة (4) سنوات، كانت إحداها في شقة زميلي عبد الله التي لم تؤثث بعد فأعطيناها للأستاذ يوسف بينما ظل الأخ عبد الله ساكنًا معي في شقتي الخاصة.

اشتهر (يوسف) بالبخل والتقتير لذا لم يشتر سيارة لنقله إلى المدرسة رغم بعدها عن مقر سكنه، واكتفى بأن علق جدولي المدرسي وزميلي ناصر -رحمه الله- وزميلي سليمان على حائط غرفته لكي يعرف من يتوافق جدوله معه فيرافقه في النزول للمدرسة، وظلت هذه طريقته طيلة (4)سنوات لم يدفع فيها

قرشًا واحدًا لسيارة أجرة.

كما أنه دعانا ذات يوم لتناول الغداء عنده، ورغم أن هذه الدعوة أصابتنا بالدهشة والاستغراب لأننا نعرف عنه البخل إلا أننا وافقنا على تلبية الدعوة من باب حسن الظن، وحينما حان وقت الغداء إذ به يقدم إلى جردلًا (سَطْل) أذيب فيه سكر بطريقة مكثفة وقد أغرق في هذا السكر قطع من الباذنجان، هذا للأسف الشديد هو طعام الغداء.

حينما دخلت على الأستاذ (يوسف) -رحمه الله- في متجره في حمص ورآني لاحظت أنه أصيب بامتعاض شديد، واتضح ذلك من برودة الاستقبال ولم أندهش لهذا الموقف؛ لعلمي المسبق ببخله الشديد، لم يقدم لي حتى فنجان قهوة، وإنما رأيته يرفع سماعة الهاتف ويتكلم مع شخص آخر لم أكن لأعرف من هو، وبعد أن أنزل سماعة الهاتف ومرور ربع ساعة فوجئت بشخص يدخل المتجر، إنه الأخ: (سليم النجار) -رحمه الله-.

كان سليم معنا في عنابة وكان من ضمن أعضاء البعثة السورية، وحينما انتهت مدة الإعارة رفض العودة وأقام في

عنابة وتزوج جزائرية، ولم يلبث أن طلقها بعد أن رزق بطفل وعاش حياته بوهيميًا بلا عمل رسمي، وإنما كان يتاجر بالعملة في السوق السوداء وبيع سيارات (الفيراي) كما يسميها الجزائريون، وهي (السيارات المشلحة)، وينتقل في سكنه بين شقق الأصدقاء من أعضاء البعثة السورية، وكان زميلنا الفنان عبد القادر عزوز ابن عمته، ولكن كان مرتبطًا أكثر بزميل سوري يشبهه في كل شيء اسمه: (حمزة)، كان سليم غريبًا في تصرفاته التي اعتاد عليها عارفوه، وكان منها أنه يشعل سيجارته صباحًا عند الخروج من المنزل ويخرج وهو لا يحمل كبريتًا وإنما يظل يشعل السيجارة الجديدة من المحترقة طوال النهار وحتى تحين ساعة نومه، لكن العجيب أنه بعد أن عاد إلى حمص ترك التدخين نهائيًا بعد فترة، وكان عندما يخرج صباحًا من منزله يضع سيجارة على أذنه ويخرج وحينما يجلس مع أصدقاء مدخنين يأخذ السيجارة من أذنه ويضعها بين أصابعه، ولكنه لا يشعلها إطلاقًا وإنما يمررها على شفتيه كالمدخن تمامًا، وهكذا يستمر حتى ساعة النوم، ألم أقل أنه كان غريبًا

وبوهيميًا؟!.

تلقاني (سليم) بفرح شديد رغم أن علاقتنا في عنابة كان يسودها بعض الفتور ورحب بي ترحيبًا حارًا، وسألني: أين تسكن؟ فقلت: في فندق الميماس، هنا أصر على خروجي من الفندق وأن أكون ضيفه طيلة بقائي في حمص، ولم ينفعني اعتذاري شيئًا، وذهب معي للفندق لأخذ الحقيبة وأدفع أجرة ليلتي التي لم أنمها فيه، وذهبت معه إلى منزله في حي الحسين لأبقى ضيفًا معززًا مكرمًا عنده وعائلته الكريمة طيلة ثلاثة أيام بلياليها رأيت فيها من صنوف الكرم ما لم ألاقيه من أحد إلا القليل.

أما (يوسف) فلا شك أنه قد فرح بذهابي مع الأخ سليم، وكأنني كنت صخرة تثقل كاهله متناسيًا ما أسديت وزملائي له من معروف طيلة أربع سنوات في عنابة.

زرت مع الأخ سليم جميع معالم حمص المتاحة في ذلك الوقت، مثل: القلعة، ومسجد خالد بن الوليد، والحمامات التركية، والأسواق الشعبية، وجامع عمر بن عبد العزيز،

والذي زرته مرة أخرى منذ عشر سنوات لأجد أن تكملة بنائه قد توقفت منذ ثلاثين عامًا.

كما كنت والأخ سليم وابن أخته زهير نتناول طعام العشاء في المطاعم الجميلة على ضفة نهر العاصي والتي كانت في تلك الأيام خارج المدينة، مثل: الأهرام والغاردينيا وديك الجن، كما قمت بجولة في مدينة حماة القريبة بزيارة القلعة والتجول في أسواقها، وزيارة النواعير الشهيرة على نهر العاصي، حيث تناولنا طعام الغداء في قلعة السلطان زنكي على أنين النواعير.

للأسف الشديد حان وقت سفري ولم يأت عبد القادر عزوز مما جعلني أشعر بأن زيارتي لحمص كانت ناقصة إلا أن لطف وكرم الأخ (سليم) خفف عني هذا التصور، أبلغت صديقي سليم عزمي على السفر غدًا، ولكنه حاول أن يثنيني عن ذلك على أمل مجيء عبد القادر، ولكنني أصررت على السفر لأن شهر ذي الحجة على وشك الدخول وأنا أريد أن يكون العيد عند أهلي في أشيقر.

هنا أبلغني الأخ سليم أنه وابن أخته زهير سيرافقانني إلى

دمشق، وحينما رفضت لما في ذلك من إزعاج لهما، قال سليم: الأمر ليس بيدك فالطريق إلى دمشق (160كم) مزروعة في كل (20 كم) بمراكز تفتيش تابعة لسرايا الدفاع التي تأتمر بأمر رفعت الأسد وليس الحكومة السورية، ولو ذهبت لوحدك لسلبوك كل شيء، ولذا فلا بد من السفر معك حتى لا يحدث لك كما حدث لك في اللاذقية، وليس قربك سليم ولا أمير، وافقت على ما قاله الأخ سليم، وفي الصباح الباكر كانت السيارة البيجو (504) تقطع بنا الطريق إلى دمشق وفعلًا كنا نجد مركز تفتيش على بعد (20 كم) وحينما يطلعون على وثائق الملكية ويكتشفون أن رفاقي سوريون لا يتعرضون لي بشيء، حتى وصلنا بالسلامة إلى دمشق، واستأجرت غرفة في فندق في موقف سوق الهال، هنا أوضح لي الأخ سليم بأنه سيعود إلى حمص في الحافلة، فرفضت قائلًا: إن الضحى في منتصفه وأنت وزهير ضيفان علي ولا بد من أداء بعض الواجب لكما وأخذتهما في رحلة إلى الزبداني ومضايا وبلودان حيث تناولنا طعام الغداء، وقريبًا من العصر كنا في دمشق حيث عادا إلى حمص بواسطة الحافلة.

أقمت في دمشق عدة أيام، في بدايتها قمت بإهداء ما معي من أواني المطبخ والشاي على حارس الفندق (وقد ندمت على ذلك كثيرًا) إذ كان الواجب أن تبقى ذكرى لهذه الرحلة الخالدة كما بقيت السيارة والخيمة.

زرت في دمشق ما أتيح لي معرفته من الأماكن المهمة، مثل: القلعة وسوق الحميدية والحمامات الشعبية ودار أسعد وسوق ساروجة وباب البريد ومسجد رقية والسيدة زينب والتجول في حي المزرعة القديم وتناول الطعام عدة مرات في مطاعم البحصة، وكررت الزياة إلى منطقة الزبداني وبلودان، وبحثت عن زميلي وجاري في عنابة الأخ سلطان نكد الحاتم ولكنني لم أجده، وبالطبع زيارة الجامع الأموي، وقبر صلاح الدين الذي يقع في مبنى خاص شمال المسجد، ومحطة حديد الحجاز، والتكية السليمانية، ولكن كان أهم ما يشغلني هو العثور على «الحكواتي» الذي ما زال يمارس هوايته ومهنته منذ عصر المماليك، وأخيرًا تمكنت من الوصول إليه في مقهى شعبي في شارع العمارة قرب الحميدية كان الحكواتي الذي لم أكن أعرف

اسمه يلبس لباسًا شاميًا شعبيًا ويجلس على كرسي مرفوع فوق طاولة وعلى يمينه وشماله طاولة نحاسية وبيده سيف يضرب به على الطاولتين لحظة الحماس والشجاعة في بعض فصول الحكاية التي كانت تحكي سيرة (الظاهر بيبرس).

وكان نظام المقهى يلزم الجالسين بدفع ثمن الشاي والقهوة أو الشيشة العجمي وإن لم يتناولوها، والأغرب من ذلك أن غالبية الجالسين من السواح الأجانب ولا يوجد سائح عربي سواي، وقد تفاجأنا نحن الجالسين بدخول أحد رواد المقهى ممن كانوا في ليلة سابقة يستمعون إلى سيرة عنترة بن شداد ويصيح في الحكواتي قائلًا: «يطول عمرك اللي أصفت (قصفت) لنا رقبة عنترة».

بعد أن انتهى الحكواتي من القراءة المحدد له وقتها بساعة كاملة خرجت من المقهى وكان أملي أن أعرف اسم ذلك الحكواتي، ولكن لم يتيسر لي ذلك، وفي عصر اليوم الثاني كنت أقوم بجولة على الأقدام وقفت قرب شارع العمارة على مكتبة كانت تبيع الكتب القديمة، ومددت يدي لأخذ كتابًا قليل الورقات يروي

حكايات عن دمشق وحبة خال سميرة توفيق وحينما فتحت الكتاب إذ بعيني تقعان على صورة ذلك الحكواتي الذي كنت عنده بالأمس وكان اسمه:عبد المهيمن، والمؤلف اسمه: هاني أبو الخير.

تبين لي فيما بعد وجود حكواتي آخر في شرق الجامع الأموي اسمه: (أبو علي شاهين) يقرأ السير في مقهى النوفرة، وقد زرته مرارًا في زيارات متعددة إلى دمشق، ونظمت فيه قصيدة بعنوان «حكواتي دمشق» موجودة في ديواني «أشيقر والسفر».

نحن الآن في أواخر شهر ذي القعدة وأنا أرغب حضور عيد الأضحى في أشيقر وأمامي رحلة لا بد من البقاء فيها أيامًا إنها الأردن، ثم طريق طويل يصل إلى حدود (1500كم) من الحدود الأردنية إلى حيث أهلي في أشيقر، لذا قررت السفر غدًا صباحًا على وعد مني أن أعود مرة أخرى لزيارة أطول وأشمل، غادرت دمشق متجهًا للحدود الأردنية مرورًا بمدينة درعا السورية وهي مدينة بدوية الطابع ويتضح ذلك من انتشار اللباس العربي بين سكانها.

في الحدود السورية تقريبًا لم أتعرض لأية مشاكل مع رجال

الجمارك لأنه لم يبق معي سوى الخيمة وفراش النوم ولأنني في طريقي للخروج، وكل ما حدث هو بعد أن سددت رسوم المغادرة لم يحاول الموظف إعادة ما تبقى لي من الحساب، وشغل نفسه بأعمال أخرى وكأنه يطلب مني الإنصراف، وفعلاً انصرفت متجهًا إلى سيارتي معتبرًا ما بقي بذمته إكرامية خاصة وأنه لم يحاول استغلالي كما حدث في اللاذقية.

* * *

مِنْ عَنَّابَة إلى أشَيْقِر (6)

وصلت مركز الحدود الأردنية في الرمثا، ولم يستغرق بقائي في مركز الحدود أكثر من نصف ساعة فقط حيث وجدت الترحيب وحرارة الاستقبال والتعامل مع السائح بدبلوماسية وخلق كريم، غادرت مركز الحدود مرورًا بمدينة الرمثا التي لم أتوقف بها والتي يبدو لي من رؤية شوارعها أنها مدينة بدوية الطابع عشائرية المظهر، يتضح ذلك من أن غالبية لباس سكانها كان اللباس العربي مما يعني أن تلك المدينة ومدينة درعا توأم مقسوم بين دولتين.

واصلت طريقي إلى عمّان، وفي الطريق مررت بمدينة جرش وهي مدينة هادئة وقليلة السكان، وقد حرصت عند المرور بها على زيارة المدرج الروماني الذي يقام على مدرجاته كل عام مهرجان جرش الغنائي، حيث أمضيت هناك قرابة الساعتين، وقد لاحظت شبهًا كبيرًا بين هذا المدرج ومدرج مدينة قالمة الجزائرية، وصلت إلى مدينة عمّان في حدود الساعة الواحدة ظهرًا ولأنه لم يكن يوجد مخيمات سياحية كما هي

الحال في سوريا سكنت في فندق اسمه: (المجد) في قلب مدينة عمّان، حيث قضيت وقتًا للراحة من وعثاء السفر وعصرًا خرجت للتجوال على قدمي في الشوارع المحيطة بالفندق لأعود مساء إليه ولم أغادره تلك الليلة ،وفي الصباح وعند ذهابي للإفطار في مطعم الفندق لاحظت وجود مجموعة من رجال الأمن تحقق مع بعض سكان الفندق ولم أفلت من التحقيق بسبب العثور على مقيم في الفندق متوفيًا في سريره وربما كانت وفاته بسبب جلطة.

للأسف الشديد لا يتوفر في ذلك الوقت أية كتب أو معلومات أو إرشادات عن مدينة عمّان مما يعني جهل السائح بها، لكنني زرت المسجد الحسيني كما زرت المدرج الروماني في عمّان والذي لا يختلف كثيرًا عن المدرج الروماني في جرش، وكذلك حي الشميساني وكان حيًا حديث النشأة ويعتبر أفضل حي في مدينة عمان بمبانيه الحجرية ومطاعمه النظيفة ومقاهيه الراقية.

في اليوم التالي غادرت مدينة عمّان إلى مدينة العقبة التي تقع

جنوبًا، وكانت آنذاك مدينة صغيرة ليس فيها ما يجذب السائح سوى الشاطئ الذي توجد عليه عدد من الفنادق الجيدة، حيث سكنت في أحدها مقابل ميناء إيلات[1] الإسرائيلي الذي لم يكن يفصله عن ميناء العقبة سوى أعمدة مغروسة في أرضية الخليج تحوطها الأسلاك الشائكة فقط، وكنت أرى المتزلجين على الجانب الإسرائيلي بوضوح.

لم أجد في العقبة في ذلك الوقت ما يدفعني للبقاء فيها عدا فنادقها الجيدة لذا قررت مغادرتها إلى منطقة البتراء الأثرية، حيث وصلت إليها منتصف الظهر، هناك حاولت الدخول بسيارتي إلى وادي موسى حيث تطل من الجبال مساكن الأنباط العرب، وأشهرها: خزنة فرعون والمحكمة وقصر البنت، ولكن المشرفين على حماية الآثار رفضوا، وقالوا: أمامك أن تستأجر حصانًا أو تسير على قدميك، والحمد لله أنهم رفضوا لأنني بعد أن توغلت في الوادي اكتشفت أنه لا يمكن لسيارة

---

(1) «إيلات» كان اسمها: أم الرشراش، تنازلت عنها مصر بعد حرب (1956م) لإسرائيل مقابل انسحاب العدوان الثلاثي من سيناء، ومدن القناة.

خاصة مثل سيارتي أن تدخل إليه.

طبعًا لم أستأجر حصانًا لعدم معرفتي بمباديء الفروسية وخشية الوقوع، وفضلت السير على الأقدام، حيث قضيت ما لا يقل عن أربع ساعات سائرًا في الوادي ذهابًا وإيابًا وعيناي لم تكفان عن النظر للأعلى حيث البيوت المحفورة في أعلى الجبال على شكل مغارات، وكان الأثر الوحيد الذي يمكن الدخول إليه لكونه مشيدًا على سطح الأرض هو خزنة فرعون الموجودة في مدخل الوادي إلا أنه في ذلك اليوم كانت مغلقة في وجه السواح.

لن أنسى وأنا في عودتي من رحلتي القدمية طعم فنجان القهوة الذي أكرمني به أحد البدو الذي كان يقيم في خبائه داخل الوادي وربما يكون عنصرًا من أمن البتراء.

عصرًا كنت خارجًا من الوادي ومتوقفًا أمام خزنة فرعون وأعجبني جو المنطقة رغم حرارته وكثرة السواح وقررت المبيت في هذه المنطقة، ولكن للأسف لم يكن فيها آنذاك سوى فندق واحد كان مشغولًا بكامله بالسواح ولا مجال للحصول

فيه على غرفة لعدة أيام قادمة، لذا قررت مغادرة البتراء وفي نفسي شيء من حتى متجهًا إلى مدينة معان القريبة من البتراء وتعتبر عاصمة المنطقة، وصلت إلى هذه المدينة قبيل المغرب بقليل حيث كانت الشوارع تغص بمئات الحجاج الفلسطينيين المتجهين إلى مكة المكرمة.

كانت معان مدينة بدوية بامتياز وحسب نظرتي أنها وسط بين المدينة والقرية تمامًا مثل مدينتي الرمثا ودرعا.

لم يكن فيها سوى فندق واحد، ولما طلبت غرفة أبلغني موظف الاستقبال بأن لديه غرفة واحدة بثلاثة سرر سوف يعطيني أحدها ويؤجر السريرين الباقين على نزلاء جدد، ولكنني رفضت وطلبت تأجير السرر الثلاثة علي وهو ما تم.

أمضيت الليل متنقلًا بين أفواج الحجاج وأحيانًا أنضم إلى إحدى حلقاتهم التي افترشت الأرصفة مستمعًا لأحاديثهم ومشاركًا فيها، واكتفيت من العشاء ببعض الشطائر والعصير لأنني لم أجد مطعمًا في المنطقة التي قمت بالجولة فيها على مستوى جيد.

لم أر في معان أي أثر أو مكان يستحق الزيارة عدا البتراء، أما المدينة فمظهرها يوحي أنها حديثة النشأة في أرض صحراء.

غادرت معان في منتصف النهار في طريق العودة إلى عمّان وفي الطريق مررت بمدينة الكرك التي قررت زيارة قلعتها التاريخية، وعندما وقفت تحت سورها تقدم إليَّ أحد الأشخاص واسمه: (عواد بن بصيص الحباشنة)[1] على أنه مرشد سياحي وأنه مستعد لمرافقتي عند دخولي القلعة ليشرح لي تاريخها وأحداثها، ولكنني رفضت ذلك، هنا طلب مني أن يرافقني كصديق لا كمرشد سياحي، فوافقت وسار معي وأنا أتنقل من مكان إلى مكان في القلعة وأحدثه بما أعرف عنها من معلومات وعن صاحبها أرناؤط ومعركة حطين ومقتل أرناؤط بيد صلاح الدين الأيوبي، حيث قال: إنك تملك من المعلومات ما لا أعرفه.

غادرت الكرك متجهًا إلى عمّان وفي الطريق مررت بقرية

---

(1) كانت مهنته الأساسية كما أخبرني تجارة الخيول الأصيلة، وتصديرها للسعودية.

اسمها: (المزار)، وسبب تسميتها بهذا الاسم: أن الناس تزور فيها شهداء معركة مؤتة، ويوجد بها مزار لقبر زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة -رضي الله عنهما-، توقفت أمام الضريحين لعدة دقائق فقط مترحمًا عليهما وواصلت طريقي إلى عمّان حيث وجدت رجلًا يظهر من ملابسه أنه فَلَّاح، توقفت عنده حيث طلب مني أن يرافقني إلى وادي اسمه: (موجب) في الطريق إلى عمّان، وافقت فكان هو الشخص الثاني الذي يرافقني بعد الأخ الكويتي الذي رافقني من فلورنسا إلى روما في إيطاليا، ووصلت إلى مشارف وادي الموجب حيث أكد علي مرافقتي بالثاني في النزول لخطورة الطريق وهو ما التزمت به، وفي قلب هذا الوادي المخيف أنزلت مرافقي عند باب مزرعة صغيرة حيث عرض علي ضيافته ولكنني اعتذرت (وليتني لم أفعل) هنا أكد علي مرة أخرى على الحذر عند الصعود من الوادي بخطورة الطريق وضيقه وشدة الانحدار، فهو ينحدر من الجنوب بعمق (9كم) وصعودًا (81 كم)، ويبدو أنه كان قديمًا نهرًا يصب في البحر الميت.

وصلت إلى عمّان ولم يكن هناك ما يدعو للعودة إليها من الجنوب اللهم إلا أن تكون نقطة الانطلاق الأخيرة لمركز الحدود السعودية.

أقمت في عمّان يومين حيث قررت السفر للسعودية، فنحن الآن في 7/ 12/ 1400هـ حيث انطلقت ظهر ذلك اليوم متجهًا إلى الحدود السعودية مخترقًا منطقة الزرقاء، وفي الطريق الذي يربط بين عمّان ، ومركز العمري الأردني وجدت جنديًا على الطريق طلب مني أن يرافقني إلى العمري فوافقت، حيث حدثني أنه شركسي ويعمل جنديًا في معسكر الواحدات القريب من العمري، وأنه ممن ساهموا في إنهاء تمرد الحرم المكي مطلع عام (1400هـ).

أنزلت الجندي وواصلت طريقي إلى مركز الحدود (العمري)، لم يتطلب خروجي من الأردن وقتًا طويلًا نتيجة المعاملة الحسنة من موظفي المركز سواء شرطة أو موظفي الجمارك.

وصلت مركز الحديثة السعودي قرب العصر لم يكن معي

ما أخشاه من الناحية الجمركية لأن ما لاقيته في ميناء اللاذقية علمني أن أدخل خفيفًا وأخرج خفيفًا، ولكن بطء الإجراءات الجمركية تسبب في تأخر لا مبرر له؛ وذلك بسبب تدني مستوى الخدمات الجمركية واعتمادها على التفتيش اليدوي وليس الآلي ويكفي للدلالة على ذلك مشاهدتي موظف الجمرك وهو يغرس يده إلى حد الكتف في كيس حبات الزيتون الذي أحضره راكب آخر بحثًا عن ممنوعات.

عمومًا لما حان دوري في التفيش لم يوجد معي سوى خيمة وفراش بلاستيكي وحقيبة ملابس لذا انتهى الأمر سريعًا، وكان علي أن أتوجه للشرطة للحصول على ختم الدخول.

أخذ موظف الجوازات جواز سفري وأخذ يقلب صفحاته، وحينما رأى كثرة الأختام واختلط عليه الأمر، سألني: هل ذهبت إلى إيران؟ قلت: لا، إيران ليست في طريقي فرد علي قائلًا: إحساسي يقول أنك قد ذهبت إلى إيران، قلت: لم التخمين هذا لا يصح وإذا كنت صاحب خبرة فأرني ختم السلطات الإيرانية، ثم أعقبت قائلًا: لو كنت ذاهبًا لإيران لن

أكون مجنونًا فأختم دخولًا وخروجًا على جواز سفري بل في ورقة خارجية حتى يخفى أمري على الآخرين.

أعاد موظف الجوازات تقليب الصفحات مرارًا بحثًا عن شيء غير موجود، وأخيرًا اضطر لإعطائي تأشيرة الدخول.

ركبت سيارتي وانطلقت داخل الأراضي السعودية قبيل المغرب بساعة تقريبًا متجهًا إلى طريف التي تبعد عن الحديثة مسافة (147كم) حيث وصلتها بعد غروب الشمس بقليل، لم أتوقف بها لأن أمامي طريق طويل يزيد عن(1000كم)، وبعد أن تجاوزت طريف فوجئت بدورية أمنية في الطريق توقفني، وبعد أن تصفحت أوراق السيارة، سألني أحدهم: كيف تكون سعوديًا ولوحة سيارتك أجنبية وملابس أجنبية؟ قلت: وما هو المنكر في ذلك، إنني قادم من غربة استمرت عامين وليس عندي ملابس تقليدية، هنا قال لي: إن عليك أن تبتعد عن الطريق وتنام لأن السير على الطريق ممنوع حاليًا في الليل على السيارات العادية نظرًا لكثافة حافلات الحجاج، قلت: وكيف تريدني أن أبيت في أرض خلاء لا ماء ولا شجر كأطفال

الخطيئة؟ هذا لا يمكن إطلاقًا، عندها قال لي: سنعطيك فرصة للتقدم لمسافة (30 كم)تقريبًا وهناك على يسارك توجد محطة بنزين وقهوة في منطقة حزم الجلاميد توقف بها حتى الصباح وسنعطي خبر للدورية الأمنية التي أمامك بإيقافك إن تجاوزت المحطة قبل الصباح، وافقت خاصة وأنني بحاجة إلى الراحة، واصلت طريقي حتى وصلت المحطة حيث اتجهت لتعبئة البنزين ثم ذهبت للقهوة وجلست على مركاز مصنوع من الخشب، وطلبت من العامل العشاء الذي لم يزد عن كبسة بلحم بعير يبدو أنه البعير الذي ركب مع نوح عليه السلام في السفينة.

بعد هذا العشاء الذي أرغمني الجوع على تناوله بقيت كعادتي ساعة قبل النوم لأعطي المعدة وقتًا لهضم هذا العشاء الثقيل، ثم أخلدت إلى النوم وصحوت فجرًا وأديت الصلاة ثم عدت للنوم مرة أخرى، وعند إشراق الشمس طلبت الإفطار المؤلف من شاي وفول بارد رديء، ولكن على طريقة «إذا لم يكن إلا الأسنة مركب» تناولت هذا الإفطار وواصلت

طريقي، وبعد ساعة تقريبًا كنت في مدينة عرعر حيث توقفت عند محل لتركيب أجهزة التسجيل، وطلبت منه استبدال تسجيل السيارة المعطل وهو ما تم، وحينما انطلقت متجهًا إلى رفحاء وجدت شخصًا واقفًا على الطريق توقفت وأركبته نظرًا لطول الطريق وخلوه من البشر وحاجتي إلى مؤنس وكان هذا الراكب يريد حفر الباطن، وبعد قليل وجدت شخصًا ثانيًا يريد روضة هباس قرب رفحاء فأركبته، ومضينا على بركة الله إلى حيث رفحاء التي تبعد عن عرعر (300 كم)، وبعد أن وصلنا مفرق روضة هباس أنزلنا الراكب الثاني، وواصلت طريقي إلى حفر الباطن مع الرفيق الأول، كان ذلك الرفيق يحدثني طوال الطريق عن الحوادث المرورية التي مرت به من انقلاب أو اصطدام كونه قائد سيارة تاكسي، حتى أنه في إحدى المرات انقلب قرب أحد الجسور ولكن الحادثة كانت خفيفة فلم يصب سوى بكسر في ذراعه اليسرى وليس معه ركاب، وكان من حسن حظه أنه انقلب قرب مجموعة جاءت في رحلة برية وكانت تطبخ غداءها تحت الجسر، يقول هذا

الشخص: كانت المجموعة في غفلة عني، ولكنني لاحظت أن سائق إحدى السيارات قد نسي مفاتيحها عليها ولحاجتي للإسعاف أخذت هذه السيارة وانطلقت بها، وحينما رآني المجتمعون انطلقوا ورائي باعتباري سارقًا حتى وصلت إلى باب المستشفى، وحينما نزلت حاملًا يدي اليسرى على اليمنى، عرفوا السبب في أخذ السيارة، فما كان منهم إلا أن ظلوا معي حتى تم إسعافي على خير. ثم سألني محدثي: هل تريد أن أتولى قيادة السيارة لترتاح؟ قلت: وهل أنا مجنون أعطي سيارتي لشخص ارتكب أكثر من عشرة حوادث مرورية بعضها مميت!، لا لن يكون.

عصرًا وصلت إلى حفر الباطن (300 كم) من رفحاء وأنزلت رفيقي وانعطفت يمينًا متجهًا إلى المجمعة على بعد (300 كم) تقريبًا متجاوزًا عشرات القرى في طريقي، مثل: أم الجماجم والأرطاوية وغيرها، وبعد المغرب بقليل كنت في قلب المجمعة منهيًا رحلة استمرت أكثر من (900) كيلو تقريبًا من حزم الجلاميد إلى المجمعة في يوم واحد.

كنت متعبًا ومرهقًا، ولذا فكرت في الابتعاد قليلًا عن المنازل والخلود إلى النوم قبل مواصلة سفري إلى الرياض جنوبًا ثم شقراء فأشيقر، ولكن قبل أن أبدأ في التنفيذ تولد لدي إحساس بوجود طريق يتجه من المجمعة إلى أشيقر وشقراء، فقلت: لماذا لا أسأل فإن صدق إحساسي فلا داعي للمبيت ولا مواصلة الطريق إلى الرياض.

استوقفت رجلًا فسألته فأخبرني بوجود طريق يتم تنفيذه حاليًا ينتهي بأشيقر ولكن ليس متأكدًا من انتهائه. قلت: لا يهم سأسير عليه وليكن ما يكن.

مما شجعني على ذلك أن الأرض من المجمعة وحتى «خَلّ العُشَر» كانت صخرية أو ترابية صلدة لا مجال فيها لإعاقة السيارة، لذا أخذت طريقي مع هذا الطريق متجهًا جنوبًا كنت أحيانًا أسير على جزء معبد وأحيانًا على طريق مردوم لم يتم تعبيده بعد مما يضطرني للنزول عنه أحيانًا لأغوص في طريق مغبر حفرته عجلات المعدات الثقيلة التي تعمل في ردم الطريق، ولكن الأمور ولله الحمد سارت على خير فلم تتعرض

سيارتي لأية مشاكل خاصة الغوص في أرض رخوة أو مستنقع، ولكن ما أخافني هو وصولي إلى «خل العشر» المطل على روضة رمحين بأشيقر، ماذا لو لم يكن معبدًا؟ إذًا سأضطر للعودة شمالًا إلى الداهنة لأخذ طريق الداهنة القصب ثم الانعطاف يمينًا قبل المشاش متجهًا إلى شقراء.

ولكن من حسن الحظ أنني وجدت «خل العشر» معبدًا وسالكًا للسيارات، فاجتزته ولم يمض ربع ساعة بعد صلاة العشاء إلا وكنت متوقفًا أمام منزل العائلة في حي الحويطة بأشيقر[1] منهيًا رحلة (بطوطية) استمرت (69) يومًا وما لا يقل عن (7000 كم) برًا وبحرًا، كان ذلك مساء يوم الخميس 8/ 12/ 1400هـ.

* * *

(1) انظر صورة السيارة: ملحق رقم 6 .

الإطارات الأربعة

قد تخرج صباحًا للذهاب إلى عملك فتجد أن أحد إطارات سيارتك فارغ من الهواء، وقد تحاول تشغيلها بلا فائدة لوجود عطل في شبكة الكهرباء أو لنفاذ البنزين، وقد تجد مؤخرتها مهشمة بفعل مراهق اصطدم بها عند منتصف الليل وهرب، كل ذلك يمكن تصديقه لأنه لم يخرج عن دائرة المعقول. إنه فنتازيا! .

وقد تجد سيارتك صباحًا وقد فرغت إطاراتها وهي واقفة من الهواء بفعل فاعل في منتصف الليل بدافع الحقد والانتقام.

كل ما حدث يقبل تصديقه إنما أن تنفجر إطارات السيارة الأربعة دفعة واحدة وهي تسير في طريق دولي وليس بها سوى مالكها وزميله فإن ذلك يبدو نوعًا من الخيال العلمي أو الخيال المجنح الذي لا يمكن تصديقه لخروجه عن دائرة المعقول.

ولكنني هذه المرة مضطر لتصديق ما حدث، ليس لأنني سمعت بوقوع هذا الحادث من رجل ثقة لا يتطرق الشك إلى

كلامه دون أن أرى الحادث بعيني، نعم أنا مضطر للتصديق، وإلزام الآخرين بتصديقي أيضًا.

ويعود السبب في ذلك إلى أن هذا الحادث وهو انفجار الإطارات الأربعة حدث لي ولزميلي سليمان معًا فكيف كان ذلك ومتى؟

كان ذلك في ربيع عام (1397هـ/ 1977م) حينما بدأنا رحلة سياحية تمتد لأكثر من عشرين يومًا تبدأ من مدينة عنابة في الشرق الجزائري إلى مدينة طنجة في شمال المملكة المغربية على ظهر سيارتنا (فيات 128) صفراء اللون.

وصلنا مركز الحدود الجزائرية المعروفة بحدود (مغنية) قادمين من وهران، حيث أنهينا إجراءات الخروج من الجزائر ليشعر كل منا وكأنه أزاح عن كاهله قطعة حجارة في ضخامة حجارة هرم خوفو، وذلك بسبب تعنت المراكز الجزائرية لحظة الدخول أو الخروج.

بعد عشر دقائق تقريبًا كنا في مركز الحدود المغربي المعروف بمركز وجدة، لم نتأخر كثيرًا في إجراءات الدخول نظرًا

للتعامل الجيد والمريح الذي يتلقاه السائح أيًا كان من مسؤولي المركز شرطة أو جمارك.

غادرنا المركز ونحن نشعر براحة نفسية بسبب حسن الاستقبال والابتسامة التي لم تفارق قسمات رجال المركز.

وصلنا مدينة وجدة، وكانت أيامها مدينة صغيرة ولكنها نظيفة، أوقفنا السيارة وقمنا بجولة مشيًا على الأقدام لمدة ساعة تقريبًا، حيث قررنا أن نتناول غداءنا قبل مواصلة السفر إلى فاس لجهلنا بالإمكانات السياحية من مقاهي ومطاعم التي قد نجدها أو لا نجدها في هذه الطريق الممتدة (300 كم)، دخلنا أحد المطاعم التقليدية المغربية حيث تناولنا الغداء المكون من الطبق الشعبي الشهير (الكسكس) وطاجن اللحم بالبرقوق (ثَمَرٌ يشبه فاكهة: الخَوخ).

استغرق غداءنا مدة نصف ساعة أو تزيد قليلًا، حيث ركبنا السيارة وبدأنا أول خطوة في الطريق الطويل.

لم نستغرق وقتًا في الخروج من المدينة، لصغرها وعدم ازدحام شوارعها ووضوح العلامات الإرشادية التي وضعت

لراحة السائح بالدرجة الأولى، سلكنا الطريق الدولي إلى فاس، وكان مسارًا واحدًا إذ أن الطرق المزدوجة لم تكن قد انتشرت في المغرب، كما أن هذا الطريق دون المتوسط في كفاءته لذا رأينا أن الحل هو عدم السرعة خوفًا من المفاجآت، فكانت السيارة تسير بسرعة (80 كم) في الساعة، وأخذنا في تبادل الأحاديث على طريق (شن) «أتحملني أم أحملك؟»، وفجأة وبعد مغادرتنا مدينة وجدة بـ(20 كم) لاحظت لوحة مرورية مكتوب عليها (درك) مما يعني وجود مركز تفتيش أمني يقوم عليه الدرك الملكي وليس المرور.

طلبت من زميلي أن يخفف السرعة إلى حد التوقف؛ لكي لا نتجاوز الدرك الذي كان مكونًا من رجلين ومع كل منهما دراجة نارية تنهب الأرض نهبًا.

قبل أن يتمكن زميلي من تخفيض سرعة السيارة، كانت السيارة قد اصطدمت بسلسلة حديدية مفروشة على الإسفلت في طريق الخارج من وجدة ومثلها أخرى في طريق القادم إلى وجدة.

حدثت الكارثة لأن السلسلة الحديدية كانت لها رؤوس مدببة، كانت كفيلة بتمزيق الإطارات أيما تمزيق، وقد عرفنا ذلك من اختلال توازن السيارة التي أجبرتنا على التوقف على يمين الطريق، حيث فوجئنا بأن الدركيين قد وجها إلينا مسدسيهما تمهيدًا لإطلاق الرصاص علينا ظنًّا منهم أننا سنواصل طريقنا، لكنهما فوجئا بنزولنا من السيارة حيث اتجها إلينا بوجهين مقطبين، ولسانين يلفظان عبارات اللوم والتوبيخ من أمثال: ألا تريان؟ لماذا تسرعان؟، لكننا لم نرد عليهما لانشغالنا بما هو أكبر وهو الحالة المزرية للإطارات الممزقة التي رأيناها بعد أن قمنا بدورة حول السيارة.

طلب الدركيان منا الاطلاع على أوراق السيارة التي كانت باسم زميلي، فاطلعا على الملكية وإيصال التأمين، ثم طلبا جوازات السفر، وحينما بدأ أحدهما تصفح جوازي السفر وأدرك أننا سائحان من الجنسية السعودية تبدلت لهجة التخاطب من الغضب إلى الهدوء، ومن اللوم إلى الاعتذار لما حدث لنا.

أعيدت جوازا السفر إلينا، وسألنا أحد الدركيين: ماذا سنعمل؟ قلنا له: لا شيء أمامنا سوى إصلاح الإطارات الأربعة الممزقة أو شراء بديل عنها، ولكن المشكلة أنه لا يوجد بقربنا أية ورشة متخصصة في إصلاح الإطارات.

لم يكن أمامنا إلا العودة إلى وجدة مع إحدى السيارات التي تمر بنا، لذا قمنا في البداية بإنزال أحد إطاري المقدمة وركبنا بدله الإطار الاحتياطي، ثم اتجهنا للجانب الأيمن للسيارة حيث قمنا برفع السيارة من الوسط لنتمكن من إنزال إطارين وإبقاء السيارة مائلة إلى شقها الأيسر.

إذًا أصبح معنا ثلاثة إطارات ممزقة، هنا أوقف أحد رجال الدرك إحدى سيارات النقل الصغيرة وأمره بإيصال أحدنا مصحوبًا بالإطارات إلى إحدى الورش المتخصصة لإصلاحها أو شراء بديل وأكد عليه عدم التخلي عن هذه المسؤولية حتى يعود بالإطارات لتركيبها.

رحب سائق السيارة بتلك المهمة، وقام بتحميل الإطارات في الصندوق الخلفي وانطلق إلى وجدة مرفوقًا بزميلي سليمان.

بقيت واقفًا عند السيارة لحراستها من الفضوليين من ركاب السيارات التي يوقفها الدركيان للتفتيش، فإذا بهم يحومون على السيارة لمشاهدة آثار هذه الكارثة، وكان الدركيان لا يكلان عن طرد من يحاول الاقتراب من السيارة.

خفت حركة السيارات الذاهبة من وجدة والآيية، لذا وجدا الدركيان الفرصة ماثلة أمامهما للاستراحة في ظل الخزان الاسمنتي الطويل الذي يقع قريبًا من الإسفلت ويكاد ظله أن يصل إليه.

أخرج الدركيان شطائر محشوة باللحم الغنمي الأبيض وبدءا يأكلان، وتمت دعوتي لمشاركتهما فلم أستطع الرفض احترامًا لهما ولمعاملتهما الحسنة لنا، فاقتطعا نصف شطيرة وقدما إلي زجاجة (فانتا) باردة تقبلتها بكل سرور فشاركتهما الأكل والحديث الذي كان يدور حول موضوع الصحراء الغربية والصراع حولها بين الجزائر والمغرب، حيث كنت أشاركهما بالتعليق ليوجها إلي سؤالًا حول رأيي في تلك المشكلة، بالطبع كنت مقتنعًا بوجهة نظرهما لكوني أولًا في أرضهما وآكل

طعامهما ولكوني مقتنع تمامًا بسلامة الموقف المغربي وأنه على حق ولقناعتي أن الجزائر كانت منكرة للجميل المغربي في معركة التحرير.

تأخر زميلي في العودة بالإطارات، وقد فسرت ذلك بأنه يبحث عن إطارات جديدة وحينما أعياه البحث اضطر لتكليف إحدى الورش ترقيعها، أما صاحب السيارة فقد أبلغ صاحبي بتأخره أكثر من اللازم وأنه مضطر لتركه عند الورشة فلم يجد صاحبي بدًا من السماح له بالمغادرة وبقي وحيدًا.

نظر أحد الدركيين عقارب ساعته وأحسست بتذمره من تأخر زميلي فأقنعته بوجهة نظري حيث فوجئت بالدركي يوقف سيارة نقل أخرى ويبلغ سائقها بما حدث، ويطلب منه الذهاب إلى وجدة للبحث عن زميلي في المنطقة الصناعية وأعطاه وصفًا لصديقي وماذا كان يلبس.

ذهب صاحب سيارة النقل للبحث عن زميلي، وكم كان موفقًا حيث وجده سريعًا، وقد انتهى من إصلاح الإطارات الثلاثة.

تم تحميل الإطارات في خلفية السيارة، وانطلق السائق وزميلي عائدين إلينا.

حينما وصلا بدأت مهمة إنزال الإطارات، حيث تم تسليم إطار لأحد الدركيين، وتم تسليم الثاني إلي لوضعه على الأرض، أما الثالث فلم ينتظر زميلي والسائق، وقاما برميه على الأرض ليتدحرج في غفلة منا متجهًا إلى السلسلة ويصطدم بها لتعود «حليمة إلى عادتها القديمة» ويعود الإطار ممزقًا. إذًا أصبح لدينا إطاران ممزقان ويبدو أن الإطار الذي تدحرج إلى السلسلة كان راغبًا في ألا يذهب الإطار الرابع الباقي وحيدًا إلى وجدة فقرر العودة معه.

هنا كان لا بد أن يبقى زميلي مع الدركيين وأن أمضي بالإطارين إلى وجدة وهنا، وللمرة الثالثة أوقف الدركيان سيارة نقل صغيرة وطلبا من سائقها إيصالي إلى وجدة وإعادتي إلى حيث توجد سيارتنا المتعطلة.

كانت مهمة السائق سهلة لأن زميلي زوَّده بعنوان الورشة، حيث اتجهنا إليها وتم إصلاح الإطارين في وقت قصير، حيث

عدنا، وهنا قمنا بتسليم الإطارين إلى زميلي وأحد الدركيين ولم نسمح لأي إطار بأن يتدحرج في غفلة منا إلى السلسلة -كما حدث في المرة الأولى-.

أخرجت (30) درهمًا لأعطيها للسائق فرفض، فأقسمت عليه قائلًا: «ورب الكعبة» هنا اضطر لأخذها حيث نهره الدركي كيف يقبل، إلا أن السائق أبلغ الدركي أنه لا يستطيع رفض من أقسم برب الكعبة.

قمنا بتركيب الإطارين حيث استبدلنا بأحدهما الإطار الاحتياطي الذي عاد إلى مكانه سالمًا.

الآن أصبحت سيارتنا تسير على قدمين وإن كانتا تعانيان من الإصابة، فاستأنفنا رحلتنا بعد أن ودعنا الدركيين اللذين طوقا عنق كل منا بجميل لا ينساه إلا جاحد، وأكد علينا الدركيان عدم السرعة بسبب أن الإطارات مرقعة حتى لا يحدث لنا أعطال.

بعد ثلاث ساعات تقريبًا والشمس تغرب كنا على مشارف فندق (سيدي حرازم) الذي يقع على ربوة جميلة تطل على

سهول مدينة فاس التي تبعد عن الفندق مسافة (14 كم)، أمضينا ليلتنا في هذا الفندق الجميل، ونهضت باكرًا في تمام الساعة السابعة صباحًا وأيقظت زميلي الذي رفض وأبلغني أنه في حاجة إلى النوم، عندها نزلت لوحدي إلى المطعم وتناولت إفطارًا سريعًا مع فنجان من الحليب، وركبت السيارة متجهًا إلى مدينة فاس.

في مدخل المدينة شاهدت ورشة إطارات ضخمة حيث توقفت في مدخل الورشة لأسأل أحد العاملين إن كان عندهم إطارات جديدة وكم كان حظي جيدًا حيث وجدت ما أطلبه، فاستبدلت الإطارات المزقة بإطارات جديدة ثم واصلت طريقي للمدينة القديمة حيث أوقفت سيارتي عند باب (أبي الجلود)، وقمت بجولة في تلك المدينة القديمة التي تشعرك بأنه لولا وجود مصابيح الكهرباء التي تعلو رؤوس المارة لكنت أعتقد أننا في فترة المرابطين أو الموحدين أو المرينيين.

وبعد جولة استمرت ساعتين عدت للفندق لأجد زميلي قد استيقظ وتناول إفطاره وسدد الحساب وأنزل الحقائب

منتظرًا عودتي من فاس.

حوالي الساعة الحادية عشرة واصلنا طريقنا إلى مدينة الرباط التي تبعد عن فاس حوالي (230 كم)، حيث كان الطريق في حالة أفضل من طريق وجدة فاس؛ مما سمح لنا بزيادة سرعة السيارة، خاصة وأننا قد استبدلنا الإطارات المرقعة بأخرى جديدة.

في حدود الساعة الثانية كنا نقف أمام مقر الملحقية الثقافية السعودية في الرباط الذي كان يرأسها آنذاك محمد بن عبدالسلام – رحمه الله –، وكان هدفنا من الذهاب إلى الرباط هو تسليم جهاز تسجيل ضخم استلمناه من المركز الجزائري (مغنية) للعودة به إلى المغرب بعد أن رفض المركز الجزائري دخول هذا التسجيل مع أحد الزملاء فتركه أمانة لديه، وحينما عزمنا على السفر للمغرب أعطانا توكيلًا باستلامه لنضعه بالاتفاق معه في ملحقية الرباط على أمل أن يأتي الملحق الثقافي في الجزائر إلى المغرب (وكثيرًا ما كان يفعل) فيقوم بأخذه إلى الجزائر ويتمكن من إدخاله دون رسوم جمركية متمتعًا

بحصانته الدبلوماسية وهو ما تم.

عندما عزمنا على مواصلة السفر للدار البيضاء التي تبعد (70 كم) تقريبًا سألنا الملحق الثقافي عن زميل لنا اسمه: (عبدالله)، وأخبرنا بأنه تلقى إشعارًا من البنك المغربي للتجارة الخارجية بوجود حوالة باسمه تبلغ (3000) دولار، وأن البنك أرسل الإشعار إلى المكتب ظنًا منه أنه أحد منسوبينا.

قلنا للملحق الثقافي لقد وصلت إلى خير فعبد الله المقصود هو أحد أعضاء البعثة التعليمية السعودية في الجزائر، وإننا على موعد معه مساء هذا اليوم في فندق الماجستيك في الدار البيضاء.

أعطانا الملحق الثقافي رسالة البنك والحوالة وواصلنا سفرنا إلى الدار البيضاء، حيث وصلنا فندق الماجستيك بعد غروب الشمس لنجد الأخ عبد الله في استقبالنا، وبعد انتهاء مراسم السلام والترحيب جلسنا لتناول فنجان قهوة حيث أبلغناه بحكاية الحوالة وسلمناه رسالة البنك والحوالة التي اعترف الأخ عبد الله أنه طلب التحويل على البنك المغربي لا إلى

الملحقية الثقافية.

في الساعة السابعة صباحًا وبعد إفطار خفيف عدت والأخ عبد الله إلى الرباط تاركين زميلنا سليمان نائمًا، وما أن فتح البنك أبوابه حتى كنا أول المراجعين، حيث أعطينا أحد الموظفين الحوالة وجواز السفر الذي وعدنا خيرًا، ولكنه أبلغنا أنه سيبيع علينا ويشتري منا قبل تسليم المبلغ، وهذا يعني أنه سوف يصرف الدولار إلى الدرهم المغربي، ثم يعود ليحوله إلى الدولار؛ لكي يأخذ البنك عمولته وكانت (30) دولارًا.

خرجنا من البنك بعد أن استلم الأخ عبد الله (2970) دولارًا، وواصلنا سفرنا إلى فندق الماجستيك، وعندما وصلنا، كان زميلنا سليمان قد استيقظ من النوم وتناول إفطاره متأخرًا.

أبلغنا الأخ عبد الله بحاجتنا إلى جزء من هذه الدولارات لأن ما دخلنا به المغرب كان (800) دولار فقط، صرفنا منها (300) دولار في المبيت في فندق سيدي حرازم، وشراء إطارات جديدة، ولم يتأخر الأخ عبد الله في مقاسمتنا المبلغ الذي استلمه من البنك.

إلى هنا تنتهي حكاية الإطارات الأربعة فهل قلت شيئًا غير الحقيقة؟ وهل يمكن تصديق تلك الحادثة أو تكذيبها؟ الحكم للقارئ الكريم.

❋ ❋ ❋

في مركز القالة[1]

كـان ذلـك في عـام (1983م/ 1403هــ) حيـنما عـدت للجزائر زائرًا لها بعد مرور ثلاث سنوات على انتهاء بعثتي التعليمية عام (1400هـ) حصلت على إجازة مدتها شهران: شعبان و رمضان، بالإضافة إلى إجازة عيد الفطر، ويممت نحو عنابة حيث ما يزال كثير من أصدقائي من الإخوة العرب موجودين والعام الدراسي لم ينته بعد مما يعطيني فرصة لرؤية الكثير منهم ممن لم يغادر عنابة بعد.

دخلت عنابة معي عشـرة آلاف دولار على هيئة شيكات سياحية، وللأسف الشديد لم أجد مسكنًا مفروشًا مما اضطرني لاستئجار شقة خالية لمدة شهرين، وقمت بتأثيثها أثاثًا بسيطًا يتناسب مع المدة التي أقيمها.

أمضيت شهرين في عنابة لم أغادرها سوى بضعة أيام في زيارة للعاصمة، وحينما أوشك الشهر الثاني (رمضان) على

(1) القالة: مدينة جزائرية قرب الحدود التونسية على مسافة (30 كم) تقريبًا.

الرحيل قررت السفر إلى تونس عن طريق الطائرة من مطار عنابة إلى مطار هواري بو مدين إلى مطار تونس العاصمة في اليوم الثلاثين من شهر رمضان المبارك، وقبل سفري بيوم علم صديقي العراقي (محمد داود) بسفري فإذا به يطرق علي باب الشقة، وحينما فتحت الباب فوجئت بذلك الصديق الذي زارني دون سابق موعد، رحبتُ به، ودخل وكان وقت الزيارة بعد العشاء بقليل حيث قمت بإعداد فنجان من الشاي له وجلست إلى جانبه لسؤاله عن سبب الزيارة، فقال لي: لقد سمعت بأنك سوف تسافر غدًا إلى تونس عن طريق مطار هواري بو مدين؟ فقلت: نعم، ما وصل إليك من خبر كان صحيحًا، قال: ولماذا ترهق نفسك وأنت صائم في مطار عنابة ومطار هواري بو مدين، قلت: ليس أمامي خيار آخر، قال لي: بلى هناك خيار آخر وأسهل وأيسر كثيرًا، قلت: ما هو؟ قال: السفر إلى تونس برًا عن طريق مركز القالة، قلت: إن ذلك يبدو أمرًا صعبًا لصعوبة وجود وسيلة نقل في هذا النهار الرمضاني. قال لي: أن سيارة النقل موجودة ولا تحتاج إلى

بحث وانتظار، قلت: وأين هي؟ قال لي: إنها سيارتي فغدًا سوف أسافر إلى تونس مع زميلين لي لقضاء إجازة العيد هناك ولا بد أن ترافقنا لكي نسعد بصحبتك، فاعتذرت منه مفضلًا السفر بالطائرة، ولكنه أصر على موقفه بأن أكون رفيقه في السفر، وعندما رأيت إلحاحه علي، قلت له: إن هناك سببًا مهمًا يدفعني للسفر بالطائرة بدلاً من السيارة، قال لي: وما هو هذا السبب؟ قلت له: (العملة الصعبة) فأنت تعرف أنني دخلت الجزائر ومعي عشرة آلاف دولار (10000)، وقمت بتسجيلها في البيان الجمركي الذي يعطى لكل قادم، وأنه يجب على السائح حينما يصرف من المبلغ الذي معه بطريقة رسمية عن طريق البنك الجزائري للتجارة الخارجية أن يوضح المبلغ الذي صرف بختم البنك، وأنا قد أمضيت شهرين لم أصرف من هذا المبلغ بطريقة رسمية دولارًا واحدًا، واكتفيت بشراء ما يلزمني من دنانير جزائرية من السوق الموازية التي تعرف بالسوق السوداء؛ نظرًا للفرق الهائل في سعر صرف الدولار بين البنك حيث يصرف الدولار مقابل أربعة دنانير والسوق الموازية

حيث يبلغ سعر الدولار الواحد اثني عشر دينارًا، لذا فإن سفري عن طريق البر سيوقعني في مشاكل مع رجال الجمرك قد تؤدي إلى مصادرة هذا المبلغ الكبير حينما يلاحظ الجمركي أنني لم أصرف دولارًا واحدًا طول إقامتي، أما في جمرك المطار فقد يكون الأمر أيسر وذلك أن كثرة الرحلات وإعداد المسافرين قد يشكل ضغطًا على رجل الجمارك فيكتفي بسحب البيان الجمركي من دون أن يسأل المسافر عما صرفه وما لم يعرفه ويسمح له بالمرور، لذا فإن سفري عن طريق المطار أفضل، إلا أن الأخ محمد داود حاول تبسيط الأمر أمامي والتخفيف من المشكلة قائلًا: إن رجل الجمرك في مركز القالة وبمناسبة شهر رمضان سيكون أقد تشددًا، ويكون للتساهل أقرب تمشيًا مع روحانية الشهر الكريم، قلت لمحمد داود: لقد علمتنا التجارب السابقة طيلة أربع سنوات أن رجال الجمرك الجزائريين يتصفون بالتشدد ولهم قانونهم الخاص وليس قانون الدولة في جميع المنافذ الجمركية البرية والبحرية والجوية وإن تكن الجوية أقل تشديدًا، مع ذلك أصر محمد داود على تبريره

وأبلغني أنه يرفض سفري عن طريق المطار وأنه لا بد من أن أكون رفيقه في السفر برًا، وأمام إلحاحه لم يكن لدي بدّ من الموافقة، قائلًا: فليكن الأمر كما تريد ولتحترق روما.

استأذن محمد داود في الانصراف بعد أن اتفقنا على أن نبدأ رحلتنا في تمام الساعة السادسة صباحًا.

حيث أصبحت وحيدًا قمت بإحضار محفظة الشيكات السياحية والتي يبلغ عددها (200) شيك سياحي من فئة (50) دولارًا للشيك الواحد، وأمضيت أكثر من ساعة في توقيع التوقيع الأول على كل شيك سياحي، مما يمنع أي شخص من الاستفادة منه سواي؛ لتعذر تقليد توقيعي، وذلك لأنني قد أحضرت هذه الشيكات دون توقيع أول أو ثاني وذلك لكي أعطي نفسي فرصة إعطاء أي زميل يحتاج شيئًا منها دون توقيع لكي يسهل عليه أمر توقيعها أمام موظف البنك، وقمت بفصل ورقة الشراء والتي تحمل أرقام الشيكات عن المحفظة من باب الاحتياط لأي مشكلة قد تقع مع مركز الحدود البرية ووضعته في جيب أحد البنطلونات؛ لأنه من

المؤكد أن موظف الجمرك لن يخطر على باله وجود ورقة الشراء فيما لو قرر مصادرة الشيكات.

حانت الساعة السادسة من صباح اليوم التالي حيث نزلت مصحوبًا بحقيبة الملابس والحقيبة اليدوية لأجد محمد داود وزميليه في انتظاري، وركبت في سيارة البيجو (305)، وقبل الانطلاق على الطريق الدولية طلبت المرور على صديقي (أبو فلاح)-رحمه الله- لكي أُسَلِّمَه مفتاح الشقة حيث أنني قد استأجرتها عن طريقه.

انطلقنا على بركة الله متجهين إلى مدينة القالة التي تبعد عن عنابة قرابة (90 كم)، وفي الطريق وخلال تبادل الأحاديث أكدت على رفقاء السفر على ضرورة عدم استفزاز رجال الشرطة والجمارك في مركز الحدود فيما لو وجدناهم نائمين على مكاتبهم تلافيًا لأية مشاكل قد تحدث معهم ليس بسبب تطبيق القانون والنظام ولكن بسبب أننا أزعجناهم عن أحلامهم اللذيذة.

بعد ساعة وربع تقريبًا كنا في المركز الحدودي الذي يبعد

عن مدينة القالة قرابة(20 كم) وكما توقعت وجدنا رجل الشرطة ورجل الجمرك نائمين على المكاتب، لذا جلسنا على المقاعد الخشبية المقابلة لهم بهدوء ولم نحاول إيقاظهم خاصة وأننا لم نكن في عجلة من أمرنا لكوننا صائمين آخر يوم في رمضان.

كانت سيارتنا هي الوحيدة الموجودة في ذلك الوقت أمام المركز الحدودي مما سيعطي رجل الجمرك ورجل الشرطة الوقت الكافي لتوسيع دائرة النقاش والتحقيق والتفتيش معنا.

انتظرنا تقريبًا خمسًا وأربعين دقيقة حيث تمطى رجلا الجمرك ورفعا رأسيهما وأخذا يفركان عينيهما بالإصبع السبابة وعندما رآنا رجل الشرطة بعين نصف مفتوحة خاطبنا قائلًا: «أيش تستحقون؟» قلنا له: لا شيء سوى الخروج إلى تونس، طلب الشرطي جوازات السفر وحينما تصفحها ووجد أن العراقيين قد حصلوا على تأشيرة السفر من ولاية عنابة لم يتأخر في ختم جوازاتهم بختم الخروج، أما أنا فحينما أدرك من جواز سفري أنني دخلت الجزائر سائحًا ولست عاملًا، سألني: كم

أقمت في عنابة؟ قلت: شهرين، فقال: ولكن تأشيرتك محددة بخمسة عشر يومًا ونطقها بالفرنسية (دو سيمانا) أي: أسبوعين، قلت: لا علم لي فأنا طلبت من السفارة في الرياض إعطائي تأشيرة لمدة شهرين ولم ألحظ تحديدها بخمسة عشر يومًا لسبب بسيط وهو أن جميع المعلومات محررة باللغة الفرنسية التي أجهلها، أطرق رجل الشرطة قليلًا أما أنا فراودني الخوف أن يسبب لي مشكلة بسبب تأخري في الخروج بعد انتهاء الوقت المحدد للتأشيرة، ولكنني رأيته يأخذ ختم الخروج ويختم بالموافقة على جواز سفري، قائلًا: لي وماذا أعمل لك وأنت في طريقك للخروج! .

انتقلنا إلى حيث يوجد رجل الجمرك الذي طلب من العراقيين الاطلاع على ما معهم من عملة صعبة، وحينما تأكد أنهم قد سحبوها من حسابهم المسمى (السيداك) في بنك الجزائر الخارجي ختم البيان المرفق معها بالموافقة، وأعاد كامل الأوراق إليهم، وبهذا يكون العراقيون انتهوا من إجراءات الخروج إلى تونس.

جاء دوري مع رجل الجمرك، وحينما رأى من جواز سفري أنني سائح ولست عاملًا في الجزائر طلب مني التصريح الجمركي بما أحمله من العملة الصعبة التي يسميها الجزائريون (الدوفيز) أعطيته التصريح حيث لاحظ عدد الدولارات المسجلة بأنها عشرة آلاف دولار على هيئة شيكات سياحية، ولكنه أيضًا لاحظ أنه لا يوجد على التصريح الجمركي أي ختم للبنك يؤكد أنني صرفت ما أحتاج إليه عن الطريق الرسمي، لذا سألني قائلًا: كم عدد نقودك؟ فقلت: عشرة آلاف دولار، قال لي: وكم أقمت في عنابة؟ قلت: شهرين، قال لي: وكيف كنت تعيش؟ هل أنت «كيما»[1] الضب؟! فأنت لم تصرف من نقودك شيئًا فكيف كنت تأكل وتشرب؟ هنا أحسست بأن مشكلة قد تقع كما كنت قد توقعت، فقلت للجمركي: أنني دخلت الجزائر ضيفًا عند أصدقائي ومعارفي في العاصمة وفي عنابة فلم أكن بحاجة إلى صرف نقودي وكل ما أحتاجه يسرع أخواني لتأمينه دون مقابل مني، قال لي

---

(1) «كيما»: كلمة باللهجة الجزائرية، بمعنى: مِثْل، أو شبيه.

الجمركي: ولكن النظام يلزمك بأن تصرف ما لا يقل عن (300) دولار عن كل شهر، قلت: لم أكن أعلم عن هذا النظام شيئًا، فقال لي: إن في المطار (بلاكة) أي لوحة بالتعليمات مكتوبة بالانجليزية، قلت: لا أعرف اللغة الانجليزية، قال: ومكتوبة باللغة الفرنسية، قلت: وأنا بتلك اللغة أجهل، ثم استدركتُ وسألته: هل كانت هناك لوحة مكتوبة باللغة العربية؟ قال لي: لا أكذب عليك لا يوجد، قلت اعذرني إذًا لجهلي بالنظام، عندها طلب الجمركي أن أسلمه الشيكات، فسلمتها إليه، فقام ووضعها في درج جانبي، فأصابني رعب شديد من أن تتم مصادرتها كما حدث لزملاء سابقين لي، لكني فوجئت بالجمركي يقول لي: لن أسمح لك بالخروج حتى تنزل إلى مدينة القالة عندما يفتح البنك أبوابه الساعة التاسعة وتصرف (600) دولار بالدينار الجزائري بالسعر الرسمي، قلت: وماذا أعمل بتلك الدنانير وأنا خارج؟ قال الجمركي: تجعلها أمانة في المركز وتأخذ عليها إيصالًا وتسترد نقودك فيما لو دخلت الجزائر مرة أخرى من أي مركز حدودي بري أو

جوي أو بحري، قلت: ولماذا أذهب للبنك في مدينة القالة لماذا لا يتم الصرف هنا، قال لي: أن آمر الخزينة لن يأتي إلا بعد الظهر.

في الحقيقة شعرت بشيء من الارتياح لأن الجمركي لم يتحدث عن مصادرته لكامل المبلغ كما حدث مع زملاء سابقين وإنما أكد على ضرورة صرف (600) دولار، لكن زميلي محمد داود دخل في الموضوع ووجه كلامه للجمركي بلغة فيها شيء من الجفاف، قائلًا: كيف تطلب منه ذلك وهو جاهل بالنظام المكتوب بلغة أجنبية؟ ولخوفي من أن يتطور الموضوع لما هو أسوأ وتتم مصادرة أموالي اتجهت لزميلي قائلًا: الجهل بالقانون لا يحمي المغفلين ورجل الجمرك يقول (الصح) ولابد لي من الانتظار حتى يفتح البنك أبوابه، فقال لي زميلي: ولكن ماذا نعمل نحن؟ قلت: بإمكانكم متابعة سفركم إلى تونس ووعدنا في فندق الريحان في طبرقة ظهرًا أو في فندق أفريقيا في تونس العاصمة مساء، فقال لي: وكيف تأتي؟ قلت: مع أول سيارة تأتي للخروج إلى تونس لأنني متأكد أن حركة

الخروج سوف تزيد ظهرًا، لكن زميلي رفض السفر، وقال: لن نخرج إلا وأنت معنا، وذهب وصدره يغلي من الغضب وجلس مع زميليه على المقعد المقابل، أما أنا فظللت واقفًا متكئًا بمرفقي على سطح المكتب.

في لحظة الانتظار تلك حدث طارئ قلب الأمور كلها رأسًا على عقب بطريقة دراماتيكية لم أكن أتصور أنها ستقع ولو بنسبة 1٪ فكيف حدث ذلك؟

كانت فترة العمل للجمركي على وشك الانتهاء ليقوم بتسليم المهمة إلى زميل آخر، وبينما نحن في لحظة الانتظار إذا بالجمركي المناوب يدخل إلى المركز وقد لبس لباسه الجمركي بني اللون، ويتجه إلى زميله ليبادله التحية والسلام وقبل أن يستلم العمل معه حيث تفاجأ الجمركي المنتهية نوبته بزميله يقول له بعد انتهاء عبارات السلام والحفاوة: مبروك مبروك، ليسأله الجمركي: على ماذا ؟!حيث قال الجمركي القادم: البارحة خرجت قرعة الحج وكان والدك ممن تم الموافقة على حجهم هذا العام (1403هـ)، فقال الجمركي لزميله القادم:

أنت متأكد؟ قال: نعم. هنا ارتسمت على وجه الجمركي ابتسامة عريضة تعبر عن فرحه بهذا الخبر السار.

كنت أستمع للحوار بين الرجلين وطرقت سمعي حكاية الموافقة على حج والد هذا الجمركي فما كان مني إلا أن أخذت ورقة بيضاء من على سطح المكتب ودونت عليها اسمي كاملًا وجهة عملي وصندوق بريدي الخاص وهاتف المنزل وهاتف العمل، ثم مددت الورقة للجمركي الذي سألني: ما هذه؟ قلت له: لا تسأل ولكن اقرأ، فلما قرأ الجمركي المعلومات المدونة، قال لي: وماذا أعمل بهذه الورقة؟ قلت: تسلمها لوالدك ليحتفظ بها وعندما يأتي للحج فربما يكون في حاجة ماسة إلى مساعدة مالية أو سواها فما عليه إلا أن يتصل بي على رقم الهاتف المدون في الورقة حيث سأقوم بمساعدته وتلبية أي طلب يحتاجه، قال لي: وأين تسكن أنت، في الحجاز؟ -هكذا لا يعرف الجزائريون من الجزيرة سوى الحجاز- قلت: في مدينة الرياض، فقال لي: وهل الرياض قريبة من مكان الحج؟ قلت: لا بل تبعد (1000كم)، قال: وكيف إذًا تساعده

فيما لو احتاج؟ قلت: لأن لي أقارب وأصدقاء في مكة أبلغهم بحاجته وعنوانه في المخيم وسيصلون إليه في دقائق.

هنا أخذ الجمركي يقلب صفحات جواز السفر وحينما رأى صورتي بالزي الوطني (الغترة والعقال) التفت إلي وقال لي: الآن عقلت عليك أنت «رجال الحجاز»، قلت له: نعم، قال لي: والله يا شيخ «أنت ناس ملاح»، وفجأة مد يده إلى الدرج الذي وضع فيه الشيكات السياحية وأخرجها ومدها إليَّ كاملة، وقال لي: والله ما ناخذ منك «والو» سِيْر على بركة الله، قلت: والنزول إلى مدينة القالة، قال لي: «ما يسألش» سِيْر إلى تونس.

بصراحة عقد هذا الموقف لساني عن الكلام وكأنني أخرس بسبب السرعة في تبدل الأمور وانقلابها من النقيض إلى النقيض، وبينما كان الخوف مسيطرًا على أن تصادر نقودي إذ بها تعود إليّ كاملة دون نقصان ويتم إعفائي من النزول إلى القالة والذهاب إلى تونس.

كان زميلي محمد داود وزميليه يراقبان هذا المشهد

التراجيدي بكل هدوء خشية أن يحدث أي ردة فعل منهما إلى النقيض، هنا قلت لزملائي: هيا لقد كفى الله المؤمنين القتال ولنستأنف رحلتنا.

خرجنا وركبنا السيارة وتكريمًا من الجمركي بقبول والده في قرعة الحج لم يطلب منا حتى فتح الحقائب وخاطبنا قائلًا: «سيروا على بركة الله»، وحينما أدار زميلي محمد محرك السيارة لاحظت عليه أنه يريد أن يضحك ويقهقه عاليًا من طرافة الموقف، قلت له: اكتم مشاعرك حتى نتجاوز الخط الوهمي بين الجزائر وتونس فما يدريك فربما يعود الجمركي عن موقفه هذا، هنا كتم زميلي محمد ضحكته وحينما اجتزنا الخط الوهمي وأصبحنا عمليًا في الأرض التونسية وعند أحد المنعطفات أوقف زميلي السيارة وأطلق لنفسه العنان ليضحك ويقهقه عاليًا حتى كاد أن يتمزق مراق بطنه، والتفت إلي قائلًا: لقد عجبت من صبرك وهدوئك وجلادتك، قلت: وماذا تنفعني الحماقة في مثل هذا الموقف سوى مصادرة نقودي، فالحمد لله الذي أعادها إليَّ ببركة الحج، وذكَّرت زميلي محمد بقصة

مشابهة حدثت لي في جمارك ميناء عنابة منذ أربع سنوات حينما وصلني من أهلي في السعودية كرتون به «قديد» وحينما فحصه الجمركي وعرف أنه من السعودية تنازل حتى عن أخذ الرسوم الجمركية قائلًا: هذا القديد من بلاد مباركة. وهكذا نفعني الله بالحج مرتين، مرة في عنابة، والثانية في القالة، وتابعت الطريق إلى تونس.

❋ ❋ ❋

بين مأساتين

حينما حدثني صديقي عن إحدى الدجاجات التي هربت إلى حين من مذبحة الثعالب في مزرعته، وجدت نفسي أقيم في ذهني علاقة مابين مذبحة المماليك الشهيرة ومذبحة الدجاج، ولا أستطيع أن أعلل السبب لهذه المقارنة، إلا أن يكون ذلك نتيجة الإحساس بتعاطف مع المظلوم والمغدور أيًا كان بشرًا أو دجاجة.

لقد قرر صديقي فجأة التخلي عن أكل الدجاج (الصناعي) محليًا أو مستوردًا، بعد أن قرأ كثيرًا عن أضراره الصحية، وقرر أن يقوم بتربية الدجاج تربية قروية في مزرعته التي لو لا بضع نخلات فيها لكان حريًا أن أسميها: (الأرض اليباب).

أحضر صديقي أكثر من عشر دجاجات ووضعها في مكان مسيج يلقي لها فتات ما تبقى من «الكبسة» التي أقام بينها وبين معدته زواجًا كاثوليكيًا، لكن ذلك لم يمنع أبا علي (الثعلب) وعصبته من الإجهاز عليها في ليلة غاب قمرها.

لقد كان بين مذبحة المماليك ومذبحة الدجاج أوجه شبه كثيرة، حتى يتخيل المرء أنهما توأم.

لقد حدثت المذبحتان في أعلى درجات الأمن، حيث شعر المماليك بأن دعوتهم للوليمة في القلعة تعني الرضا عنهم والثقة بهم، وتناسوا أن هناك قلوبًا تضمر خلاف ما تبطن خاصة في مجال التنافس السياسي، كما أن دجاج صديقي كان يشعر بالأمان المطلق في سجنه الأنيق المسيج الذي لا يستطيع أي مفترس أن يلوي قضبانه بأنيابه، ولكن الدجاجات نسيت أن أبا علي ماكرٌ وله حيل أعيت حتى الإمام الشافعي، ونسيت أن له يدين قادرتين على حفر نفق للوصول إلى الغاية، كالماء لا يحدث صوتًا رغم أن سياج القنّ (بيت الدّجاج) لا يسمح بدخول قملة أو نملة.

ولعل من أوجه الشبه أيضًا أن بطل مذبحة المماليك كان محمد علي، وبطل مذبحة الدجاج السيد (أبو علي).

ولعل من الشبه أيضًا الوليمة حيث جاء المماليك إلى القلعة ضيوفًا، واجتمع الدجاج على بقايا كبسة صديقي ضيوفًا أيضًا،

فأحدثت الضوضاء والتنافس والتزاحم فرصة لأبي علي الذي كان الظلام قد أعشى عينه فلا يدري أين يتجه، حتى قاده صوت الدجاجات إلى مصيرها الأَسْوَد.

وتزيد أوجه الشبه وثوقًا وتعددًا حينما نعلم أن أحد المماليك استطاع أن ينجو من المذبحة بالقفز بجواده من أعلى القلعة، ويهرب المملوكي إلى الوجه القبلي، في حين هربت إحدى الدجاجات، ولكن إلى أين؟ إلى حفل برسيم لا يغطي «نملة» فأقامت فيه يومًا وليلة بين الظلام والخوف حتى جاء أبو علي وأولاده إليها ليجهز على هذه الضحية المتمردة تحقيقًا لمبدأ العدالة، وليقضي ليلة كليلة أبي رغدان شبعان، ريان، دفآن، ويحقق صدق حكمة أبي العلاء حينما خاطب فراخ الدجاج، قائلًا: «استضعفوك فأكلوك فهلا وصفوا شبل الأسد»، وليجبر أبو علي صاحبي على برنامج رياضي قسري بتجميعه بقايا عظام هذه الدجاجة الهاربة وريشها المتطاير في كل مكان كما حدث في الليلة السابقة لبقايا الدجاج القتيل.

لعل من أوجه الشبه أن أبا علي صعد إلى مأواه في إحدى

مغارات الجبال لينام قرير العين، كما فعل محمد علي حين صعد إلى غرفته في القلعة وترك مهمة تنظيف ساحة المأساة من جثث المماليك لحراسه الخاص.

لكن من المؤكد وجود مفارقة بين المأساتين، حيث أفلت الهارب إلى غير رجعة من مذبحة محمد علي، ولم تفلت الدجاجة الهاربة من أسنان أبي علي، كما أن محمد علي لم يأكل قتلاه باعتبارهم بشرًا، في حين لم يترك أبو علي من الدجاج إلا العظام والريش المتطاير الذي قد يصنع منه صديقي مروحة بدوية تخليدًا لضحايا هذه الذكرى الحزينة.

من المؤكد أن هنالك عشرات المؤرخين والشعراء احتفوا وسجلوا مأساة قلعة محمد علي، ولكن من المؤكد أن مذبحة الدجاج ستمر دون أن يسجلها أحد الأدباء شعرًا أو نثرًا (عدا صديقي) الذي من المؤكد أنه قد قال شيئًا يخفف به أحزانه.

من أجل هذا رأيت من حسن الخلق والتضامن الوجداني، والصداقة الصحيحة الوثيقة أن أشارك صديقي مأساته ودجاجه بهذه القصيدة التي تحفظ هذه المأساة في أوراق

التاريخ بخط لا يمحوه الزمان مع اعترافي مسبقًا أنها ضعيفة كعقل الدجاج، هشة كعظامها، رديئة كلحمها.

مع الاعتذار لأبي دلامة في قصيدته:

أمير المؤمنين فدتـك نفســي　　علام سجنتني وخرقت ساجي

حيث تقول قصيدتي:

جزى الله الثعالبَ حين راحتْ　　بجُنحِ الليلِ تبحثُ عن دجاجِ
دجاجٌ للتجـــارة في زمـــانٍ　　طغى فيه الكسادُ على الرَّواجِ
لهيبُ الجوعِ أحرقَها وليسـتْ　　ذئابًا تنتقـــي خيرَ النِّعـــاجِ
بطونٌ قرقرتْ كخريــرِ مــاءٍ　　وأمعـــاءٌ نِظَـــافٌ كالزُّجَـــاجِ
فآثرت القناعـــةَ، وهيَ كنــزٌ　　ولم تقـــدِرْ على قفــزِ السِّياجِ
وتحفرُ دربَها مـــن غيرِ أيـــن　　وتهجمُ مثــل سُـرَّاقِ النباجِ[1]
أتتْ من دونِ عِلمكَ يا صديقي　　ولم ينفَعْـــكَ إحضـارُ السِّـراجِ

---

(1) النباج: صحراء في منطقة الجوف قرب طبرجل،حيث توجد قرية اسمها: النباج

فأمضتْ لَيْلَها عيدًا سعيدًا ... (مفرفشة) وفي أحلى مزاجِ
وأنتَ تعيشُ أحزانًا طِوالًا ... كمسجُونٍ تلكّأ في الخَراجِ
تُجمِّعُ ما تبقى من عِظامٍ ... وريشٍ طارَ في كل الفِجاجِ
كأنَّ حُطامَها في كلِّ ركنٍ ... مَواترُ شُلِّحَتْ وسطَ الكَراجِ
لئِن سَلِمَ الدَّجَاجُ من المنايا ... فمن جُوعِ الثَّعالبِ غيرُ ناجِ
فلم تدعُ الصديقَ إلى شِواءٍ ... ولم تَعرضْ دجاجكَ في الحَراجِ
فكان أبو عليٍّ لهنَّ ضيفًا ... بليلٍ قاتمِ القَسماتِ داجِ[1]
يُقَبِلُها بأسنانٍ حدادٍ ... كنابِ الفيلِ من صَخرٍ وعاجِ
تَعَشَّ إذا أصابكَ مسُّ جوعٍ ... بقايا الخبزِ أو تمرٍ خماجِ
وأتبِعْ ما أكلتَ قليلَ ماءٍ ... يرطبُه من المِلْحِ الأُجاجِ
دجاجُكَ لن يعودَ فكنْ صبورًا ... ولو قَدَّمتَ مليونَ احتجاجِ

❋ ❋ ❋

---

(1) أبو علي: لقب الثعلب.

حكاية الكهرباء في أشيقر

1- كهرباء المنازل:

لعل أكبر مشكلة نعانيها في هذا المجتمع هي وجود فئة من الناس تتحدث عن بعض الوقائع وكأنها عايشتها لحظة بلحظة، وهي في الحقيقة لا تعرف شيئًا عنها إلا ما تسمعه من الآخرين الذين قد يتكلمون في واقعة دون خبرة، وللأسف أن هناك من لا يكتفي بالحديث بل يعمد للكتابة من أم رأسه، ورغم وجود من يعلمون المعلومة الصحيحة إلا أنه لا يكلف نفسه الاتصال بهم؛ لأنه قد يعتقد أنه أكبر مقامًا من أن يتصل بهم بحثًا عن الحقيقة.

وقصة الكهرباء في أشيقر أصيبت بهذا الداء، وكتب عنها من لا يملكون من الحقيقة شروى نقير.

ونظرًا لأنني عايشت قصة الكهرباء في أشيقر معايشة حقيقية لا سماعية رأيت أن من واجبي أن أُدَوِّن ما أعرفه عنها توثيقًا للتاريخ وخوفًا من تزييفه، علمًا بأن ما أكتبه إنما هو عن

معايشة حقيقية مع من صنعوا قصة الكهرباء في أشيقر وجعلوها واقعًا لا يمكن إنكاره إلا من أناس أعماهم التعصب ضد الحقيقة غيرة وحسدًا، لذا أستعين بالله وأقول:

إن أول من أدخل الكهرباء في أشيقر على مستوى الأهالي هو الأخ: إبراهيم بن حمد العبد الوهاب، وكان يعمل مديرًا لكهرباء مدينة بقيق في المنطقة الشرقية، حيث أحضر (ماطورًا) صغيرًا ووضعه في الضفة الشرقية لوادي الشريمي (المسورية)، ومد أسلاكه إلى منزله الموجود في حي الحويطة على بعد (300) متر تقريبًا من مكان (الماطور)، وكان الأخ إبراهيم ينير به بيته حينما يأتي بعائلته أو مع أصدقائه في العطلة الصيفية أو عطلات الأعياد، ولكنه حسب ظني أنه (ماطور) للإنارة فقط؛ لأنه لا يستطيع تشغيل الثلاجة أو أي أدوات أخرى؛ نظرًا لانخفاض طاقته الكهربائية، وقد كان تاريخ إحضار الأخ إبراهيم لهذا (الماطور) في عام(1380هـ) تقريبًا.

بعد ذلك وفي عام (1384هـ) أحضر الأخ عبد المحسن المغيرة -رحمه الله- (ماطورًا) لإنارة منزله الذي يسكنه بالإيجار

وهو منزل الأخ: عبدالله المحمد الفريح -رحمه الله- الواقع في غربي الحويطة، وتحول حاليًا إلى شقق سكنية حيث بنى عبدالمحسن المغيرة حجرة صغيرة (للماطور) على ضفة شعبة (البنيَّة) التي طُمَرَت مؤخرًا، وكنت والأخ عبد الله والأخ محمد المفدى (الجد) نتولى عملية إطفائه في تمام العاشرة مساء كل يوم.

هذا بالنسبة للمحاولات الفردية. أما بالنسبة للكهرباء كعمل جماعي أو شبه جماعي فلذلك قصة كنت حاضرًا فصولها، ذلك أنه اجتمع يومًا بعد صلاة الظهر مجموعة من الأهالي لتناول القهوة والشاي عند حمد بن محمد المنيف -رحمه الله- في البيت الذي يستأجره من عثمان بن عبدالرحمن أباحسين (الحميدي) -رحمه الله- ويقع شمال مسجد الحويطة، أذكر من هؤلاء: عبد المحسن المغيرة، الوالد: إبراهيم بن حمد السّماعيل، العم: عبد الله بن إبراهيم السّماعيل، سعد الحمد العبدالوهاب، عبد الوهاب بن حمد العبد الوهاب، حمد بن عبدالله العبودي، حمد بن محمد المنيف، عبد الله بن محمد المفدى

(الملقب بـ:الجدّ)، وإبرهيم بن حسن ابن حسين، وإبراهيم بن عبد العزيز الشنيبر، وعبد العزيزا بن خلف-رحمهم الله تعالى-.

هنا طرح الأخ عبد الله المفدى (الجد)، فكرة إنشاء مخبز (ثاني) في الحويطة، فقال له (الوالد): لماذا؟ فقال (الجد): لكي نستريح من الدخول لخباز المنيِّخ، فقال الوالد: إن نصف عجينة الخباز تبقى لديه لا يشتريها أحد وهو الوحيد في أشيقر، فكيف تكون الحال لو كان هناك خباز ثاني؟، ولم يتجاوب الحاضرون مع الفكرة، واسترسل الوالد -رحمه الله- في حديثه قائلًا: بدلًا من التفكير في مخبز لماذا لا تفكرون في مشروع يطول نفعه الجميع؟ قال الحاضرون: مثل ماذا؟ قال الوالد: نشتري (ماطور) كهرباء لإنارة منازلنا، فوافق الحاضرون على الفكرة، ودفع كل منهم مبلغ (500) ريال كمساهمة منه، ثم قال الوالد -رحمه الله- لـ(الجد): اذهب إلى محمد العثمان أباحسين وعثمان بن عبد الرحمن أبا حسين (الحميدي) -رحمهما الله- وأبلغهما بما اتفقنا عليه إذا كانا يرغبان المشاركة أو لا يكون لهما حق توجيه لوم إلينا، وذهب (الجد) إليهما وعاد بعد

نصف ساعة ومعه اشتراكهما.

تولى عبد الله المفدى (الجد) -رحمه الله- مهمة شراء الماطور (ليستر7 أخضر اللون)، وكان ذلك في: الثلث الأول من عام (1387هـ)، وأحضره إلى أشيقر، وبنيت له غرفة على الضفة الشرقية لوادي الشريمي، وبدأ الناس في تمديد أسلاك الكهرباء في منازلهم، وكان أكثر من تولى ذلك كل من: سعد الحمد العبد الوهاب وابنه محمد وأخيه عبد الوهاب -رحمهم الله- وشخص أردني كان موجودًا في أشيقر مَحْرَمًا لأخته التي تعمل مُدَرِّسة في مدرسة البنات، اسمها: (معين) حيث أنه قام بتسليك منزلنا في الحويطة بمبلغ وقدره ستون (60) ريالًا.

تم تشغيل (الماطور) وأنيرت منازل المشتركين، وكان قاصرًا على الإنارة فقط إذ لم يكن قادرًا على التحمل عند استعمال أدوات كهربائية أخرى.

بعد ذلك تقدم كثير من الأهالي يطلبون إيصال الكهرباء إلى منازلهم من دون أن يدفعوا اشتراكًا، ولم يستطع المساهمون الأوائل الرفض، وحققوا لهم ما يطلبونه، واُتفِق على أن يكون

سعر كيلو الكهرباء (ربع ريال) للمساهمين و(نصف ريال) لغير المساهمين، وكان الذي يتولى قراءة العدادات هو: حمد بن عبد الله العبودي -رحمه الله- والذي يقوم بتحصيل قيمة الاستهلاك هو: عبد الوهاب بن حمد العبد الوهاب -رحم الله الجميع-، وأذكر أنه قبل وصول (الماطور) إلى أشيقر أنه سرت إشاعة بأن (الماطور) أُشترِي من خارج المملكة، وأنه غرق في البحر من ضمن حمولة الباخرة التي تنقله، فما كان من أحد المساهمين الأوائل (لا داعي لذكر اسمه) إلا أن جاء مطالبًا برد ما دفعه من نقود كمساهمة في المشروع، وحينما رأى رأي العين (الماطور) وهو يركب في غرفته عاد من جديد للمساهمة.

تولى سعد الحمد العبد الوهاب -رحمه الله- مهمة تشغيل (الماطور) قبيل المغرب بقليل، وإطفائه في تمام الساعة التاسعة مساء عدا ليلة الجمعة، وتشغيله لصلاة الفجر وإطفائه بعد الخروج من صلاة الفجر. وحدث مرة أن تأخر سعد العبد الوهاب -رحمه الله- في إطفاء (الماطور) إلى الساعة العاشرة فسرت طرفة تقول: إنه أخر إطفاء الماطور لأنه مشغول بتفريغ

البرسيم الذي أحضره لبقرته. كما كان ينوب عنه ابنه صالح -رحمه الله-، وكذلك تولى الأمر عبد الله الجاسر -رحمه الله- وشخص يماني اسمه: منصر، وآخر اسمه: كمال.

زاد ضغط الأهالي على المساهمين يطلبون إيصال الكهرباء إليهم، ولم يكن هناك مجال للرفض مما أدى إلى تحميل (الماطور) فوق طاقته، وانقطاع الكهرباء أحيانًا وعطل الماطور، وكان (الجد) -رحمه الله- هو رجل المهمات الصعبة الذي يقوم بالسفر إلى الرياض والبحرين لإحضار قطع الغيار بدون مقابل نظرًا لاتساع قاعدة المشاركين في الكهرباء.

وعندما تعطل (الماطور) كثيرًا رأى المساهمون شراء ماطور أكبر وأقدر على التحمل، وفتح الباب لغير المساهمين للمشاركة، حيث بلغ عدد المشاركين (120) مساهمًا، وهكذا كان، حيث أُشتري ماطور (ليستر 7)، وكان ذلك في عام: (1394هـ)[1]، إلا أنه ولتوفر المال قرر المساهمون شراء ماطور

(1) انظر جزءا من قوائم المساهمين: ملحق رقم 7 .

كبير جدًا من ماركة (كتر بلر) أصفر اللون، وهكذا استقرت عملية الكهرباء بلا مشاكل والحمد لله(1).

وفي نهاية (التسعينات) جاء الأخ صالح إبراهيم أبا حسين -رحمه الله- إلى أشيقر، وقرر شراء المشروع من المساهمين وتطويره على حسابه الخاص على أن يكون مالكًا وحيدًا له، وهو ما تم، وبدأ في مد الشبكة الكهربائية وخطوط الضغط العالي إلا أن شركة كهرباء شقراء -التي رفضت كثيرًا مد الكهرباء إلى أشيقر في سنوات سابقة- قامت بمد الكهرباء عن طريق المتعهد، واسمه: (راشد المفدى) إلى أشيقر، وقطعت الطريق على مشروع صالح أباحسين-رحمه الله- وكان ذلك في بداية عام (1399هـ) تقريبًا.

هذه هي القصة الحقيقية لدخول الكهرباء لأشيقر لأول مرة أرويها من واقعٍ حضرتُه، وأبصرته العينان، وسمعته الأذنان، أو بالرجوع إلى الوثائق التي عثرت عليها مؤخرًا،

---

(1) انظر كشف باستهلاك الكهرباء لبعض المساهمين: ملحق رقم 8، وكشف يوضح جملة من المصروفات على مكائن(ماطور) الكهرباء: ملحق رقم 9.

وأيُّ حديث محكي أو مكتوب عن المشروع غير ما كتبته فهو حديث خرافة لا يجوز الأخذ به.

* * *

2- كهرباء المساجد:

يسبق دخول الكهرباء إلى المساجد الأربعة المعروفة في أشيقر: (الجامع، مسجد المفيلقية، مسجد الشمال، مسجد الحويطة) كهرباء الأهالي بحوالي سنة تقريبًا، حيث تم ذلك في عام (1386هـ)، وكانت فكرة إنارة المساجد بسيطة جدًا في خطواتها الأولى، إذ لم تكن تتجاوز إنارة المساجد بالأتاريك فقط بدلًا من السراج، وقد بدئ في جمع التبرعات لذلك، والتي لم تكن تتجاوز خمسة أو عشرة ريالات من الشخص الواحد، وأذكر أنهم كانوا يجمعون التبرعات لذلك المشروع، ونحن في رحلة برية في أيام الربيع عند (الرمح الجنوبي) بمناسبة عيد الفطر المبارك.

استغرق جمع التبرعات وقتًا ليس بالقليل، وكان أن اجتمعت (نقود) كثيرة هي أكثر مما يحتاج إليه لشراء الأتاريك، ولكنها أقل من أن تشتري (ماطورًا) نتيجة لزيادة التبرعات عن المطلوب، فتطورت الفكرة إلى إدخال الكهرباء بدلًا من الأتاريك، ولكن المشكلة في تمويل المشروع لأن التبرعات لا

تستطيع تغطية المشروع. هنا قرر خال الوالد (إبراهيم بن حسن ابن حسين) -رحمهما الله-، القيام برحلات مكوكية شملت البحرين والكويت للاتصال بمن يعرفهم من الميسورين، أمثال: القاضي في البحرين، والوزان، والبحر، والنفيسي في الكويت، واستطاع أن يُؤمِّن التمويل الكافي للمشروع.

واصل خال الوالد -رحمه الله- جهوده لكي يظهر المشروع للنور، فأشرف على شراء (الماطور: ليستر 7) وبناء حجرة له بدلًا من حجرة الموتى على مدخل سوق البَرّ في غزية، وتم تركيب (الماطور) وإنارة المساجد الأربعة، وبعض الزوايا المظلمة في أسواق القرية القديمة، وتولى خال الوالد -رحمهما الله- مهمة تشغيل (الماطور) قبل غروب الشمس، وإطفائه بعد صلاة العشاء، وإعادة التشغيل قبيل الفجر، وإطفائه بعد الخروج من صلاة الفجر، كما كان -رحمه الله- يتولى إصلاح أعطال (الماطور) ويقوم باستلام تكلفة الإنارة على المساجد من فرع الأوقاف بشقراء، ويعمل على تنمية الأموال المتوفرة من

أجل الصرف على المشروع، وكل ذلك العمل كان لوجه الله تعالى وبدون مقابل مادي.

استمر خال الوالد -رحمهما الله- في مهمته النبيلة حتى منتصف عام (1395هـ) حيث أصبح ماطور المساجد مساهمًا في شراء ماطور الأهالي الجديد، وبدأت عوارض مرض الرئة تظهر على الخال بسبب دخوله إلى حجرة الماطور المليئة برائحة الديزل أربع مرات يوميًا، وقد نصحه أحد الأطباء في مدينة الرياض بالسفر للقاهرة للعلاج، ويبدو أن هذا الطبيب اكتشف خطورة مرضه، ولم يشأ أن يفصح له عن ذلك فوجه النصح بالعلاج الخارجي حلًا للإحراج.

سافر أبو حسن للقاهرة برفقة الأخ محمد المسلم الحصان -رحمهما الله- وقمت بتوديعه في مطار الرياض، فقال لي بالحرف الواحد وأنا أودعه عبارة لا أنساها ما حييت: «الحِرْيَة إني ما نيب راجع وأنا خالك»، وفعلًا حصل هذا، إذ أنه بمجرد دخوله المستشفى واكتشاف الأطباء لمرضه، وقبل إجراء أية عملية توفي -رحمه الله- في شهر ذي القعدة عام (1395هـ)

-حسب ما أظنّ- وقام الأخ محمد المسلم الحصان بتجهيزه والصلاة عليه ودفنه في القاهرة، رحمه الله تعالى وأموات المسلمين.[1]

وحسب ما رأيته في كراس خاص بكهرباء الأهالي فإنه يبدو أن مشروع المساجد المستقل قد توقف عام(1395هـ)، وانضمت إنارة المساجد إلى مشروع كهرباء الأهالي.

❊ ❊ ❊

---

(1) ذكر لي الأخ الكريم: عبد الله بن محمد أبا حسين (أبو إبراهيم) أنه قبل أن يخرج من أشيقر عام (1377هـ) كان ابن عمه عبد الرحمن بن عبد العزيز أبا حسين يجمع اشتراكات من الأهالي لإدخال الكهرباء في أشيقر وكان سعر اللمبة الواحدة ريالين يعطي المساهم عليها إيصالاً، ولكن في اعتقادي أن هذا المشروع توقف قبل مرحلة التنفيذ ربما لقلة المشاركين وضعف الإمكانيات، حيث أنني أعرف أشيقر قبل ذهابي للرياض في صيف (1387هـ) ولم يكن بها أي إضاءة كهربائية سوى الماطور الفردي عند إبراهيم محمد العبد الوهاب وعبد المحسن المغيرة -رحمه الله-، وماطور الأهالي، وماطور المساجد.

3- أشيقر وشركة الكهرباء في شقراء:

منذ إنشاء شركة كهرباء شقراء في النصف الثاني من الثمانينات، وقبل قيام (مشروع الأهالي) للكهرباء في أشيقر عام (1387هـ)، لم تنقطع مطالبات أهالي أشيقر بأن تقوم شركة كهرباء شقراء بمدّ الكهرباء إلى أشيقر.

ولكن للأسف الشديد كانت تلك المطالبات تقابل بسلبية مطلقة من مسؤولي الشركة.

وقد فسّر كثير من أهالي أشيقر هذا الموقف بأنه ينم عن تعصّب من مسؤولي كهرباء شقراء ضد أهالي أشيقر، في حين أن شركة كهرباء شقراء ترى أن ضعف الإمكانات المالية والإدارية والفنية تحول بينها وبين إيصال التيار الكهربائي خارج حدود شقراء، وذلك قبل إنشاء الشركة السعودية الموحدة للكهرباء التي ضمّت جميع شركات الكهرباء المتناثرة في شركة واحدة هي الشركة الوطنية للكهرباء.

إزاء هذا الموقف نقل أهالي أشيقر معركتهم مع كهرباء

شقراء إلى وزارة التجارة والصناعة التي قرّرت في النهاية عقد اجتماع ثلاثي بين أهالي أشيقر وشركة كهرباء شقراء وممثل عن وزارة التجارة والصناعة؛ لتدارس الموضوع والوصول إلى حلٍّ يُرضِي الطرفين.

طلبت وزارة التجارة والصناعة تشكيل وفد من أهالي أشيقر وشركة كهرباء شقراء شريطة ألا يتجاوز عددهم اثنان فقط.

رشحت كهرباء شقراء رئيسها آنذاك ومسؤول آخر معه، في حين رشح أهالي أشيقر والدي الشيخ: إبراهيم بن حمد السماعيل، والأخ: صالح بن محمد الفريح -رحمهما الله-، إلا أن شركة كهرباء شقراء اعترضت على هذا الترشيح بحجة أنهما موظفان، في حين يجب أن يكون المندوبان غير موظفين، ويبدو أن مسؤولي كهرباء شقراء كانا يعرفان الوالد-رحمه الله- وقوته في الحجة والاقناع، خاصة وأنه كسب القضية التي أقامها أهالي هجرة الغرابة لصرف وادي المنحنى الأقصى (الذي يروي روضة الهوبجة) عن مساره الطبيعي أمام المحكمة الشرعية في

شقراء، حيث أُمْتُدِحَ بعد أن كسب القضية بقول: «ابن إسماعيل حَكْيِهْ قرآن» كناية عن علمه الشرعي، وقوة حجته.

أما سبب رفض الأخ صالح الفريح -رحمه الله- فيعود إلى خبرته في مجال الكهرباء، خاصة وأنه يعمل لدى الحرس الوطني، وتخشى شركة كهرباء شقراء أن تؤدي خبرته الكهربائية إلى إفشال حججها في عدم إيصال الكهرباء إلى أشيقر.

نتيجة لهذا الاعتراض طلبت وزارة التجارة والصناعة من أهالي أشيقر ترشيح مندوبَين بديلَين شريطة ألا يكونا موظفين.

استجاب أهالي أشيقر، وتم ترشيح شخصين آخرين (أحتفظ باسميهما)، عندها عقدت جلسة حوار بين وفد كهرباء شقراء، وأهالي أشيقر برعاية عمر عبدالقادر فقيه (وكيل وزارة التجارة والصناعة آنذاك)، ومنذ انطلاق جلسة الحوار والمناقشة بدأ وفد شركة شقراء للكهرباء في الحديث، ولكنه لم يتطرق إلى الموضوع الذي عُقد الاجتماع من أجله، وهو: إيصال الكهرباء إلى أشيقر، بل إنه عمد في البداية إلى

التقليل من شأن أشيقر كقرية وقلة سكانها مما يجعل أمر إيصال الكهرباء إليها مشروعا فاشلا، حيث قال رئيس الوفد: «ومن هي أشيقر؟!، إنك لو أرسلت إليها وايت ماء لعاد بنصفه» (كناية عن قلة السكان).

من هنا رد وفد أشيقر عليه دفاعا عن قريتهما، واحتدم النقاش، وأخذ وفد كهرباء شقراء يهاجم، ووفد أشيقر يدافع، وخرج القطار عن مساره فلم تتم مناقشة إيصال الكهرباء.

هنا غضب وكيل وزارة التجارة والصناعة عمر عبدالقادر فقيه من الموقف، وغادر مكان الاجتماع إلى غير رجعة.

وهكذا فشل الاجتماع الذي خطط له وفد كهرباء شقراء منذ البداية؛ من أجل ألا ينكشف الضعف الإداري والفني والمالي في شركة كهرباء شقراء لأَعيُن مسؤولي وزارة التجارة والصناعة.

عاد وفد أشيقر إلى قواعده سالما، ولم يحصل حتى على خُفَّيّ حنين.

وفي جلسة عصرية تحت الجدار الشرقي لمنزل رئيس المركز: عبدالمحسن المغيرة –رحمه الله– كان بعض الأهالي يجلسون كعادتهم لتناول الشاي والأحاديث، عندها جاء إليهم وفد أشيقر وجلس المندوبان ضمن حلقة الجالسين، وهنا سأل عبدالمحسن المغيرة الوفد عن نتيجة الاجتماع، فأخبراه بما تم وهجوم وفد شقراء منذ البداية ومحاولة التقليل من شأن أشيقر لدى مسؤولي وزارة التجارة والصناعة، وأن وفد أشيقر رد على الهجوم بالدفاع، وهكذا مضت الجلسة بين هجوم ودفاع، ولم تتم مناقشة الموضوع الذي عُقدت الجلسة من أجله، وهو الكهرباء، وانتهت الجلسة بالفشل الذريع خاصة بعد أن غادر الراعي الرسمي للاجتماع (وكيل الوزارة) قاعة الاجتماعات.

قال الوالد –رحمه الله– للوفد: لم يكن هناك داعي للدفاع ضد الهجوم، ولكن كان الواجب قطع الطريق على هذه الحيلة التي دبّرها وفد الشركة لإفشال الاجتماع بالقول: لتكن أشيقر ما تكون، ولكننا جئنا من أجل الكهرباء لا من أجل اللجاج والخصومة، لأن وفد شركة كهرباء شقراء نجح بهذه الطريقة

في قطع الطريق أمام مطالبات أهالي أشيقر إلى غير رجعة.

وهكذا استمرت حال أشيقر فلم تصل إليها كهرباء شقراء، واكتفت بمشروعها الصغير الذي بدأ في النصف الأول من عام: (1387هـ)، واستمر الأمر على حاله حتى بداية (1399هـ) حينما أدخل صالح أباحسين -رحمه الله- مشروع كهرباء أشيقر لنفسه، وبدأ في تطويره، هنا قطعت كهرباء شقراء الطريق على مشروعه، حيث تدخّل متعهد التمديدات لدى شركة كهرباء شقراء (راشد المفدى) بإيعاز من الشركة، وبدأ في مدّ الكهرباء إلى أشيقر مما أجبر صالح أباحسين للتخلي عن مشروعه.

هذا ما استوعبته الذاكرة من قصة الكهرباء في أشيقر فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمني والحمد لله رب العالمين.

❊ ❊ ❊

أشيقر قرية لن تموت

حينما كنا في السنة الثانية من المرحلة الابتدائية كنا نقرأ حكاية لطيفة في كتاب المطالعة بعنوان: «القرد وقطعة السكر»، حيث تقول الحكاية: إن القرد وجد قطعة سكر عليها تراب، فوضعها في إناء به ماء، ثم أخذ يحركها، ثم بحث عنها فلم يجدها! فأين ذهبت؟!، ونجحنا للسنة الثالثة ولم ندر أين ذهبت قطعة السكر، ولم يقل لنا المعلم إنها ذابت، ربما لأنه لا يعلم هو الآخر؛ لكون قوالب السكر لم تكن آنذاك قد وصلت إلى منازلنا.

وأشيقر (القرية القديمة) منذ سنوات كاد أن يكون مصيرها مصير قطعة السكر، وأن تموت وتذوب بدون رجعة، وتلتهمها أسنة المعدات الثقيلة بلا رحمة، كما حدث لقرى أخرى، ولكن الله -سبحانه وتعالى- هيأ لأشيقر من استطاع أن ينقذها من مذبحة المماليك في آخر لحظة، في حين أن القرى الأخرى لم تجد من يستطيع رفع إصبعه لتعطيل أسنة البلدزورات، كما كان شأن أشيقر.

كان ذلك عام (1413هـ) حينما تمّ توزيع إعلان يطلب من أهالي البيوت القديمة تقديم أوراق الملكية إلى المركز لرفعها للجهات المختصة بالإدارة العامة للشؤون البلدية والقروية تمهيدًا لتعويضهم؛ ذلك أن النِّية تتجه لشق شارعين في القرية القديمة، واحد يمتد من الشمال إلى الجنوب، والثاني من الشرق إلى الغرب على هيئة ساعة (أبو صليب) القديمة، وكانت الحجة والتبرير الأعمى لهذه المذبحة لو حصلت هي: أن تتمكن سيارات الدفاع المدني من الوصول إلى بساتين النخيل فيما لو احترقت، كما أن هذا التدمير سوف يؤدي إلى خروج العمالة التي احتلت هذه المنازل.

أُصِبتُ برعب شديد من المستقبل الأسود الذي سوف يؤدي للقضاء على تاريخنا وماضينا الذي صنعه أجداد شرفاء، وأبديت مخاوفي لعدد من الأهالي خاصة المتعلمين للبحث عن طريقة ننقذ بها هذا التاريخ العريق والمجد الخالد، وكم زادت حسرتي وألمي حين وجدت سلبية مطلقة ممن استشرتهم وطلبت رأيهم ومساعدتهم، ومقابلتهم الأمر ببرودة

الإنجليزي.

ذهبت للرياض وأنا مشغول البال بهذه المذبحة التي تلوح في الأفق مثل بروق الوسم، لكن بروق الوسم تحمل بشرى خير بربيع أخضر أما تلك المذبحة فتحمل وجهًا أسودًا كئيبًا، سنتذكره بكل غصة ما عشنا الأعمار التي قدرها الله لنا.

كنت أفكر في الموضوع ليلًا ونهارًا، وأبحث عن سفينة إنقاذ لإنقاذ أشيقر القديمة التي توشك على الغرق بفعل فاعل لم يحسب للأمر حسابه، وهكذا مع كل يوم تشرق شمسه وتغرب يزداد شجني لأنني لم أصل إلى سفينة الإنقاذ تلك، ولا أملك الأسباب التي توصلني إليها، وكاد اليأس أن يسيطر عليّ والإحباط فأقول: «فلتحترق روما»، لكن بقية من إيمان وعزيمة دفعتني لمواصلة التفكير وعدم القنوط، حتى أذن الله تعالى بأن أصل إلى حل كان سببًا في دفع المذبحة إلى غير رجعة، وإعادة أسنان البلدوزر إلى صدره.

كان ذلك في شهر رمضان عام (1413هـ) حيث كنتُ مرافقًا لوالدي -رحمه الله- في مستشفى الحرس الوطني المنوَّم

فيـه عـلى إثـر وعكـة صـحية، حيـث دخـل علينـا الفنـان عـلي الرزيزاء زائرًا، ولبث معنا وقتًا غير يسير، حيث فتحت معه موضوع المذبحة التي تنتظر أشيقر القديمة؛ لعلمي الأكيـد بأنـه لن يرضى بذلك لشدة تعلقه بمرابع صباه، لكنـه قـال لي: إنني أحترم رأيك وأتمنى دفع ذلك المكروه، ولكن ليس لي من الأسباب ما يساعدني على ذلك، قلت له: الحل بيدك ولن يكلفك شيئًا سوى مكالمة هاتفية فقط، فقال: وكيف ذلك؟ قلت: تتصل بالمهندس عبدالرحمن الحصيني -رحمه الله- صاحب مجموعة البيئة والمتعصب حتى النخاع للحفاظ على القديم، وتبلغه بالمأساة التي يمكن أن تحدث لو تغافلنا عنها؛ لأنه من المؤكد أنه لا يعلم عن الأمر شيئًا، وتطلب منه أن يتصل بزميله في الدراسة الجامعية بكلية الهندسة (قسم الهندسة المدنية) الذي يشغل منصب وكيل وزارة الشؤون البلدية والقروية للشؤون القروية على ما أعتقد؛ لأنه خالي الذهن مما يُدبَّر في المديرية العامة للشؤون البلدية والقروية، ويطلب منه التدخل لإلغاء هذا المشروع التدميري للماضي التليد، وهكذا

حصل، إذ اتصل علي الرزيزاء بالحصيني واتصل الأخير بزميله الوكيل، الذي تدخل وطلب إلغاء المشروع التدميري بأسهل طريقة بتوفيق من الله، وهكذا أنقذنا أشيقر القديمة والتي رأتها عينا كل من زارها نابضة بالحياة، ونجت من مصير قطعة السكر، وبقيت شامخة في جبين الدهر تحدث زائريها عن مجد من شَيَّدُوْهَا.

بعد فترة زارني في منزلي بأشيقر أحد الأهالي معاتبًا، ويقول لي: أن الناس في المجالس يتحدثون عن أنك سبب في إلغاء مشروع هدم أشيقر القديمة، قلت له: تهمة لا أنكرها، وأفتخر بها. قال لي: ولكنك حرمت كثيرًا من الفقراء من التعويض المادي، فقلت له: إن أكبر بيت في القرية القديمة لا يتجاوز (60 مترًا) ولو وزِّع مبلغ التعويض على الورثة ربما لن ينال أحدهم أكثر من عشرة ريالات، إضافة إلى حدوث المشاجرات بين الورثة وقطيعة الرحم تمامًا، كما فعلت شرهة الدوادمي التي تسمى (المناخ) والتي ما زال بعض الأولاد والأحفاد يستلمونها نيابة عن آبائهم وأجدادهم الموتى منذ (90) عامًا،

فقال لي: وكيف تستطيع سيارات الدفاع المدني الوصول إلى النخيل المحترقة. قلت: البركة في الخراطيم الطويلة، كما أن الدفاع المدني له الحق في تهديم الجدران والحواجز الطينية التي تفصل بين البساتين إذا احتاج إلى ذلك؛ لوصول سياراته ومعداته.

قال: إن العمالة غير النظامية والمتخلفة تُقِيم في هذه المنازل وتُسبِّبْ للأهالي أضرار اجتماعية. قلت: حل هذه المشكلة يكون أمنيًا وليس بتهديم التراث، ثم أن هذه العمالة إذا هدمت المنازل التي تقيم فيها ستذهب للمنازل الأخرى التي لم تصلها أنياب الهدم (فكأنك يا أبو زيد ما غزيت)، ولم يصل -رحمه الله- معي إلى نتيجة، وخرج وعدم الرضا يكسو ملامح وجهه، لكن بقيت أشيقر القديمة شامخة، لم يطلها أنياب المعدات الثقيلة.

وبعد أن مرّت السنوات، وأصبحت أشيقر مزارًا سياحيا تراثيًا، برزت محاولة أخرى تحمل في أحداثها مشروعا تخريبيا يطمس جزءًا من التاريخ ولكنها لم تشمل القرية ككل، وإنما

هي مقتصرة على جامع القرية، وكُتِبَ لي أن أخوض معركة أخرى من أجل عدم المساس بالجامع أو تدميره. كان ذلك حينما عمّد مدير عام الشؤون الإدارية والمالية بوزارة الشؤون الإسلامية بالتأمين المباشر لأحد المقاولين، عمّده بترميم الجامع القديم، رغم أن عملية ترميمه الأخيرة لم يمض عليها (4) سنوات وكانت لجنة تحسين وتجميل أشيقر تفاخر بها وتصورها في مطوياتها رغم أن الترميم كان على نفقة أحد المحسنين وهو الأخ: إبراهيم بن علي الناصر -رحمه الله-.

تمت للأسف الشديد عملية ترسية المناقصة رغم أن الجامع لا يشكو من أوجاع الزمن، وآثار القدم، كما أنها تمت بالتأمين المباشر دون العودة للإدارة الهندسية كما أخبرني مديرها العام (الفراج) وبدون تقارير هندسية تؤكد الحاجة للترميم، أو أن الجامع آيل للسقوط. بل كانت عملية التعميد بالترميم غير نظامية، ولم يكن للمصلحة العامة والحاجة الملحة أي اعتبار، وكأنها ثورة جزيرة زنجبار عام (1964م) التي قال عنها محمد فائق (وزير الإعلام المصري السابق): «ثورة لا حاجة للتاريخ

بها»، وفعلًا لم يكن هناك حاجة للترميم سوى منفعة فردية شخصية.

فوجئنا بأن مسؤولا يُبلغ بعض الأهالي في بيت التراث الشعبي: أنه سيتم هدم خلوة الجامع لتوسيع مجلس القرية من أجل وقوف سيارات السُّواح، وللأسف الشديد كما حدث عام (1413هـ) من سلبية مطلقة تجاه هدم ومحو القرية، كان موقف من يستمعون حديث المسؤول سلبيًا.

لم يفكر المسؤول، في أن هذه الخَلْوَة موغلة في القدم، ولم تهمه أثريتها، وأن نظام الآثار العالمي كما حددته (اليونسكو) يمنع المساس بالآثار القديمة مهما كانت، وأن من لم يتمكن من الوصول على السيارة فليركب حمارًا وإن لم يجد فلتكن مطيته قدماه، وأن الصخرة التي تسقط يجب أن تعاد إلى مكانها أو مثلها تمامًا حتى في اللون. لم يكن ذلك كله يثير اهتمام المسؤول، فقد كان اعتقاده أنه يقدم لأشيقر خدمة جديدة بتوسيع المجلس ولو على حساب التاريخ.

وصلني الخبر السيء عن هذه المهمة البائسة والاحتقار

للتاريخ والماضي التليد، فقمت على الفور بإبلاغ إدارة المساجد في محافظة شقراء التي لم تكن تعلم عن ظروف المناقصة شيئًا، ولم يصلها أي مخاطبة رسمية من الوزارة بهذا الشأن، وأبلغني مديرها بأن بيوت العبادة لا يمكن المساس بها إلا بموافقة الشؤون الهندسية في الوزارة، وتحمس مثلي لمنع الجريمة التي لا أساس لها من المنطق -وإن كان بعد حين سوف يبدل موقفه (180) درجة-.

من أجل أن يتخذ الموضوع طابعًا رسميًا قمت بتوجيه خطاب جماعي موقع مني ومن بعض الزملاء الذين أقنعتهم بعد جهد بوجهة نظري إلى مدير إدارة المساجد في شقراء، والذي قام بدوره بإرسال الخطاب إلى مركز أشيقر بدون أي توجيه بالامتناع عن الهدم.

تفاجأت باستدعاء رسمي لمناقشة سبب اعتراضي على المشروع فحررتُ خطابًا إلى محافظ شقراء مكونا من (11) صفحة، أوضحت فيه سبب اعتراضي، ووجهة نظري حيال الموضوع، وخطابًا آخر إلى وزارة الشؤون الإسلامية، مكون

من (60) صفحة مع مشفوعاته.

هدأ الأمر قليلًا، ولكنه لم يمت خاصة بعد أن تلقى المقاول تحذيرًا من بعض الإخوان بعدم المساس بالمسجد بهدم أو تخريب ما لم يكن هناك موافقة رسمية، واضطر إلى إزالة لوحة المشروع الذي زُعم أنه تحت إشراف وزارة الشؤون الإسلامية وهي بريئة من ذلك ولا علم لديها سوى أحد موظفي الشؤون المالية والإدارية الذي أرسى المناقصة لثلاثة مساجد في: أشيقر والزلفي والغاط، دون أخذ رأي الإدارة الهندسية في الوزارة (أحتفظ بصورة من الإعلان).

لم يهدأ لي بال، وإنما أخذت أفكر في احتمالية حصول غدر خفي ممن هم وراء مشروع الهدم، وخشيت أن يتم هدم المسجد بليل خاصة بعد أن تغيَّر موقف مدير إدارة المساجد بمحافظة شقراء من معارض إلى مؤيد، حتى إذا قُضِيَ الأمر لم ينفعنا صراخنا ولن يُعِيدَ جدارًا بعد هدمه.

من أجل ذلك قمتُ بتصعيد الأمر بتوجيه خطاب إلى فضيلة مفتي عام المملكة شرحت فيه كامل ملابسات

الموضوع، واستنجدتُ بفضيلته لإنقاذ المسجد من الظلم الذي سيتعرض له. (أحتفظ بصورة الخطاب).

استجاب فضيلة المفتي لمطالبتي بعد أن اقتنع بما ورد في خطابي، وقام بتوجيه خطاب إلى وزير الشؤون الإسلامية يمنع فيه مس المسجد وكافة بيوت الله بنقص ولا زيادة، وإبلاغ المعنيين بالأمر بتوجيه فضيلته، وقامت وزارة الشؤون الإسلامية بإبلاغ توجيه فضيلة المفتي إلى إدارة المساجد بشقراء التي قامت بدورها بإبلاغ مركز أشيقر.

وهكذا ولله الحمد تم وأد هذه المأساة في مهدها في التراب، وبقي المسجد شامخًا لم ينقص منه متر واحد.

أما بالنسبة لعملية الترميم فقد تمت بشراء عدة براميل من دهان (مشاشكو) ودهن جدران المسجد من الداخل والخارج دون المنارة، وتغيير ثلاثة أبواب لم يمض على تغييرها في الترميم الأول سوى ثلاث أو أربع سنوات، و تعديل أقواس بعض الأعمدة، وتكسية السقوف بخشب الأثل دون الإنقاص من مساحة الجامع ولا هدم خلوته.

كان ذلك بفضل الله ثم بفضل المطالبة بالمحافظة على إبقاء المواقع التاريخية دون هدم أو تغيير لملامحها.

وما زالت العجلة تدور، ولم ينتهِ حماسي في الحفاظ على بلدة أشيقر القديمة وثقافتها الشعبية، كل ما في الأمر أن الأسلوب تغير من المجال المادي إلى المجال الاجتماعي.

حدث ذلك حينما قامت لجنة التنمية الاجتماعية -مشكورة- ببعث عادة شعبية قديمة وجميلة هي عادة «الحلاوي» حيث يقوم الأولاد الصغار يوم (28رمضان) والبنات الصغيرات يوم (29 رمضان) بالطواف على بيوت القرية، والدخول إليها ومخاطبة ساكنيها بعبارة: «حَلْوُونِي» حيث يعطف عليهم الكبار ويمنحونهم قليلًا من الحلوى والحمص أو النقود، وهي العادة التي تسمى في الشرقية: (قريقعان) وفي القصيم: (العمار) وفي شقراء والقرائن: (الشَّرْط).

لكن الخطأ الذي وقعت فيه اللجنة رغم نيتها الحسنة هي أن بدَّلت مصطلح «الحلاوي» الشعبي بمصطلح جديد عن

ثقافتنا الشعبية، وهو مصطلح: (التحلوي)، ونتيجة لذلك وجهتُ خطابًا إلى اللجنة، وتحدثتُ مع أعضائها، بأنه لا ينبغي تحوير ولا تبديل المصطلحات الشعبية القديمة، وهذا اتجاه معروف لدى كل من يهتم بالتراث الشعبي في العالم أجمع، وأنَّ عليهم التمسك بمصطلح «الحلاوي» وكتابته في ملصقات اللجنة وإعلاناتها عن موعد المناسبة.

استجاب أعضاء اللجنة مشكورين لرأيي، ورأيت من المناسب استبدال الشعار (الأيقونة) التي تستعمله اللجنة في منشوراتها؛ حيث أنه لا يمت إلى البرنامج والبيئة الشعبية بصلة، بشعار يعبّر عن روح البرنامج وطبيعة الحياة الاجتماعية، وعبقه الشعبي القديم، والتزمتُ للجنة بأن أعمل تصميمًا لشعار المناسبة لدى أحد الفنانين يفي بذلك؛ كي يضعونه في منشوراتهم وملصقاتهم الإعلانية، وهو ما تمّ.[1]

وأقول في ختام هذه المقالة التي تكاد أن تتحول إلى تقرير أو

(1) الشعار من تصميم الأستاذ: عبدالله بن عبدالعزيز السالم، انظر صورته: ملحق رقم 10 .

بحث: إن مشكلتنا في المجتمع القروي رغم وجود الغالبية من المواطنين التي تحب الانتصار للحق وللتاريخ تتلخص في سيطرة بعض الظلاميين وعديمي الثقافة وأعداء النجاح على المناصب في ظل سلبية المخلصين، أو في تدني المستوى الثقافي لبعض المسؤولين رغم اتسامهم بالإخلاص والصدق.

وأقول: أنني سأجعل الحفاظ على أشيقر القديمة ومبانيها وتاريخها وثقافتها الشعبية مهمتي التي لن أتخلى عنها ما أبقاني الله -عز وجل- حيًا، وكما فعل الدكتور ثروت عكاشة (وزير الثقافة المصري) في الستينات حينما بذل مجهوداته لإنقاذ معابد أبي سمبل من مياه النيل عملت وسأعمل على إنقاذ أشيقر التاريخية والاجتماعية.

❋ ❋ ❋

الملحقات

ملحق رقم: 1

عميّد السُّلَيم: جُبَيل منفرد بنفسه، يقع على بعد 3 كم من أشيقر شمالا، يعتبر مصدرًا لحكايات الجنّ في الثقافة الشعبية، ويشتهر بأن صخوره مثل السبورة، حفر كثير من زُوّاره أسماءهم عليها.

(انظر حكاية: جنّ السُّليم، ص: 62)

ملحق رقم: 2

قصيدة سليمان بن محمد ابن سيف في حفل استقبال الملك سعود-رحمه الله- من قبل أهالي أشيقر في خشم الملحاء عام: (1373هـ):

لك الحمد من رب كريم وخالق   تقدس فوق العرش ربا معظما
يشاء للإسلام عزا ومنعة   إمام له أصل زكي تقدما[1]
فباسمك ما يكفي الأنام بشارة   يعود سعود الخير في كل مقدما
ترنمت الأشعار من كل جانب   وكل لسان بالثناء تكلما
يقرّ بأن المجد والفضل والعلا   لآل سعود لا لحي سواهما[2]
فنحن بخير مع سرور ونعمة   وفي فضلهم جل الأنام منعما[3]

* * *

(1) هكذا ورد.

(2) هكذا ورد.

(3) انظر حكاية: الملك سعود في خشم الملحاء، ص: 90 .

ملحق رقم: 3

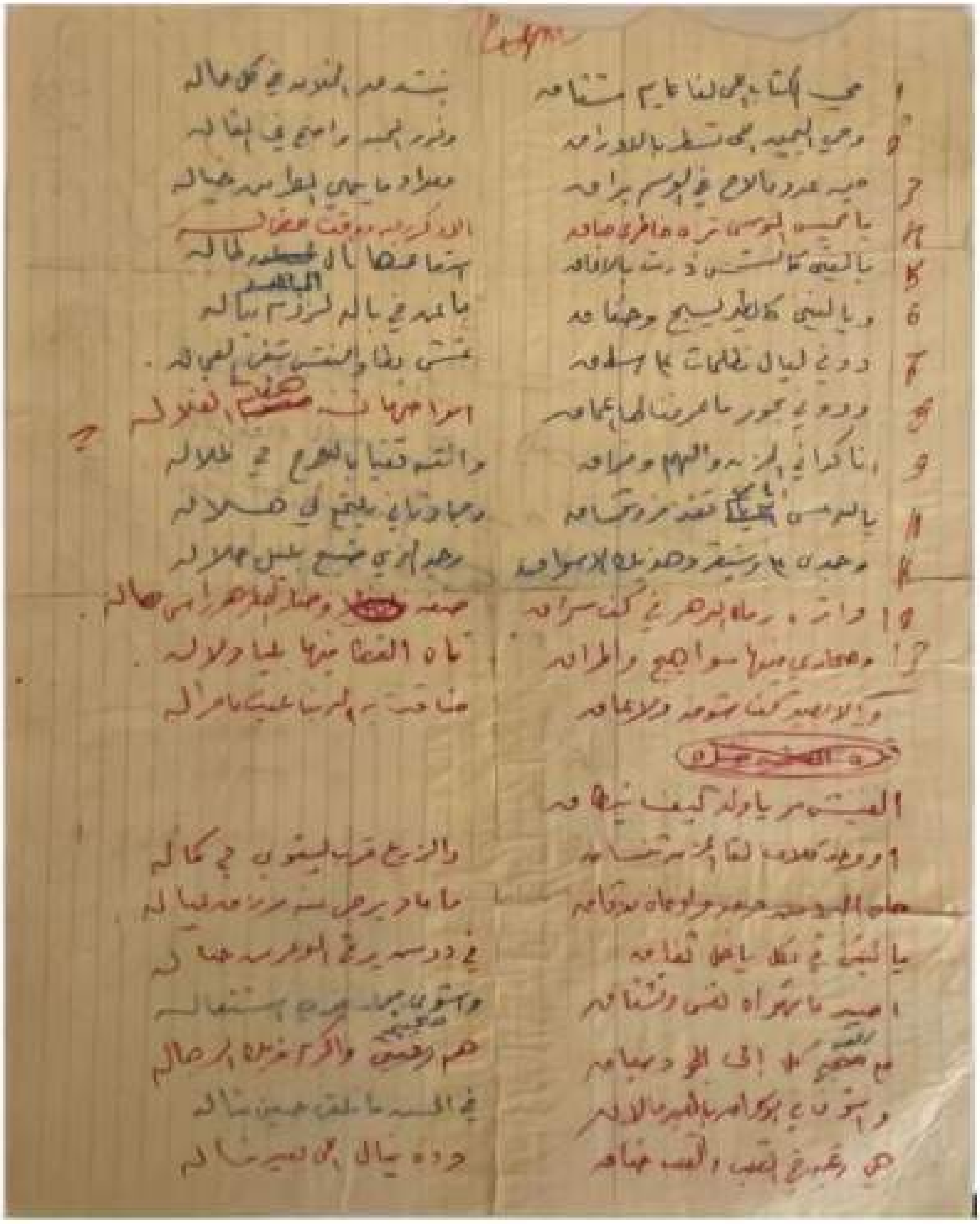

مسودة القصيدة التي وجدها الأخ: عبدالعزيز الزَّامل متعلقة بشجرة

قُرب مدينة: سطيف الجزائرية.

(انظر حكاية: قصيدة 1، ص: 156)

ملحق رقم: 4

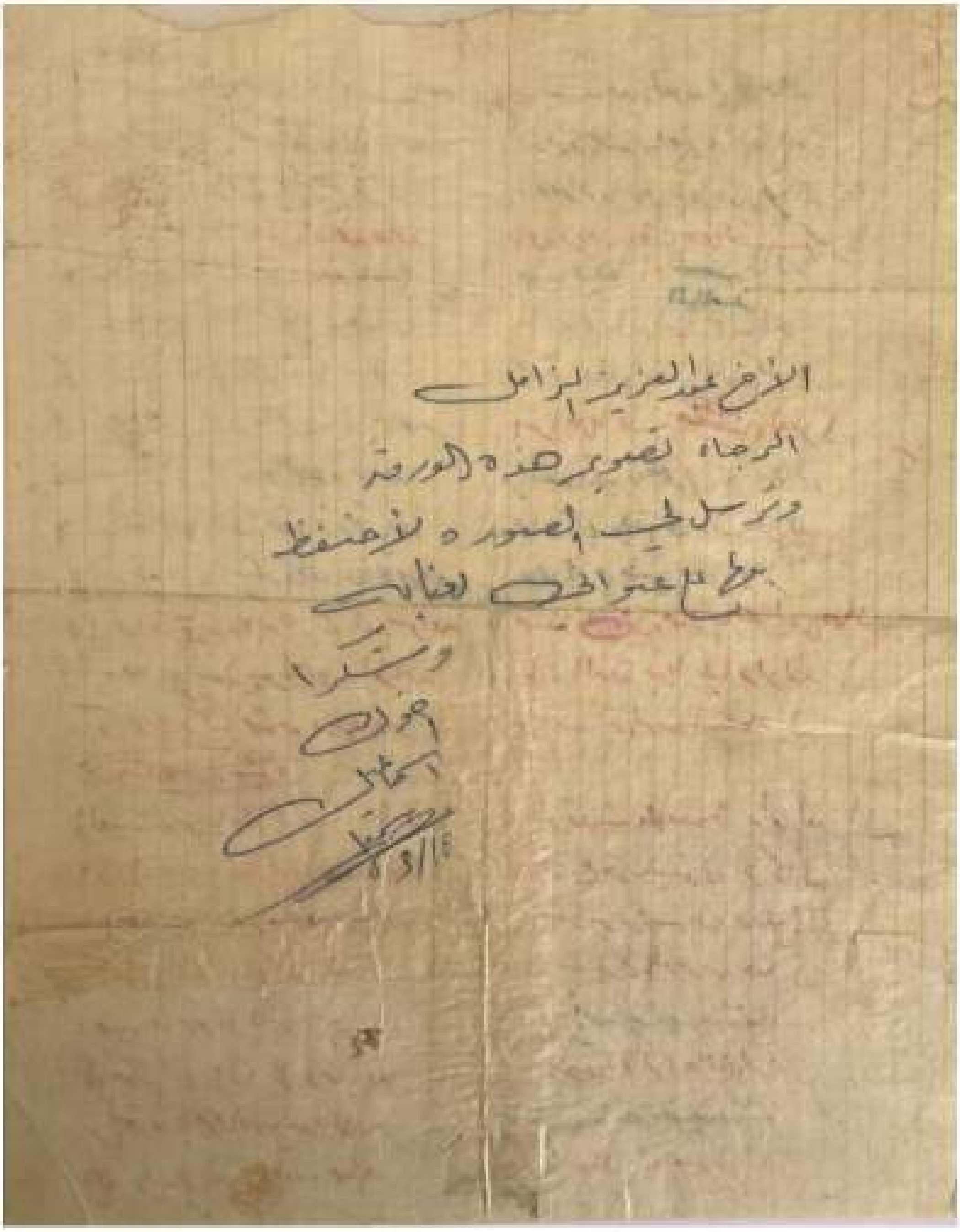
الرجاء تصوير هذه الورقة
وترسل لي الصورة لأحتفظ
وشكرا

الرجاء الذي كتبتُه بخط يدي للأخ: عبدالعزيز بتصوير القصيدة التي وجدها قُرب مدينة: سطيف الجزائرية.

(انظر حكاية: قصيدة 1، ص: 156)

ملحق رقم: 5

مَنْفِيْ أَغْمَات

(رسالة إلى ملك أشبيليا: المعتمِد بن عبَّاد)

يـا راقـدًا في ثَـرَى أَغْـمَاتَ سَـاجِعَةٌ ... ذكـراهُ في نَبَضَـاتِ القلـبِ عُصـفُورَا

كـم كنـتُ أرغـبُ لـو زَارَتْـكَ أُغْنِيَتِـي ... وأنـتَ تَغْـرَقُ بـينَ الـوَرْدِ مَسْـرُورَا

إنِّي رَجَعـتُ إلى المـاضِي لِتُسـمِعَني ... تاريخَـكَ العَـذْبَ منظومًـا ومنثـورَا

وقِصَّـةُ المَجْـدِ في بُرْدَيْـكَ مُفتخِـرًا ... والشِّعْرُ مـن هَمَهَـاتِ الأسْرِ مَقْهُـورَا

عـن سَيفِ مَجْـدِكَ مـا جفَّـتْ حمائلُـهُ ... مـن الـدِّماءِ ولم تُغْمِـدْهُ مَـدحُورَا

وعـن جَـوادٍ تُغَنِّيـهِ فيُطرِبُـهُ ... موشَّـحٌ كرفيـفِ الفجْـرِ مَمْطُـورَا

عـن إعْتِمَادِ الـتي روَّتْ شـفائِفَها ... أغصـانَ قَلْبِـكَ حتـى أمطـرتْ نـورَا

عن الجَوَارِيْ التي تُسْقِيكَ من يَدِهَا ... شـهدًا ومـن هَمَسَـاتِ العُـودِ كـافورَا

أأنـتَ مزَّقْـتَ عهـدًا كُنْـتَ قاطِعَـهُ ... أم كُنْتَ يا ابنَ سَلِيلِ المَجْدِ مغدورَا؟

لَقَـدْ قَرَأْنـا فـما تَـدْرِي خواطِرُنـا ... أكـانَ صِـدْقًا حـديثُ الـدَّهْرِ أم زُورَا

مـا عُـدْتُ أدري هَـلِ التَّاريخُ تقرَؤُهُ ... عقولُنـا أم تراهـا أَصْبَحتْ عـورَا؟

فغَنِّ مـا شِـئْتَ إنَّ الشَّمْسَ مُصْغِيَةٌ ... لأُغنياتِـكَ محزونًـا وشُـحْرُورَا

ما زالَ في شِعرِكَ المهموسِ دِفْءُ هَوىً ... إليـهِ يهـرَبُ قَلْـبٌ كـان مَقْـرُورَا

فأنـتَ حَـيٌّ مُضِـيْءٌ في جوانِحِنـا ... ومـا تزالُ بقلـبِ الـدَّهرِ مـذكورَا

تابع ملحق رقم: 5

العيدُ مرَّ فَكَمْ عيدٍ فرحتَ بهِ ... بينَ الجنانِ وبينَ الغيدِ مبهورَا
العيدُ مرَّ فكمْ عيدٍ وجدْتَ بهِ ... مآسيَ الدَّهْرِ تَبْنِي دونَها سُورَا
ما حالُ فاطمةَ الزَّهراءَ حينَ مشتْ ... في المِسْكِ حافِيَةً كالطِّينِ مطمُورَا؟
وحينَ تعثُرُ في طِينٍ يُلوِّثُها ... في البُؤسِ، كيف رأيتَ الظبيَ مذعوُرَا؟
كأنَّها عِنْدَمَا تَجْرِيْ مَدَامِعُها ... مُزْنُ الرَّبِيْعِ وقَدْ جُلِّلْنَ بلُّورَا
وحالُها بأُورِيْكَا عِنْدَمَا دُفِنَتْ ... بلا حَبِيْبٍ أكانَ القَلْبُ مَهْجُورَا
أنتَ الدَّفِينُ هُنَا والرُّوحُ سابحةٌ ... ما بينَ أشْبِيلِيَا حِيْنًا وأندورَا
للهِ أشْبِيلِيَا إذ أنْجَبَتْ مَلِكًا ... للهِ أغْمَاتَ إذْ ضَمَّتكَ مقبورَا
يا مَن عرفتَ الهوى عِشقًا تعطِّرُهُ ... روحُ السَّحابِ ولم تَعْرِفْهُ ماخورَا
يا من شَرِبْتَ من الأيامِ بَهْجَتَهَا ... حتى ثَمِلْتَ ومن آلامِهَا جُوْرَا
إن كنتَ تبكي على مجدٍ تفلَّتَ من ... كَفَّيكَ فاعْلَمْ بأنِي كُنتُ موتورَا
للهِ عَصرُكَ مهما فيهِ من دَنَسٍ ... أحلى لأنَّ جَنَانِي أصْبَحَتْ بُوْرَا

❋ ❋ ❋

هذه القصيدة معلقة حاليا داخل ضريح المعتمد بن عباد في أغمات من نواحي مدينة مراكش المغربية.

(انظر حكاية: قصيدة 2، ص: 169)

تابع ملحق رقم: 5

صورة لوحة القصيدة، وهي معلقة حاليا داخل ضريح المعتمد بن عباد في أغمات من نواحي مدينة مراكش المغربية.

(انظر حكاية: قصيدة 2، ص: 169)

ملحق رقم: 6

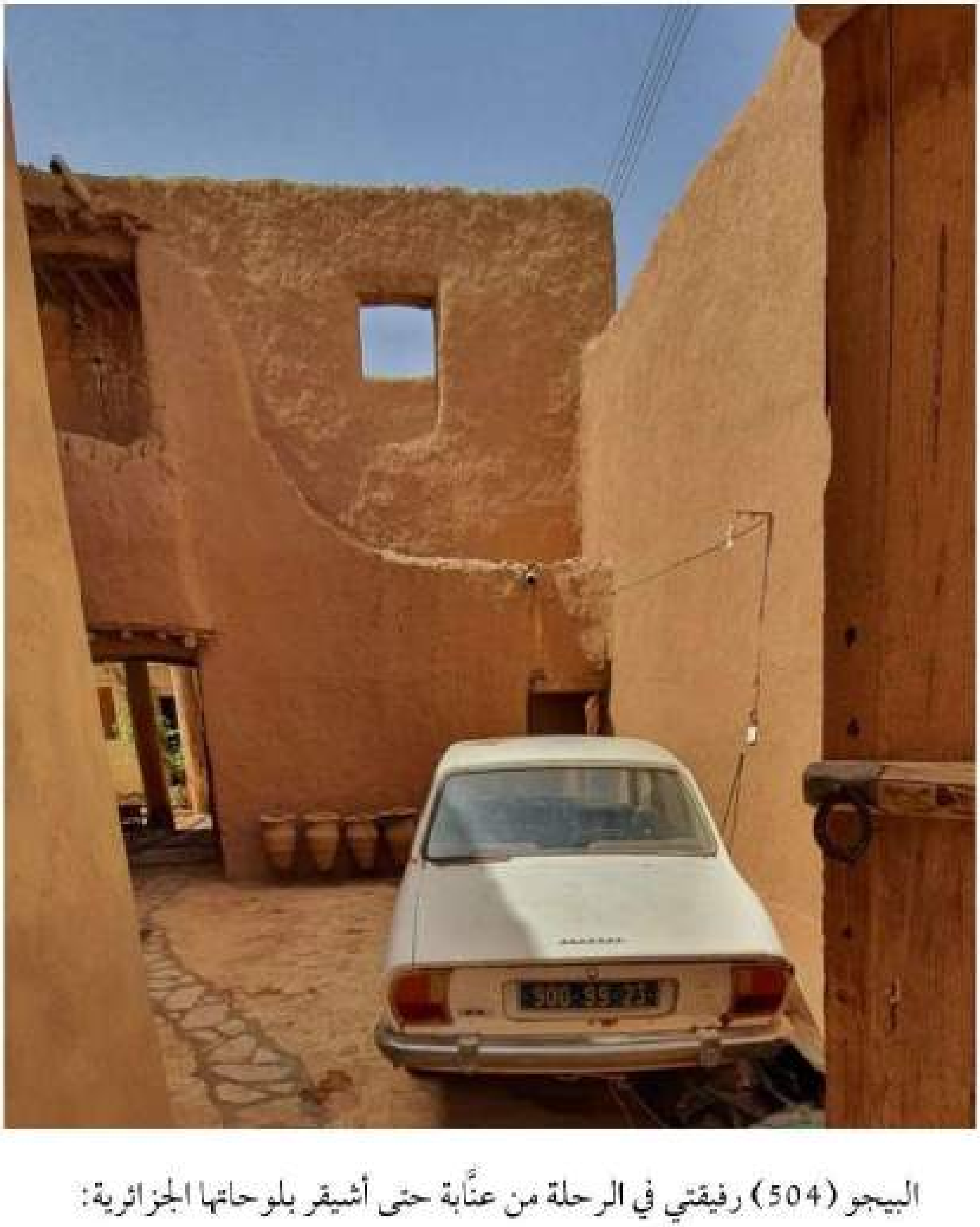

البيجو (504) رفيقتي في الرحلة من عنَّابة حتى أشيقر بلوحاتها الجزائرية:

(23-99-900) صادرة من مرور عنَّابة، وهي موديل: (1977م).

(انظر حكاية: من عنَّابة إلى أشيقر1-6، ص: 183-263).

ملحق رقم: 7

غلاف سجل الأخ: عبدالله بن محمد المفدى -رحمه الله- الذي يسجّل فيه مصروفات واشتراكات كهرباء الأهالي.

(انظر حكاية: الكهرباء في أشيقر، ص: 301-309).

تابع ملحق رقم: 7

تابع مساهمي شركة كهرباء أشيقر

عدد	ريال			
٣٨	٥٠٠	عبدالرحمن ابراهيم الحنيفر	١	سدد بيد ابو دحيم
٣٩	٥٠٠	عبدالله ابراهيم الحنيفر	١	~ ~ ~ ~
٤٠	٥٠٠	عبدالله سليمان السالم	١	بيد عبدالله الغدا
٤١	٥٠٠	عبدالعزيز منصور اباحسين	١	سدد بيد سعد الحمد حيث ان سعيد ابن سلمان له
٤٢	٥٠٠	عبدالكريم بن عبدالله الشثيبر	١	سدد بيد الدامير
٤٣	٥٠٠	محمد عبدالله الشثيبر	١	بيد عبدالله الغدا
٤٤	٥٠٠	عبدالله الحمد المنصور	١	~ ~ ~ ~
٤٥	٥٠٠	عيال عبدالمحسن المنصور	١	
٤٦	٥٠٠	عبدالله عبدالكريم الخنيفر	١	سدد بيد ابو دحيم
٤٧	٥٠٠	عبدالله بن سليمان الحميدي؟	١	بيد عبدالله الغدا
٤٨	٥٠٠	محمد بن عبدالله العبودي	١	سدد بيد سعد الحمد حيث سعيد ابن سلمان له
٤٩	٥٠٠	عثمان بن عبدالرحمن اباحسين	١	سدد بيد ابو دحيم ايضا ... [illegible] بالمساهمة ومجموعها ١٠٠٠
٥٠	٥٠٠	محمد بن عبدالله الحنيحن	١	بيد عبدالله الغدا
٥١	٥٠٠	عبدالعزيز بن ابراهيم العبداللطيف	١	
٥٢	٥٠٠	صالح محمد الدهام	١	
٥٣	٥٠٠	عبدالله عبدالرحمن العبداللطيف	١	
٥٤	٥٠٠	عثمان بن عبدالمحسن الحصيني	١	
٥٥	٥٠٠	صالح ابراهيم اباحسين بن الامير	١	بيد عبدالله الغدا
٥٦	٥٠٠	ابراهيم عبدالعزيز الشثيبر	١	سدد بيد ابو دحيم
٥٧	٥٠٠	عيال عبدالعزيز الفريح	١	~ ~ ~ ~

كشف بأسماء بعض المساهمين في شراء الماطور الجديد عام (1394هـ).

(انظر حكاية: الكهرباء في أشيقر، ص: 301-309).

ملحق رقم: 8

رقم (١) كشف استهلاك المشتركين لشهر [illegible] ١٣٩٤هـ

عدد	المبلغ: المد	المبلغ: ريال	الاسم	القراءة: الجديدة	القراءة: القديمة	الاستهلاك	ملاحظات
١	١٥	١٢٠	عبدالمحسن [illegible]	٥٨٠٣	٥٣٠١	٥٠٢	
٢	١٥	٦٤	ابراهيم [illegible]	٤٢٨١	٤٠٤٢	٢٣٩	
٣	١٠	٢٥	اولاد محمد [illegible]	١٨٩١	١٧٨١	١١٠	
٤	٥	٢٧	[illegible]	٢٥٤٠	٢٤٥١	٨٩	
٥		١٠ ٥	عبدالله الحمد [illegible] محسن [illegible]				[illegible]
٦	٥	٢٩	عبدالله المحمد [illegible]	٢٠٢٠	١٩٥٥	٦٥	
٧	١٥	[illegible]	عبدالله السماعيل	٦٦٧	٥٧٦	٩١	
٨	٥	١٨	محمد [illegible]	١٨٦٦	١٨٢٤	٤٢	
٩		٢٤	محمد [illegible]	١٢١٢	١١٤٨	٦٤	
١٠		٦٧	محمد العبدالوهاب	٢٢٧٠	٢١٢٢	١٤٨	
١١	٢	٢٦	محمد [illegible]	١٢٠٨	١١٤٠	١٢٨	
١٢	١٥	٢٨	محمد العبدالوهاب	١١٦٩	١٠٤٤	١٢٥	
١٣	٥	١٥	عبدالكريم [illegible]	١٥٩٠	[illegible]	[illegible]	
١٤	١٠	٦١	عبدالوهاب [illegible]	[illegible]	[illegible]	٢٤٦	
١٥		٤٢	محمد [illegible]	[illegible]	[illegible]	٧٢	

كشف باستهلاك الكهرباء لبعض الأهالي عام (1394هـ).

(انظر حكاية: الكهرباء في أشيقر، ص: 301-309).

ملحق رقم: 9

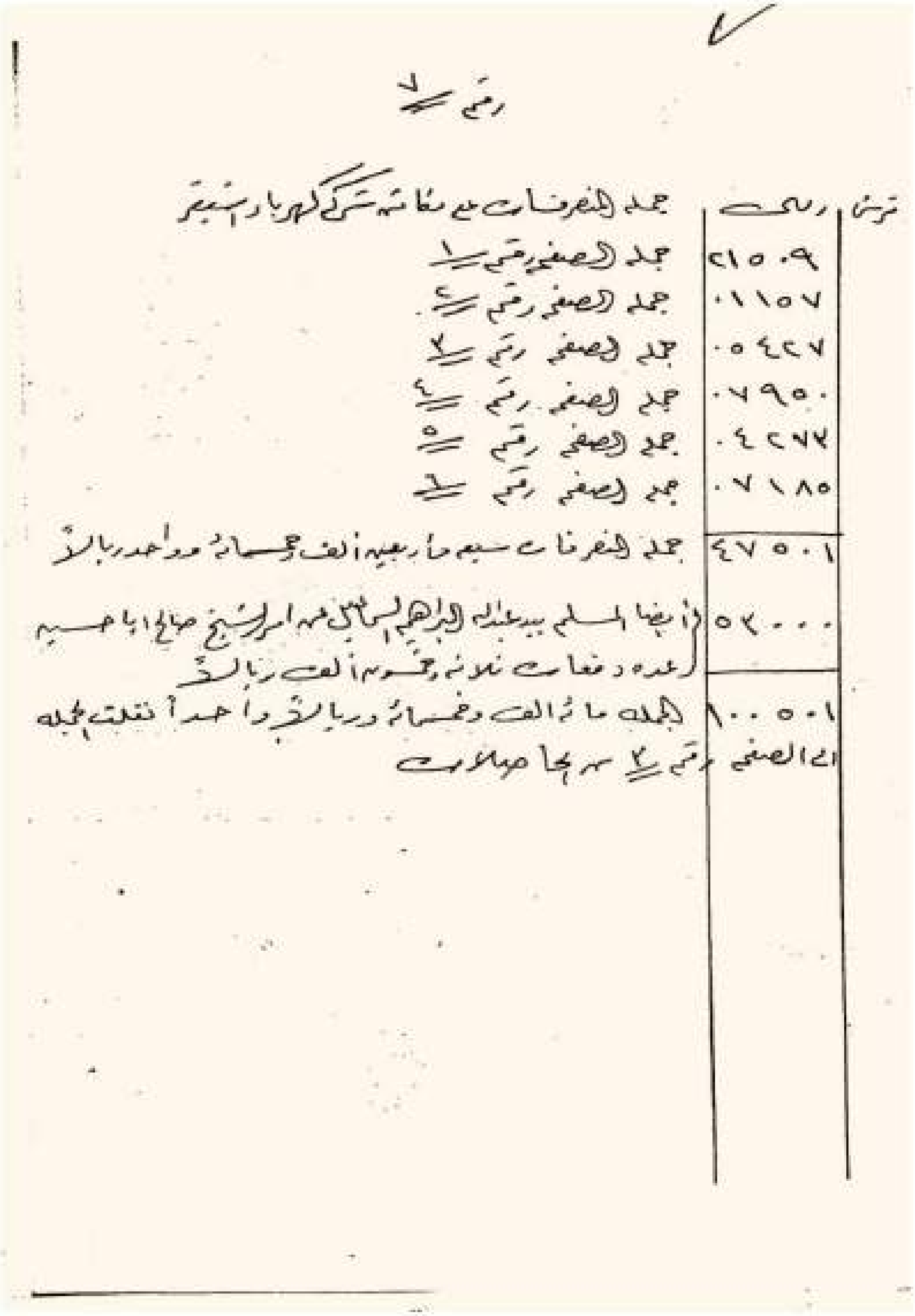

رقم ٧

قرش	ريال	
		جملة المصروفات على مكائن شركة كهرباء أشيقر
	٢١٥٠٩	جملة الصفحة رقم ١
	٠١١٥٧	جملة الصفحة رقم ٢
	٠٥٤٢٧	جملة الصفحة رقم ٣
	٠٧٩٥٠	جملة الصفحة رقم ٤
	٠٤٢٧٧	جملة الصفحة رقم ٥
	٠٧١٨٥	جملة الصفحة رقم ٦
	٤٧٥٠١	جملة المصروفات سبعة وأربعين ألف وخمسمائة وواحد ريال
	٥٢٠٠٠	أيضا المسلم بيد عبدالله إبراهيم السمالي من أمر الشيخ صالح أبا حسين على دفعات [illegible] وخمسين ألف ريال
	١٠٠٥٠١	الجملة مائة ألف وخمسمائة وريال واحد أحد نقلت جملة إلى الصفحة رقم ٢ من [illegible]

كشف يوضح جملة المصروفات على مكائن (ماطور) كهرباء أشيقر.

(انظر حكاية: الكهرباء في أشيقر، ص: 301-309).

ملحق رقم: 10

صورة أيقونة مهرجان الحلاوي، تصميم الأخ: عبدالله بن عبدالعزيز السالم.

(انظر حكاية: أشيقر قرية لن تموت، ص: 331-333)

كشاف الموضوعات

الرقم	عنوان الحكاية	الصفحة
1	المقدمة	5
2	رزقك في بغداد	16
3	عق الخولية	40
4	جن السليم	62
5	البدويتان	74
6	الملك سعود في خشم الملحاء	90
7	الصدقة الخفية	103
8	صفعة بلا سبب	123
9	قُفْر في روما	138
10	حكاية قصيدة (1)	156
11	حكاية قصيدة (2)	169
12	من عنابة إلى أشيقر (1)	183
13	من عنابة إلى أشيقر (2)	191
14	من عنابة إلى أشيقر (3)	217
15	من عنابة إلى أشيقر (4)	227
16	من عنابة إلى أشيقر (5)	238
17	من عنابة إلى أشيقر (6)	249
18	الإطارات الأربعة	264
19	في مركز القالة	279
20	بين مأساتين	295
21	حكاية الكهرباء في أشيقر	301
22	أشيقر قرية لن تموت	320
23	الملحقات	349-337

مقصورة «الزاقلة الشمالية» بأشيقر

التقطت بعدسة المؤلف عام 1415هـ

محمد رسول الله

عنوان المؤلف:

المملكة العربية السعودية، محافظة شقراء

أشيقر، ص.ب (6016)

البريد الإلكتروني:

aboalarab1370@gmail.com

جوال: 0505227082